أشهر الرسائل العالمية

من أول القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر

الجزء الثاني

اختارها وترجمها

محمد بدران

الكتاب: أشهر الرسائل العالمية.. من أول القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر (الجزء الثاني)

الكاتب: مُحَمَّد بدران

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بدران ، مُحَمَّد

أشهر الرسائل العالمية.. من أول القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر (ج٢) / اختارها وترجمها : مُحَمَّد بدران

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٤٨١ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٤٥٣ / ٢٠٢٢

أشهر الرسائل العالمية

من أول القرن التاسع عشر إلى الوقت الحاضر





المقدمة

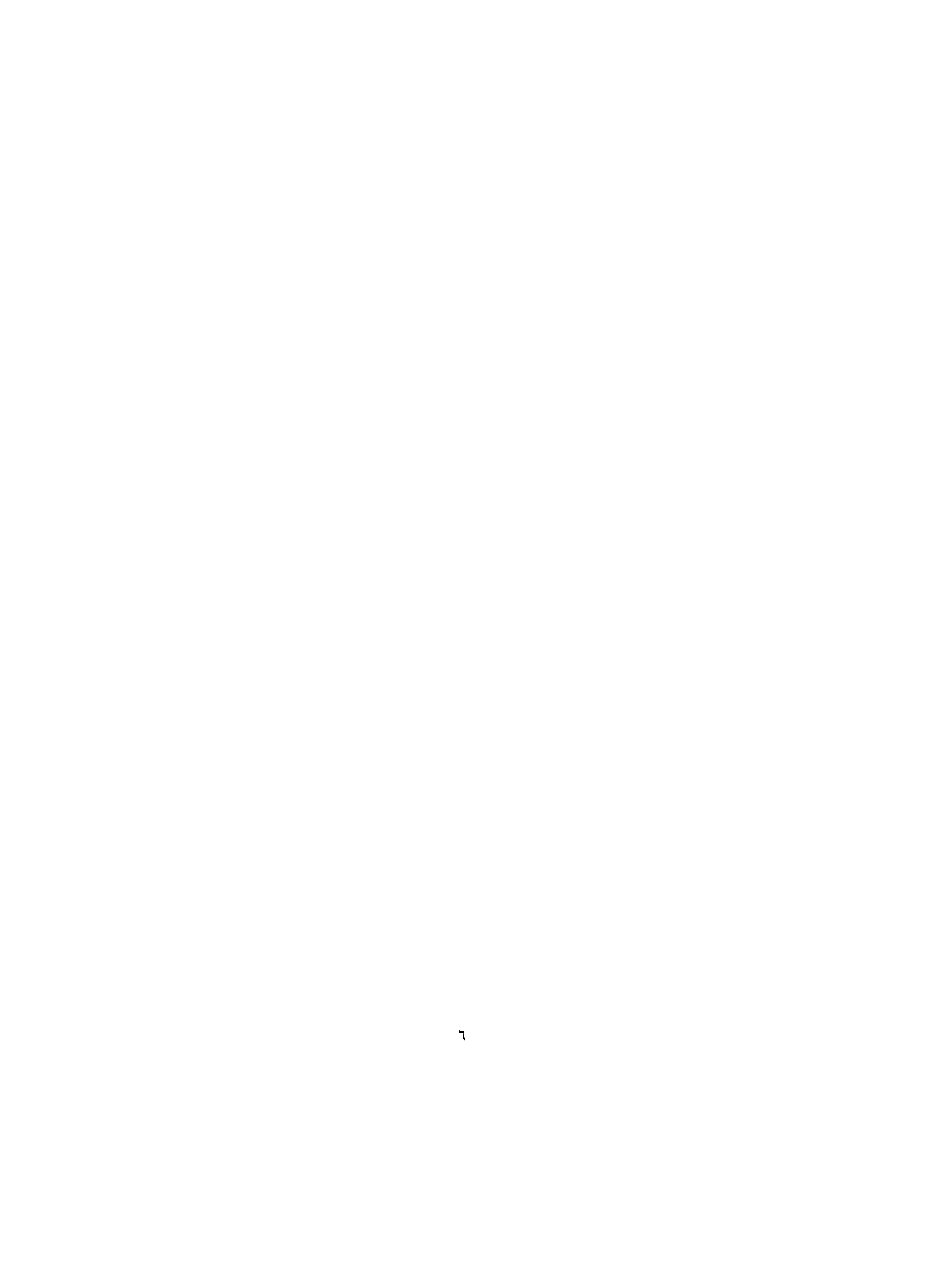
هذا هو الجزء الثاني من "أشهر الرسائل العالمية"، ننشره وفاء بالوعد الذي قطعناه يوم أصدرنا الجزء الأول، واستجابة لرغبة الأصدقاء والقراء الذين طالبونا بالوفاء به.

والرسائل التي يحتويها كتبت كلها تقريبا في الفترة المحصورة بين بداية القرن التاسع عشر والوقت الحاضر، وقد راعينا في اختيارها ما راعيناه في سابقاتها، فحرصنا على أن تنثل أكثر ما يمكن تمثيله من ألوان الأدب، وأن تلقي أكثر ما يمكن إلقاؤه من الضوء على أهم حوادث التاريخ، وجعلناها منوعة بقدر المستطاع، وشرحنا الأحوال التي كتبت فيها كل رسالة وما كان لها من أثر.

ونرجو أن يجد فيها القراء من الفائدة أو اللذة ما يعوضنا عما بذلناه في اختيارها وترجمتها من جهد.

محمد بدران

القاهرة في مارس سنة ١٩٤٨



رسائل نابليون بونابرت

وهي سلسلة من الرسائل بينه وبين الإمبراطورة جوزفين(١) والكونته ماري ولوسكا(٢) والإمبراطورة ماري لويز(٣)

كتبت بين عامي ١٧٩٦، ١٨١٤

(1)**Josephine**

(2)**Marie Walewska**

(3)**Marie Louise**

كلمة عامة

إن ما كتب عن نابليون بونابرت ليعدل ما كتب عن شكسبير أو يزيد عليه، وقد أحصى ما في مكتبات العالم من كتب وأبحاث عن نابليون فإذا هو لا يقل عن ثلاثين ألف كتاب، ولا ندري كم كتابا غيرها لم تسجل في هذه الفهارس أو لم يشملها هذا الإحصاء، ويقال إن نابليون نفسه كتب أو أملي ما بين ٥٥٠٠٠، ٧٥٠٠٠ رسالة، حرق الكثير منها في روسيا، ولكن ٤١٠٠٠ منها طبعت فعلا، ولا تزال الأيام تكشف كل يوم عن رسائل له جديدة، كما لا تزال المطابع تخرج عنه كل يوم أبحاثا وكتبا جديدة.

وليس في وسعنا أن نثبت هنا إلا نماذج من هذه الرسائل المختلفة، وذلك لأن إثباتها كلها يحتاج إلى مجلدات ضخمة، وإن رسائله إلى جوزفين وحدها لتملأ عدة كتب، فقد ظل نابليون يراسلها من يوم أن كتب لها كلمته الأولى يعرض عليها صداقته، إلى آخر رسالة منه يقول فيها أنه قد سمع بأنها سمنت حتى صارت أشبه بامرأة مزارع من النورمان.

وظل نابليون مستمسكا بحب جوزفين خلال ما كان يحيط به من الأخطار في المعارك الحربية، وما كان يتعلق به قلبه من حب لغيرها لا يدوم، وقد بدأ هذا الحب مذ قابلها وهو ضابط صغير رقيق الحال، وهي أرملة في الثانية والثلاثين من عمرها، ورآها رشيقة القوام وإن لم تكن بارعة الجمال، وظل هذا الحب من ذلك الوقت مسيطرا على حياته العاطفية؛ ولم تنقطع رسائله لها رغم أخطار الحرب وشئون الحكم. ثم استحال هذا الحب إلى عطف عليها بعد أن طلقها مضطرا، أملا في أن يكون له ولد يرث ملكه من بعده.

وسيجد القارئ فيما أثبتناه من رسائله إلى جوزفين كيف يفخر هذا الفاتح العظيم باستحواذه على "كنز لا تدانيه سائر الكنوز".

نابليون يخلد انتصاره على جوزفين بالسير لفتح إيطاليا.

في شهر مارس من عام ١٧٩٦ رضيت ماري روز جوزفين تاشيه ده باجري[١] ابنة ضابط صغير في المدفعية أن تتزوج "من خطيب ضئيل رقيق الحال يلح في طلب الزواج بها". وكان نابليون وقتئذ ضابط صغير السن في الجيش الفرنسي نال إعجاب حكومة الثورة حين رد جموع الشعب التي احتشدت في العاصمة الفرنسية في يوم ١٣ قندميير[٢] – ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥. وكانت هي في ذلك الوقت أرملة لأحد النبلاء السابقين أعدمه الثوار الفرنسيون، كما كانت من النجوم اللامعة في المجتمعات الفرنسية.

هذه المرأة أوحت إلى نابليون "بحب سلب عقلي، فلا أستطيع الأكل ولا النوم ولا العناية بالأصدقاء ولا الاهتمام بالجد؛ وحتى النصر نفسه لا أقدره إلا لأنه يدخل السرور عليك ... لقد ملأت قلبي حبا لا حد له ... ".

وبعد زواجه بقليل عينته حكومة الإدارة قائدا أعلى للجيش، وأمرته بالزحف على إيطاليا ليحرر هذا البلد التعس من نير النمساويين، وسافر نابليون بالفعل بعد يومين اثنين من زواجه، وبقيت جوزفين في فرنسا تتمتع بمباهج باريس، وكثيرا ما كتب نابليون إلى زوجته المحبوبة يطلب إليها أن تجئ إليه في إيطاليا، ولكنها فضلت أن تطيع أمر حكومة الإدارة حتى لا تشغله عن القيام بواجبه، بل إنها قلما كانت ترد على رسائله، على أنه بعد أن وصل في فتوحه إلى ميلان رفع الحجر الذي كان مفروضا عليها ولحقت به هناك.

---

(1)Marie Rose Josephine Tascher de la Pagerie

(٢) Vandemiaire من أسماء الشهور التي استحدثتها الثورة

-١-

"أرجو أن أعصرك قريبا بين ذراعي ... "

فيرونا[1] في ١٣ نوفمبر سنة ١٧٩٦

لست أحبك، لست أحبك مطلقا، بل إني أمقتك، إنك فتاة خبيثة سمجة حمقاء، إنك لا تكتبين إلي، إنك لا تحبين زوجك؛ وأنت تعرفين ما تدخله رسائلك من السرور على قلبه، ومع ذلك فإنك لم تكتبي إليه ستة أسطر تقذفينه بها عرضا!

ماذا تفعلين طوال اليوم يا سيدتي؟ وأي شأن خطير يشغلك فلا يترك لديك من الوقت ما يسمح لك بالكتابة إلى محبك المخلص الوفي؟ وأي عاطفة تملكتك حتى تغلبت على الحب، الحب الخالص الدائم، الذي وعدته به؟ ماذا عسى أن يكون ذلك الكائن العجيب؟ ذلك المحب الجديد، الذي يشغل كل لحظة من وقتك، ويسيطر على أيامك، ويمنعك أن تعيري زوجك أقل عناية؟ حذار يا جوزفين! سيفتح الباب في ليلة صافية فتجديني أمامك.

والحق يا حبيبتي أي قلق أشد القلق، لأني لم أتلق منك أنباء، فاكتبي إلي من فورك أربع صفحات، صفحات تفيض بالأنباء السارة التي تملأ قلبي بأبهج المشاعر.

أرجو أن أعصرك قريبا بين ذراعي، وأن أغمرك بآلاف من القبلات الملتهبة كأنها تحت خط الاستواء.

بونابرت

وبدأ نابليون وهو في إيطاليا يدرك ما في طباع جوزفين من طيش ونزق، وخبت نار الحب قليلا في قلبه، ولكنها رغم هذا وذاك لم تفقد منزلتها لديه، وتوالت رسائله إليها وإن لم تبادله هي الرسائل. وقبل أن يعود من حروبه في مصر بدأ يرتاب في صداقتها لضابط يدعى شارل، وأخذ يفكر في الطلاق، ولكن دموع عينيها وتوسلها

---

(1)Verona

إليه قضيا على أسباب النزاع، ويقول المؤرخون إن علاقتهما ظلت طيبة بوجه عام إلى سنة ١٨٠٤، وقال نابليون فيما بعد عن خلافهما ونزاعهما: "كنت عادة أخضع لها".

وقال في رسالة شهيرة كتبها من فيرونا في عام ١٧٩٧

" ... أقبلك ألف ليلة. إني بخير، ولم تزد خسائرنا على عشرة من القتلى ومائة من الجرحى – بونابرت".

-٢-

" ... أما زوجك فهو وحده الشقي المعنى"

ميلان في ٢٧ نوفمبر في الساعة الثالثة مساء

وصلت إلى ميلان، واندفعت إلى مسكنك، وقد تركت كل شيء لكي أراك وأضمك بين ذراعي ...، ولكني لم أجدك لأنك تسرعين من بلد إلى بلد جريا وراء الحفلات، فلا أكاد أصل إلى بلد حتى أجدك قد خرجت منه، إنك لا تعنين الآن أقل عناية بزوجك العزيز نابليون، ولقد كانت سورة عارضة هي التي جعلتك تحبينه، وإن عدم ثباتك على حبه ليقضي على اهتمامه بك، لقد تعودت ركوب الأخطار وعرفت منها دواء الملل ومتاعب الحياة، على أن الشقاء الذي أشعر به مما لا يمكن وصفه، وكان من حقي أن أنجو منه.

سأقيم في هذا البلد إلى مساء اليوم التاسع فلا تغيري شيئا من خطتك، بل داومي على مسراتك، فإن الهناءة لم تخلق إلا لك، وإن العالم كله ليسعد أعظم السعادة إذا استطاع أن يدخل السرور عليك، أما زوجك فهو وحده الشقي المعنى.

بونابرت

ولما صار نابليون قنصل فرنسا الأول مدى الحياة، ثم أصبح فيما بعد عاهلها، وبلغ ذلك ذروة المجد، ألحت عليه جوزفين أن يحتفل بزواجها من جديد، فأجابها إلى

هذه الرغبة، واحتفل بهذا الزواج احتفالا دينيا رائعا في أول يوم من ديسمبر سنة ١٨٠٤، لكن نابليون حسب للمستقبل حسابه، فترك عن قصد أحد المراسم الدينية الواجبة في مثل هذا الاحتفال، فلم يحضره قسيس الأبرشية، وكان هذا النقص مما سهل عليه أمر طلاقها بعد ست سنين من هذا الزواج، وغفلت جوزفين عن هذا الخطأ المتعمد في ساعة ظفرها وقبيل تتويجها التاريخي في كنيسة نوتردام، إذ شغلها إعجابها بنفسها وزهوها على أترابها عن التفكير فيه، وتوالت انتصارات نابليون في أوروبا، وأنهمك في حروبه الخارجية ومشاكله الداخلية، ولكنه مع ذلك كان يجد من الوقت ما يستطيع أن يداعب فيه جوزفين، من ذلك ما كتبه إليها من برون[١] يقول:

-٣-

"هلا نزلت من عليائك ... "

برون في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٠٥

أيتها الإمبراطورة العظيمة، لم تكتبي إلي مذ سافرت من استرسبرج[٢] لقد تنقلت بين بادن واستتجارت وميونخ[٣]، دون أن تكتبي إلينا كلمة واحدة. وليس هذا مما يدل على حبك لي أو عطفك علي، أما أنا فلا أزل في برون، وقد جلا عنها الروس، وعقدنا هدنة مؤقتة، وسأنظر بعد أيام قلائل ماذا عسي أن أكون، هلا نزلت من عليائك، وجشمت نفسك بعض المشقة من أجل عبدك.

نابليون

(1)Brunn

(2)Strassburgh

(3)Munich , Stuttgart , Baden

نابليون يحدث جوزفين عن أسباب بغضه للنساء الدساسات

وبعد أن تم النصر لنابليون في واقعة جينا[1] وخضعت له أوروبا الغربية إلى حين، أخذ يفكر في غزو الشرق، ولكنه رأى قبل ذلك أن يصفي حسابه أولا مع روسيا، ولعل جوزفين قد شعرت بشيء من الفتور نحوها فطلبت إليه أن ترافقه في سفره، غير أنه لم يكن وقتئذ في حاجة إليها، على أنه مع ذلك ظل يكتب إليها ويبثها لواعج حبه.

٤ —

" .. إني أحب النساء الطيبات الوفيات الحسان، ولكن سبب حبي إياهن أنهن يشبهنك ..."

برلين في ٦ نوفمبر سنة ١٨٠٦ والساعة التاسعة مساء.

تلقيت رسالتك التي تظهرين فيها غضبك من عبارات جافة قلتها عن النساء[2]. والحق أنني لا أبغض شيئا كما أبغض النساء الدساسات، فلقد ألفت النساء الطيبات الحسان المسالمات، أولئك هن اللاتي أحبهن، وإذا كن قد أتلفتني فليس ذلك ذنبهن بل ذنبك أني، على أنك سترين أني أحسنت معاملة امرأة برهنت على أنها عاقلة طيبة، وتلك هي مدام هتز فلد[3]. لقد أطلعتها على خطاب زوجها فقالت لي وهي تنتحب وقد غلبتها عواطفها وفاض قلبها وفاء: "آه، إن هذه كتابته حقا!" فلما أخذت تقرأه نفذت نبرات صوتها إلى قلبي، فتألمت لذلك أشد الألم، وقلت لها: "آه، يا سيدتي! ألق هذه الرسالة في النار، فليس يسعني الآن أن آمر

(1) Jena

(٢) لقد أظهرت الإمبراطورة قبل ذلك ألمها لأن نشرة الجيش العظيم ذكرت ملكة بروسيا بغير الاحترام اللائق بمقامها.

(3) Hatzfeld

بعقاب زوجك!". فأحرقت الرسالة وبدت لي كأنها سعيدة، أما زوجها فهو الآن مطمئن بعيد عن أسباب القلق، ولو أن هذا اللقاء قد حدث بعد ساعتين اثنين من ذلك الوقت لكان عديم الجدوى، فأنت ترين من هذا أني أحب النساء الطيبات الوفيات الحسان، ولكن سبب حبي إياهن أنهن يشبهنك

استودعك الله يا حبيبتي إني بخير

نابليون

نابليون يتوسل إلى الكنته ماري ولوسكا أن ترحم قلبه

وشرع نابليون من ذلك الوقت يفكر في الشرق، وأصبحت "هزيمة إنجلترا في الهند" شغله الشاغل. ولاحت له فكرة العالم كله تحت لوائه، وأيقن أن الخطوة الأولى التي يجب عليه أن يخطوها إلى هذه الغاية هي أن يكسب صداقة روسيا، وأن يتخذ من بولنده نقطة ارتكاز يعمل فيها لكسب هذه الصداقة[١]

لهذا قصد إلى وارسو في عام ١٨٠٦، وبدأ من ذلك الحين يشكو "الوحدة" ويكتب في ليالي الشتاء القارسة البرد رسائل إلى جوزفين تفيض بالحنين وبالعواطف الجائشة، ويؤكد لها أنها هي وحدها التي تملأ فراغ قلبه، وسمع في ذلك الوقت نفسه أن حادثة من حوادث الحب التافهة التي وقعت له في الشتاء السابق قد جاءته بولد غير شرعي. فأيقن من ذلك الوقت أن ما كان يرجوه من إيجاد أسرة مالكة من نسله ليس كله سرابا بقيعة، وفي بولنده وفي قصر ملوكها الأقدمين أفتتن بحب مارس ولوسكا، وهي فتاة صقلية في الثامنة عشرة من عمرها، ومن نسل أميرة بولندية قديمة رقيقة الحال، بلغ من فقرها أن زوجت هذه الفتاة الشابة بنبيل هرم، والتقى بها الإمبراطور أول مرة في حفلة راقصة كانت هي أولى من راقصته فيها، وما إن وقعت عينه عليها حتى شغف بها، ونفذت إلى قلبه سهام عينيها الزرقاوين، وأعجبته لغتها الفرنسية الركيكة، وخفتها رشاقتها ووجهها الأشقر.

وفي مساء اليوم التالي كتب إليها أولى الرسائل الثلاث الواردة فيما بعد، وبعث بها إليها على يد صديقه دورك[٢].

ولم ترسل إليه الفتاة ردا، ويقول إميل لدفج[٣] إن الإمبراطور العظيم الذي لم

(١) قارن هذا بالأحداث التي وقعت في سبتمبر من عام ١٩٣٩

(2)Duroc

(3)Emil Ludwig

يعتد هذا الإهمال، حتى من الأميرات أو الممثلات، وجد في هذا الإغضاء ما زاده شوقا إليها وافتتانا بها، فبعث إليها في خلال الثلاثة التالية – برسالتين أخريين استجابت بعدهما لحبه، فأقام معها في بولنده مسلوب اللب لا يطيق صبرا على فراقها.

وفي ذلك يقول إميل لدفج "... أما القصر والجيش وباريس وأوروبا – فلتنتظر .. لقد أصبحت الكنتة ولوسكا ملاكه ... وأصبحت هي الرفيق المحب الهادئ الذي ظلت روح نابليون الفتية تنقب عنه حتى وجدته".

وأثمرت هذه العلاقة ولدا ولدته ولوسكا في قصر ناء منعزل بالقرب من وارسو في الرابع من شهر مايو سنة ١٨١٠. وأصبح هذا الولد بعدئذ من كبار الساسة الفرنسيين في عهد لوي فيليب(١)، ثم صار وزيرا وعضوا في مجلس الشيوخ في عهد الإمبراطورية الثانية، ومنح في عام ١٨٦٨ قبل وفاته بسنتين لقب دوق، واختير عضوا في مجمع الفنون الجميلة، ثم أنعم عليه بالصليب الأكبر من وسام الشرف الفرنسي(٢). أما الكنتة نفسها فعاشت حتى شهدت عهد الإمبراطورية الثانية وتزوجت في آخر أيامها بأحد النبلاء الفرنسيين.

وإلى القارئ الثلاث الرسائل القصار التي بعث بها نابليون إلى الكنتة ماري ولوسكا.

٥ –

".. لم أعجب إلا بك"

يناير سنة ١٨٠٧ [؟]

لم أر إلا أنت، ولم أعجب إلا بك، ولست أرغب إلا فيك، فهل من جواب

(1)Louis Philippe

(2)Legion of Honour

سريع يهدئ سورة الحب المضطرمة في قلب

نابليون

٦ –

"... هل أسأت إليك؟"

هل أسأت إليك؟ كنت أظن أنني قد فعلت عكس هذا، أو هل خبت نار شعورك الأول؟ إن حبي إليك يزداد، وإنك لتحرميني راحتي، اسمحي بقليل من السرور وقليل من الهناءة لذلك القلب المعذب الذي يكاد يعبدك! هل يصعب عليك أن تردي علي جوابا؟ إنك الآن مدينة لي بجوابين.

[من غير توقيع]

٧ –

"ليتك تسمحين"

تمر على الإنسان في حياته لحظات يكون فيها منصبه الرفيع عبئا ثقيلا يبهظه، وتلك هي حالي في هذه الساعة ... ليتك تسمحين! ليس في مقدور أحد غيرك أن يتغلب على العقبات التي تحول بيني وبينك، وسيذل صديقي دورك كل ما يستطيع من جهد ليبسر لك لقائي، تعالي! تعالي، ستنالين مل ما تشتهين! وحتى بلدك نفسك سيكون أعز علي من كل شيء إذا رحمت قلبي.

نابليون ينصح جوزفين ألا تستخف بالمجد

وقد تكون نغمة الضجر والملل التي تسود الرسالة التالية التي كتبها إلى جوزفين هي النتيجة الطبيعية للصلة التي نشأت بين نابليون وماري ولوسكا في أثناء الحملة البولندية، وفي الوقت الذي كان يعد فيه العدة للهجوم على روسيا، وقد يكون في إشاراته إلى الأطفال في هذه الرسالة ما ينم عما كان يجيش وقتئذ في صدره من آمال.

٨ —

"... إن قلبك لمن أطيب القلوب ولكن عقلك ضعيف ..."

١٨٠٧

حبيبتي

لقد أقلقتني رسالتك المؤرخة ٢٠ يناير، فهي حزينة النغمة فوق ما ينبغي، فانظري الآن أي شقاء يلقاه من لا يعمر قلبه من التقوى. تقولين لي أنك تجدين في سعادتك ما يغنيك عن المجد، وليس في هذا دليل على عظمتك، فقد كان حقا عليك أن تقولي "إني أجد في سعادة غيري من الناس ما يغنيني عن المجد". وليس فيه أيضا ما يدل على أنك زوجة صالحة وإلا لقلت "إن مجدي في سعادة زوجي"، وليس فيه كذلك ما يشهد بأنك أم صالحة، وإلا لقلت "إن سعادة أبنائي هي مجدي". فإذا كان الناس، وإذا كان زوجك وأبناؤك، لا يسعدون إلا إذا امتزجت سعادتهم بقليل من المجد، فلماذا تستخفين بسعادتهم إلى هذا الحد؟ أي جوزفين! إن قلبك لمن أطيب القلوب ولكن عقلك ضعيف، فأنت مرهفة الحس ولكنك لا تحسنين التفكير.

كفى نزاعا، إني أريد أن تكوني مرحة قانعة بما قسم لك، مطيعة غير شاكية ولا باكية، بل فرحة مستبشرة، يزينك شيء من طيبة القلب، وداعا يا حبيبتي، إني مسافر لأفتش مخافري الأمامية.

نابليون

نابليون يلوم زوجته التي هجرها ويؤكد لها أنه باق على حبها

ظلت أسرة بونابرت زمنا طويلا تدبر المؤامرات، وتعمل جاهدة لتطلق جوزفين من نابليون، ويذكر القارئ أن نابليون تعمد في احتفاله الرسمي بزواج جوزفين أن يجعل هذا الطلاق مستطاعا فيما بعد، وما وافت سنة ١٨٠٩ حتى صحت عليه عزيمته، ذلك أنه كان شديد الرغبة في أن يكون له وارث شرعي، وقد حدث في أثناء الحملة البولندية ما أكد له أن في وسعه أن يكون له هذا الوارث، إذ تبين أن الذنب في عقمه هو ذنب جوزفين لا ذنبه هو.

وزاد حرصه على تأسيس أسرة مالكة بعد أن نجا من الاغتيال بعد ذلك بقليل.

وأخيرا أعلن نابليون أن مصالح الدولة العليا توجب عليه أن يطلق زوجته.

وحاولت جوزفين أن تثنيه عن عزمه، ولكنها لم تستطع، وأصر نابليون على رأيه بعد ذلك اللقاء المؤثر بينها وبينه في مساء ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٠٩.

ولم يجد هو مشقة في أن يعلن في يناير سنة ١٨١٠ أن زواجه القديم الذي عقد في أول يوم من ديسمبر سنة ١٨٠٤ لم يكن زواجا صحيحا، وقضت جوزفين آخر أيامها في "عزلة مجيدة" في قصر ملميزن[1] قرب باريس، وماتت في الرابع والعشرين من مايو سنة ١٨١٤.

وأراد نابليون أن يثبت دعائم فتوحه الواسعة، ويمكن لأسرته في البلاد الخاضعة لسلطانه، فhختار بعد شيء من التردد بين ويانة وبطرسبرج أن يتزوج الدوقة ماري لويز، النمساوية، واستطاع الإمبراطور فرنسيس بهذا الزواج أن ينجي الدولة النمساوية المتداعية، كما استطاع مترنيخ السياسي الداهية أن يوهن الحلف القائم بين فرنسا وروسيا.

---

(1)Malmaison

وجرى الاحتفال بزواج نابليون في كنيسة نوتردام في الثاني من شهر أبريل سنة ١٨١٠.

وأثمر هذا الزواج فيما بعد ملك رومة، وعاشت مطلقته جوزفين حتى خلع عن عرش فرنسا، ولكنها لم تفقد قط حبها له، وظل هو يراسلها إلى آخر أيامه، كما تدل على ذلك الرسالة التالية التي بعث بها إليها بعد ثلاثة أسابيع من زواجه بماري لويز أو أقل.

٩ —

"... إن من كان مثلي لا يتغير"

كميني في ٢١ إبريل سنة ١٨١٠.

حبيبتي.

تلقيت رسالتك المؤرخة ١٩ إبريل، وهي رسالة رديئة الأسلوب، إنني سأظل على الدوام كما كنت، فإن من كان مثلي لا يتغير، ولست أعرف ماذا قالت لك يوجين، إني لم أكتب إليك قبل هذا لأنك لم تكتبي لي، ولأني لا أحب لك إلا ما تحبين لنفسك.

ولقد سرني أن أعرف أنك ستذهبين إلى ملميزن، وأنك راضية، ويسعدني أن أعرف أخبارك وأن أرسل إليك أخباري، ولن أقول أكثر من هذا حتى تفاضلي بين رسالتي هذه وبين رسالتك، وسأترك لك بعد هذه المفاضلة أن تحكمي أينا خير من الآخر وأصدق مودة أنا أو أنت.

وداعا يا حبيبتي لا تبتئسي وكوني منصفة لنفسك ولي.

نابليون

نابليون يعرف من جوزفين أن قلبها قد عاد إليها

وردت جوزفين على هذه الرسالة برسالة أخرى كررت فيها عطفها الدائم على زوجها السابق وعاهلها، واحتفظت في الأربع السنين الباقية من حياتها بكرامتها، ولم تجحد فضل نابليون عليها، ولم ينس نابليون نفسه هذا العطف، وقد ذكره وهو على فراش الموت في جزيرة القديسة هيلانة، وإلى القارئ رسالة من رسائل جوزفين بعد طلاقها.

– ١٠

"... إن قلبي كله هو الذي يتحدث إليك"

نافار في ١٠ إبريل سنة ١٨١٠.

شكرا لك ألف شكر لأنك لم تنسني. لقد جاءني ولدي توا برسالتك، وقرأتها بشغف عظيم، ولكني مع ذلك قضيت في قراءتها وقتا طويلا، فما من لفظ من ألفاظها إلا أجري الدمع من عيني. غير أن هذه الدموع كانت دموعا حلوة، أعادت إلى قلبي كاملا، وسيظل كما هو الآن إلى آخر حياتي، إن من الشعور ما هو من صميم الحياة نفسها، وما لا ينقضي إلا بانقضائها.

ولشد ما أحزنني أن رسالتي التي بعثت بها إليك في التاسع عشر قد سأتك، ولست أذكر ألفاظها كلها ولكني أذكر ذلك الشعور المؤلم الذي أملاها علي، إن الذي أملاها هو الحزن الذي غمرني لأني لم أتلق كلمة واحدة منك.

لقد كتبت إليك حين غادرت ملميزن، وكم من مرة بعد ذلك الوقت حاولت أن أكتب! ولكني كنت أحس بأسباب سكوتك، وخشيت أن يكون في الكتابة إليك إلحاح مني لا ترضيه، ثم جاءت رسالتك فكانت بلسما لجراحي، فكن سعيدا، كن سعيدا بقدر ما تستحق من السعادة، إن قلبي كله هو الذي يتحدث إليك، فلقد

وهبتني أنا أيضا نصيبي من السعادة وهو نصيب أشعر به كل الشعور، وليس شيء أعظم من هذا الشعور قدرا وأقوى أثرا في تذكيري بفضلك.

وداعا يا صديقي وأشكرك شكرا لا يقل عن حبي الدائم لك.

جوزفين

نابليون يفشي أسراره الحربية إلى الإمبراطورة ماري لويز

كان مما قاله نابليون لمترنيخ[1] عقب زواجه بماري لويز عام ١٨١٠ أنه "بدأ يعيش، وأنه كان يبغي من زمن بعيد أن يكون له بيت، وأنه قد نال آخر الأمر بغيته".

وتكشف رسائل نابليون إلى ماري لويز علاقته بزوجته الثانية، وقد ظلت هذه الرسائل سرا مكنونا لدى أسرة الأميرة النمساوية أكثر من مائة عام، ثم باعت منها في عام ١٩٣٥ ثلاثمائة وثماني عشرة رسالة إلى الحكومة الفرنسية، وسمحت هذه الحكومة بنشرها.

وكان نابليون يكتب إلى ماري لويز من ميادين القتال في روسيا وألمانيا وفرنسا، وقد كتب إليها الرسالة التالية في يوم مشئوم هو يوم ٢٣ مارس سنة ١٨١٤، وكتبها في خيمته حيث كان يكتب كثيرا من رسائله.

– ١١

"وداعا يا حبيبتي ... وقبلتي إلى ولدي"

٢٣ مارس سنة ١٨١٤.

حبيبتي! لقد قضيت جميع الأيام القليلة الماضية فوق ظهر جوادي ... ولقد استوليت على أرسي – على – نهر أوب[2] في العشرين من هذا الشهر، وهجم علي العدو فيها والساعة ٦[3] مساء، ولكنني انتصرت عليه في اليوم نفسه، وقتلت (٠) ٤٠٠، من جنوده، واستوليت على مدفعين من مدافعه، وغنم هو مدفعين من مدافعي، فكنا من هذه الناحية فرسي رهان، وفي اليوم الحادي والعشرين تجمع جيش

Matternich

(2)Arcis – sur – Aube

(٣) يوجد رقم ٢ فوق هذا الرقم

العدو ليحمي قوافل مؤنة المتجهة إلى برين[١] وبار – على – نهر أوب[٢]، فقررت حينئذ أن أتجه إلى المارن[٣] وإلى خط اتصاله لأدفعه بعيدا عن باريس، وأقترب من حصونه، وسأصل بعد ظهر اليوم إلى سانت ديزييه[٤]. وداعا يا حبيبتي وقبلتي إلى ولدي.

ناب

هذه هي الرسالة الشهيرة التي وقعت في يد العدو، وكانت سببا في هزيمته سنة ١٨١٤ وفي نفيه إلى جزيرة إلبا[٥]. والتي خسر على إثرها عرش فرنسا والسيادة على أوروبا، ذلك أن الرسالة التي شرح فيها نابليون خطته وقال إنه سيسير إلى المارن ليبعد العدو عن باريس قد كشفت لبلوخر[٦] القائد الألماني عما كان في حاجة إلى معرفته.

ولما عرفت ماري لويز أن الرسالة وقعت في يد العدو كتبت إلى دوقة منتبلو[٧] تقول: "لقد سمعت الآن أن الرسول الذي كان قادما إلينا في الثالث والعشرين قد قبض عليه .. يا لسوء الحظ! إن هذا يحزنني!" وما أصدق ما قالت، فإن الرسول كان يحمل أنباء في غاية الخطورة، وبعد أن أطلع بلوخر على الرسالة بعث بها إلى الإمبراطورة معتذرا عن فتحها في أدب الساخر المتهكم وقال: إنه "يضعها تحت أقدام الأبنة العظيمة لجلالة إمبراطور النمسا".

وعرف الخلفاء ما يعتزمه نابليون، عرفوا أنه أدار ظهره إلى باريس وترك الطريق

---

(1)Brienne

(2)Bar – sur – Aube

(3)Marne

(4)Dizier

(5)Elba

(6)Blucher

(7)Montebello

إليها خاليا، فاندفع المغيرون في هذا الطريق، وأنبأت ماري لويز سفاري[1] وزير الشرطة بالحادث، ولكنه عجز عن إدراك الخطر المحدق بالمدينة، ولم يبلغ النبأ للإمبراطور في الوقت المناسب، بل تركه كله للأقدار.

وكانت خاتمة الرسائل التي بعث بها نابليون إلى ماري لويز رسالة من إلبا يعتذر فيها عن نفيه، ويرجوها ويأمرها أن توافيه إليها، ولكنها لم تحقق رجاءه أو تطع أمره، ثم أنذرها بأنه سيختطفها عنوة إذا لم تستجب لرجائه، ولكنها أصرت على عصيانه، وتم بذلك افتراقهما؛ وبقيت ماري لويز في فينا أثناء الأيام المائة – بين فراره من إلبا وموقعة ووترلو – ولم تفعل شيئا تساعده به في فرنسا، وفيها أحبت الكنت فن نابيرج[2] ثم تزوجته، وكان الكنت قد ساعدها على الفرار من فرنسا مع ولدها، حين خلع نابليون أول مرة، وانتهى الأمر بأن قطعت الدوقة كل صلة لها بنابليون، وذكرها هو في وصيته بحنان ظاهر وعفا عنها وصفح عن خيانتها له، وعاشت بعده ستا وعشرين سنة وماتت في ويانه عام ١٨٤٧.

أما ما جرى لنابليون بعد وقوع هذه الرسالة في يد العدو فحسبنا أن نذكر إلبا ووترلو وجزيرة القديسة هلنا، وكان آخر ما نطق به وهو على فراش الموت، فرنسا! ... الجيش! ... رأس الجيش! ...

جوزفين.

(1)Savary

(2)Count Von Neipperg

نابليون بونابرت يطلب حماية إنجلترا بعد واقعة ووترلو

[رسالته إلى الوصي على العرش]

من أعظم ما يشتهر به نابليون فراسته وصدق حكمه على الرجال والحوادث، ولكن هذه الصفة أخذت تفارقه بعد عام ١٨٠٢، وشاهد ذلك أنه أقدم على الحملة الروسية على الرغم من نصيحة أعظم قواده وأكثرهم حنكة، وأنه ارتكب في أثناء هذه الحملة نفسها عدة أغلاط مربقة، وجاءت بعد سنة ١٨١٢ سنتان أخريان حاول فيهما أن يصلح بعض أغلاطه، ثم كانت ليبزج، اعتزاله الملك أول مرة ثم إلبا، وفي تلك المدة لم تفارق نابليون براعته وإن فارقته فراسته وفارقه صدق حكمه الذي كان يمتاز به في سني سطوته الأولى.

ثم تجددت عظمة نابليون، واستيقظت فيه من جديد عقليته الجبارة في فترة المائة يوم – بين فراره من إلبا وواقعة ووترلو – حتى ليستطيع الإنسان أن يقول إن عبقريته لم تظهر في وقت من الأوقات كما ظهرت في تلك الأيام، لقد كانت الخطة التي رسمها على الورق لواقعة ووترلو خطة بارعة ما في ذلك شك، ولكن قواده عجزوا عن تنفيذها، ولعل شعور نابليون بأفول نجمه قد انتقل منه إلى ناي[١] وكان سببا في نضوب خيال جروشي[٢].

وهكذا خسر نابليون ووترلو ووقع في ٢٢ يوليه صك نزوله الثاني عن العرش، وفي ٩ يوليه نفي من فرنسا، وبعد أربعة أيام من نفيه كتب الرسالة التالية إلى الوصي على عرش إنجلترا:

---

(1)Ney

(2)Grouchy

– ١٢
"... ختمت حياتي السياسية .."

[في ١٣ يوليه سنة ١٨١٥]

.. يا صاحب السمو الملكي:

لقد خررت صريعا أمام الحزبية التي قسمت بلادي شيعا، وأمام عداوة أعظم دول أوروبا، ولهذا ختمت حياتي السياسية وجئت كما جاء ثمستكليز[1] لاجئا إلى كرم الشعب الإنجليزي، أضع نفسي تحت حماية قوانينه، وهي الحماية التي أطلبها إليك يا صاحب السمو الملكي، لأنك أقوى أعدائي، وأثبتهم وأكرمهم.

نابليون

وليس ثمة ما يبرر إرسال هذا الخطاب حتى ولا ظروف نابليون المائسة، فقد كان خليقا به أن يعرف أن الوصي لم يؤت من الشهامة ما يدفعه إلى نجدة نابليون؛ وإن إرسال هذه الرسالة لدليل واضح على أن ما عرف عنه من حكمة وفراسة قد أخذ يفارقه.

وما من شك في أن الوصي على العرش لم يكن يستطيع إنقاذ نابليون حتى لو أراد، لقد كانت الحكومة الإنجليزية كسائر الحكومات الأوروبية مصممة على أن تضع نابليون في مكان لا يستطيع الفرار منه، واختارت لهذا الغرض جزيرة القديسة هلنا، وهي صخرة في المحيط الأطلنطي الجنوبي تبعد نحو ١٧٠٠ ميل عن مدينة الرأس أقرب ثغر كبير لها.

---

(1)Themistocles

من رسائل لدفج فان بيتهوفن إلى محبوبته الخالدة وإلى أخويه كارل وجوهان

لسنا نعرف كيف استطاع لدفج فان بيتهوفن أن يجد من الوقت ما يكفي لكتابة رسائله الكثيرة، ولعل هذا من أسرار عبقريته النادرة، لقد كنا نظن أن أغنيه ومسرحياته وقطعه الموسيقية الخالدة تشغل ليله ونهاره، ولا تترك له من الساعات الأربع والعشرين ما يستطيع أن ينفقه منها في غير هذه الأعمال، ولكنه استطاع بمعجزة من المعجزات أن يجد متسعا من الوقت ينفقه في غير الأغاني والأناشيد والمسرحيات الغنائية، وما هو أشد اتصالا منها بمآسي الحياة الإنسانية وضروراتها، كالوحدة واليأس والحب، وتراه حين يجد هذا الوقت يفرغ على قلمه ما يفيض به قلبه.

وكان بيتهوفن في موسيقاه متحفظا يفرض على نفسه أشد القيود، أما في رسائله فهو يطلق لنفسه العنان، ويتدفق شعوره كالسيل، وهذه الرسائل إذا قرأها الإنسان في ضوء الروائع الموسيقية التي كان ينشئها وقتئذ، تكشف له عن كثير من أسراره، فمنها يعرف تلك النابئات التي كان بيتهوفن يصارعها، وكيف أصبح بفضل هذا الصراع من أبطال التاريخ، ولقد أوتي بيتهوفن من القوة ومتانة الخلق ما استطاع به أن يموت كما عاش مخلصا للفن مضحيا في سبيله.

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر من حياته أكثر من أنه ولد في عام ١٧٧٠، وأنه سافر إلى ويانه في عام ١٧٩٢ أي في الثانية والعشرين من عمره، ليدرس على هايدن[١]، وأن السنين الثماني التالية كانت أسعد سنى حياته، فقد كان فيها محبوبا في الأوساط الأرستقراطية، وعرف فيها بحبه للطبيعة والطعام الشهي والشراب ورفقة الصحاب، وأن مدينة ويانه وعالم الموسيقى بأكمله أقرا له بالسيادة في حداثة سنه،

(1)Haydn

وأن دلائل الصم بدأت تظهر عليه في آخر سني القرن الثامن عشر، وأنه قضى معظم حياته يكافح الحزن والمرض، وأنه أبلغ السمفونية ذروتها، وأنه مات في عام ١٨٢٧.

وقد وجدت الثلاث رسائل التالية بعد وفاة بيتهوفن محفوظة في صندوق مع عدة صكوك مالية، ولأمر ما لم يرسلها بيتهوفن إلى من كان يريد إرسالها إليها.

وهي تدل على أن هذا الرجل القصير البدين الذي قاسى من الآلام أعظمها، والذي أصابه الصمم وهو أحوج ما يكون إلى حاسة السمع، نقول إن هذه الرسائل لتدل على أنه كان رجلا محبا مخلصا في حبه، جياش العواطف بطبعه، ولسنا نعلم علم اليقين من هي "الحبيبة الخالدة" التي كتب إليها بيتهوفن هذه الرسائل، وليس لدينا ما نستدل به على شخصيتها، وأكبر الظن أنها واحدة من ثلاث هن: الكونتة جيليتا جويشياردي[١] التي أهدى إليها أنشودة "ضياء القمر"، وتريزا برونزويك[٢]، وبتينا برنتا وفن أرمين[٣].

وإذا لم تكشف لنا رسائل غير التي نعرفها ما يميط اللثام عن حقيقتها فستبقى كما هي "الحبيبة الخالدة" وكفى.

وكان بيتهوفن ممن يؤمنون بضرورة الزواج، ويرغبون فيما يهيئه البيت من راحة ورفقة ومتعة، ولكنه مع ذلك لم يتزوج، ولعل سبب هذا أن المرأة التي كان يرى أنها قادرة على أن تنيله ما يطمع فيه من هناءة لا ترضى بالحياة مع هذا الرجل الثائر العنيد، القليل العناية بمظهره، وقد تكون عبقريته وصممه هما اللذين أبعداه عن طريق الحياة الزوجية، أو لعل هناك أسباب أعمق من هذه وأشد تأصلا في طبعه، جعلته لا يلتئم مع هذه الحياة.

ومهما تكن هذه الأسباب فأكبر الظن أنها ستظل هي أيضا سرا مطويا.

---

(1)Countess Giulietta Guicciardi

(2)Therese von Brunswick

(3)Bettina Brentano von Armin

وما من شك في أن رسائل الحب التالية قد فاض بها قلب جياش بالعاطفة، عرف السرور في بعض أيام حياته.

وكتب بيتهوفن هذه الرسائل في السنة الواحدة والثلاثين من عمره، حين أخذ يفقد سمعه قبيل السنين السوداء وسنى العزلة، وقبيل أن يكيل له الدهر ضرباته القوية، ولكن نذر هذه المصائب كانت مع ذلك تلوح في أفق حياته، ولسبب ما لم ترسل هذه الرسائل إلى الحبيبة التي كتبت إليها؛ ويلاحظ أن معظمها عبارة عن فقرات متقطعة قليلة التماسك، تدل على ما في نفس كاتبها من اضطراب.

١٣ —

"... كوني كلك لي كما أنا كلي لك"

في صباح ٦ يوليه [١٨٠١]

ملاكي، كلي، نفسي، لن أكتب لك اليوم إلا كلمات قليلة، وسأكتبها بالقلم الرصاص (بقلمك أنت) — لن أصمم على المسكن الذي سأقيم فيه إلا غدا — وما أكثر ما أضعت من الوقت؛ ولم هذا الحزن العميق ونحن ملزمون أن ننطق بما تكنه الصدور؟ وهل يدوم حبنا إلا بالتضحية، وبألا نطلب كل شيء؟ وهل في مقدورك أن تبدليه بحيث لا تكونين كلك لي أو لا أكون كلي لك؟

رباه! أنظري إلى جمال الطبيعة وانعمي بما لا بد أن تنعمي به — إن الحب يتطلب منا كل شيء، وذلك عدل دون ريب — وهو شأني معك وشأنك معي، ولو أننا كنا معا لما شعرت بألم الحب ولما شعرت أنا به. ولقد كانت رحلتي شاقة مزعجة، ولم أصل إلى هذا المكان إلا في الساعة الرابعة من صباح أمس، فقد اضطرت عربة السفر العامة إلى اتخاذ طريق غير الطريق المعتاد، لأن لم يكن لدينا خيل، وما كان أشق هذا الطريق وأفظعه.

ولقد حذرت في المرحلة التي قبل الأخيرة من السفر ليلا لأن فيها غابة مخيفة،

ولكن هذا التحذير لم يزدني إلا رغبة في السفر، ثم تبين لي أني أخطأت في عدم الإصغاء إليه، فلقد تعطلت العربة في الطريق المملوء بالأوحال؛ ولولا من كان معي من السائقين لاستقرت بي في الطريق، ولقد لقى إسترهارزي[1] وهو يجتاز طريقه المعتاد بخيله الثمانية مثل ما لقيت بخيلي الأربعة، ولكن ذلك سرني بعض السرور، وهو ما أشعر به على الدوام حين أفلح في التغلب على بعض الصعاب.

والآن فلننتقل على الفور من الأشياء الخارجة عنا إلى ما هو أشد صلة بنفوسنا، ولكن ما لنا ولهذا فنحن سنتلاقى قريبا دون شك؛ هذا فضلا عن أنني لا أستطيع أن أنقل إليك ما لاحظته في الأيام القليلة الماضية خاصا بحياتي، ولو أننا كنا متقاربين على الدوام لما كنت في حاجة إلى نقل هذه الملاحظات. إن في قلبي أشياء كثيرة أحب أن أفضي بها إليك – آه – تمر بي لحظات أشعر فيها أن الألفاظ تعجز عن التعبير عما في القلوب – ابتهجي – ودومي لي ذخري الحق الذي ليس لي ذخر سواه – كوني كلك لي كما أنا كلي لك.

وسيبعث إلينا الله بتلك الراحة التي هي خير ما نرجوه لأنفسنا.

المخلص لك

لدفج

– ١٤

" ... إن حبك لي عظيم ولكن حبي لك أعظم."

في مساء الأثنين ٦ يوليه

إنك متألمة يا أعز الناس على – لم أعلم إلى الآن أن الرسائل يجب أن ترسل في الصباح الباكر، وأن يومي الأثنين والخميس هما وحدهما اليومان اللذان تسير فيهما عربة البريد من هنا إلى ك. إنك متألمة – آه! حيث أكون أنا تكونين أنت أيضا،

---

(1)Esterharzy

سأرتب الأمور بحيث أكون معك. ألا ما أشقى الحياة!!! على هذا النحو!!! من غير أن تكوني معي – إن أفضال الناس تلاحقني هنا وهناك – وهي أفضال لست جديرا بها ولا أعمل لأن أكون جديرا بها.

إن أشد ما يؤلمني هو خضوع الإنسان للإنسان – وأنا حين أفكر في نفسي، وفي صلتي بالكون، أعجب من شأني وشأن ما نسميه أعظم ما فيه – ومع ذلك – فإن هذا التفكير هو الذي ينطوي عليه ما في الإنسان من قدسية – إنني حين أتصور أنك لن يصلك أول خبر مني قبل يوم السبت أبكي من شدة الحزن – إن حبك لي عظيم ولكن حبي لك أعظم، وأستحلفك ألا تخفي أفكارك عني، عمي مساء – فأنا مضطر أن آوي إلى الفراش لأني خارج في هذه الساعة من الحمام. آه يا إلهي! ما أقربك إلي، ولكن ما أبعدك عني – أليس حبنا في حقيقة الأمر صرحا سماويا – قويا ثابتا ثبات قبة السماء.

– ١٥

"هل تستجيب لنا الأقدار ... ؟؟؟؟"

في ٧ يوليه.

صباح الخير

إني لا أزال في فراشي، ولكن أفكاري تحوم حولك يا حبيبتي الخالدة، وهي آنا أفكار سارة وآنا حزينة – أريد أن أعرف هل تستجيب لنا الأقدار؟ فإما أن أعيش كلي معك وإما ألا أعيش أبدا – نعم إني عازم على أن أظل أمدا طويلا أجول بعيدا عنك، حتى تأتي الساعة التي أستطيع فيها أن أطير بين ذراعيك، وأقول إنني بحق في موطني، وأبعث بروحي ملتفة فيك إلى أرض الأرواح، نعم ذلك مع الأسف هو ما لا بد أن يكون ...، إنك تعلمين وفائي لك وتعلمين أن أحدا غيرك لا يمكن أن يتملك قلبي – لا أحد مطلقا. أي إلهي! لم قدرت أن يفترق الإنسان عمن يحب؟ إن حياتي الآن في ويانة لهي شقاء في شقاء – وإن حبك ليجعلني أسعد الناس وأشقاهم معا –

إني أحتاج في هذه السن إلى حياة مطمئنة هادئة – فهل يمكن أن تتاح لي هذه الحياة في أحوالنا هذه؟ ملاكي! لقد علمت في هذه الساعة أن عربة البريد تسافر كل يوم، ولهذا فإني مضطر أن أختم الرسالة حتى تصلك في الحال، خففي عنك. وإذا لم تفكري في حياتنا تفكيرا هادئا فإنا لن نستطيع أن نصل إلى ما نبتغيه من الحياة معا، خففي عنك – وأحبيني – ما أكثر ما أذرفت من الدمع – اليوم – وأمس – شوقا إليك – أنت – أنت – حياتي – كلي – الوداع – حافظي على حبك لي – ولا تشكي قط في قلب محبك الوفي المخلص ل.

فأنا لك أبدا

وأنت لي أبدا

وكلانا للآخر أبدا

وقد رفضت جيليتا الحسناء أن تتزوج بيتهوفن وفضلت عليه الكونت جلنبرح[١]، وكان عملها هذا شديد الوقع على الفنان الشاب ... ولم يتزوج قط، وقد أوحت إليه هي والكونته تريز أخت صديقه فرانز فن برنزويك[٢] كثيرا من أغانيه وقطعه الموسيقية الخالدة.

(1)Oallenberg

(2)Franz von Brunswick

لدفج فان بيتهوفن يستعد لمحتوم القضاء

[عهد هيليجنستات]

لم يعثر على الرسالة التالية وهي المعروفة بعهد هيليجنستات[1] إلا بعد عام من وفاة بيتهوفن، ولم يكن يريد إرسالها إلى أخويه، ولكنه كتبها ليريح قلبه من عبء ثقيل كان ينوء به؛ وهي من هذه الناحية شبيهة برسائل حبه الثلاث. وقد كتبها في عام ١٨٠٢ في السنة الثانية والثلاثين من عمره حين كان يقضي وقته في قرية هيليجنستات بالقرب من ويانة. وكانت آثار الصمم قد بدأت تظهر عليه من عام ١٧٩٩، وكان أول أعراضه طنينا في أذنيه.

ونحن نراه في هذه الرسالة بعد عامين من بداية مرضه، وبعد أن تردد على كثيرين من الأطباء دون جدوى، يستسلم للأقدار ويعتقد أن هذه الكارثة كانت "أمرا محتوما، وقضاء لا مرد له".

وكان بيتهوفن كلما زادت كارثة الصمم الكامل اقترابا منه زاد اضطرابا، حتى وصل اضطرابه هذا إلى الفزع فالجنون فاليأس ثم التحدي.

ولم يتخذ هذا التحدي صورة الحقد أو الغيظ أو الثورة على الأقدار، بل ظهر في صورة جهود جبارة في عالم الفن، تجلت فيها عبقريته بأجلي مظاهرها.

ومرت في هذا الوقت نفسه فترة من الزمن ظن فيها أن صممه كان قصاصا منه لذنب ارتكبه، فحرمه الله بسببه أعظم مواهبه، وفي هذا الوقت وضع عددا من الآيات الفنية الرائعة استطاع بها أن يجتاز أزمته ومأساته.

---

(1)Helligenstadt

– ١٦ –

"... لقد تملكني الرعب الشديد ..."

إلى أخوي كارل وجوهان بيتهوفن[1]:

أيها الناس، يا من تظنون أني حقود، عنيد، كاره لبني جنسي، ما أشد ما تظلمونني لأنكم لا تعرفون السبب الخفي لذلك المظهر الخارجي الذي أبدو فيه، لقد كان قلبي وعقلي من أيام طفولتي متفقين مع إراداتي الطيبة، وكنت حريصا أشد الحرص على القيام بأعظم الأعمال، ثم فكروا الآن في أنني قد غدوت من ست سنين في حال من الشقاء لم أجد للنجاة منها سبيلا، وقد زادها حدة أطباء لا يعقلون، وظللت أمني عاما بعد عام بصلاح حالي، لكن آمالي تحطمت، حتى رأيت آخر الأمر ألا بد من الاستسلام لعاهة مستديمة (قد يتطلب علاجها سنين طوالا وقد يكون الشفاء منها محالا؟ لقد ولدت مرهف الحس طروبا، وقد لا أكون مخطئا إذا قلت إني ولدت ميالا إلى مباهج المجتمعات، لكني اضطررت ولما أزل في بداية حياتي إلا الابتعاد عن الناس، وإلى العيش في عزلة، وحاولت في بعض الأحيان أن أنسى هذا كله، ولكن التجربة المؤلمة – وهي ضعف سمعي – كانت تصدمني فتذكرني على الرغم مني مما أنا فيه، ولم تكن تطاوعني أن أقول لمن يتحدثون إلي: "ارفعوا أصواتكم واصرخوا لأني أصم".

وكيف أستطيع الاعتراف بعاهة تصيبني في الحاسة التي يجب أن تكون في أرقى مما هي في سائر الناس؛ حاسة بلغت في وقت من الأوقات غاية الكمال، لا يتمتع بمثلها أحد من أبناء مهنتي في هذه الأيام، ولم يتمتع بمثلها أحد من قبلي – آه! إني لا أستطيع أن أعترف بها، ولهذا أرجو أن تصفحوا عني إذا رأيتموني أبتعد عنكم في الوقت الذي كان يسعدني فيه أن أختلط بكم؛ ويضاعف من وقع الكارثة التي جلت بي أنها تجعل الناس يسيئون فهم مظهري، وأني لا أستطيع أن أصحبهم في رياضتهم،

---

(1) Karl and Johann Beethoven

أو أشترك معهم في حديثهم الراقي أو أن أتبادل وإياهم الأفكار، أو أن أغشي المجتمعات إلا القليل الذي تحتمه علي الضرورة القصوى.

ولا بد لي أن أعيش كالطريد المنفي، إذا اقتربت من الناس لأتحدث إليهم تملكني الرعب الشديد، وخشيت أشد الخشية أن يعرفوا جلية أمري – ولقد كانت هذه حالي في نصف السنة الأخير الذي قضيته في الريف، حين أمرني طبيبي النابه أن أريح سمعي قدر المستطاع. وكان هذا مما يلائم مزاجي في تلك الأيام، ومع ذلك كنت أحيانا أعمي أمره وأطيع رغبتي في غشيان المجتمعات، على أنني شعرت بالذلة في يوم من الأيام حين وقف إنسان إلى جانبي وسمع صوت ناي على بعد ولم أسمع أنا شيئا، وحين سمع إنسان أخر راعيا يغني وعجزت أنا عن سماعه. وقد أسيت لذلك وجزعت، وكدت أفقد آمالي، ولو طالت بي هذه الحال لقضيت على نفسي بيدي، لكن الفن وحده حال بيني وبين هذه الخاتمة.

فقد بدا لي أني لا أستطيع الخروج من هذا العالم حتى أخرج له ما أشعر أني مطالب بإخراجه؛ ولهذا صبرت على هذه الحياة التعسة – التعسة حقا – فها هو ذا جمع شديد التأثر، يستطيع تغير مفاجئ فيه أن يبدله من أحسن حال إلى أسوأها، وهم يقولون لي إن من واجبي أن أتذرع الآن بالصبر وأتخذه هاديا لي، ولقد قبلت نصحهم وآمل أن تظل عزيمتي قوية ثابتة حتى يدنو أجلي وأقضي نحبي؛ وسواء على حسنت حالي أو ساءت، فإني مستعد لملاقاة الأقدار.

ولقد اضطررت ولما أتجاوز الثامنة والعشرين من عمري لأن أكون فيلسوفا، وما أصعب هذا على النفس – وهو على نفس الفنان أصعب منه على نفس أي إنسان آخر – آه يا إلهي إنك مطلع على سري ونجواي، وأنت تعلم ما أخفي وما أعلن، وتعرف مقدار حبي لبني جنسي، وما يتملكني من رغبة في إسداء الخير لهم، أيها الناس إذا قرأتم هذه الكلمات في يوم من الأيام فلا تنسوا أنكم قد أسأتم إلي، ومن كان فيكم بائسا فليتأس حين يجد أحد أبناء جنسه قد بدل غاية جهده ليحشر نفسه في زمرة الفنانين، والرجال النابهين، رغم ما قام في طريقه من عقبات طبيعية.

أما أنتما يا أخوي كارل و[جوهان] فعليكما ساعة وفاتي أن تطلبا باسمي إلى الدكتور شميد(١) – إن كان وقتئذ على قيد الحياة – أن يصف لكم مرضي، وأن يضع هذه الوثيقة مع قصة هذا المرض، لعل العالم يرضى عني بعض الرضا بعد وفاتي، وإني أعلن في الوقت نفسه أنكما الوارثان لثروتي القليلة (إن صح أن أسميها ثروة)، تقتسمانها فيما بينكما بالتساوي، كما أوصيكما بأن يحتمل أحدكما الآخر ويساعده، وإن كنتما قد أسأتما إلى فقد علما أني عفوت عن هذه الإساءة من أمد بعيد.

ولك مني يا أخي كارل أعظم الشكر لما أظهرته نحوي أخيرا من رعاية، وإني لأرجو أن تكون حياتكما خيرا من حياتي وأبعد منها عن المتاعب، أوصيا أبناءكما بالإستمساك بالفضيلة فهي وحدها سبيل السعادة، وليس سبيلها هو المال؛ إني أحدثكما حديث المجرب، وأقول لكما إن الفضيلة وحدها هي التي أعانتني في بؤسي، وإليها بعد الفن يرجع الفضل في أني أختم حياتي بالانتحار.

والآن أستودعكما الله، وأوصيكما بأن تتحابا، وأقدم الشكر لجميع أصدقائي، وبخاصة للأمير لكنوسكي(٢) والأستاذ شميد.

وأرجو أن يحتفظ أحدكما بالآلات التي جاءتني من الأمير ل، على ألا يكون هذا مثارا للنزاع بينكما، وحين تجدان أن بيعها خير لكما فعجلا ببيعها، لأني يسرني كل السرور أن أكون ذا فائدة لكما وأنا في قبري، إني أخطو إلى الموت مسرورا بخطى سريعة، وإذا مت قبل أن تتاح لي فرصة إظهار جميع مواهبي الفنية، فإن الموت يكون قد عاجلني ولما يحت أجلي، وكنت أتمنى أن يمهلني على الرغم مما أقاسيه من نكبات، على أنني مع هذا أموت راضيا، لأني بذلك أنجو من عذاب لا آخر له؟

فيا موت زر متى شئت فستجدني متأهبا للقائك في غير خوف.

والآن أستودعكما الله، وأوصيكما ألا تنسياني بعد وفاتي، إني استحق منكما

---

(1)Dr Schmid

(2)Prince Lichnowsky

هذه الذكرى، فكثيرا ما ذكرتكما في حياتي، واجتهدت أن أوفر لكما أسباب السعادة —كونا كذلك —

لدفج فان بيتهوفن

(ختم)

هيجلنستات (هكذا كتبت)

في ٦ أكتوبر سنة ١٨٠٢

إلى أخوي كارل و[جوهان] ليقرآها، وينفذاها بعد وفاتي.

هيجلنستات (هكذا كتبت) في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢. بهذا أودع — في حزن وأسى — ذلك الأمل المحبوب — الذي كان ينطوي عليه قلبي حين قدمت إلى هذا المكان رجاء أن أشفى من بعض ما بي على الأقل، أما الآن فقد خاب الرجاء، وتبددت الآمال، وتساقطت كما تساقط أوراق الخريف، وأعود من هذا المكان كما جئت إليه، بل أعود منه أسوأ حالا، لأن شجاعتي التي طالما بعثت الأمل في نفسي أيام الصيف الجميلة قد فارقتني — آه يا إلهي — هبني ولو يوما واحدا من السرور الخالص — فقد مضى وقت طويل مذ تردد صدى السرور الخالص في صدري. آه متى — متى يا إلهي — أجد هذه السرور في معبد الطبيعة والإنسان؟ ألا أجده أبدا؟ كلا إن هذا يكون شديد الوقع على لا يطيقه قلبي.

وعاش بيتهوفن بعد أن كتب هذه الرسالة خمسا وعشرين سنة أبدع غرار من آيات الفن الخالدة المختلفة الأنواع ذلك أنه لم يرض لنفسه أن يستسلم للأقدار وهو صاغر وخامل، أو يقضي وقته في الثورة والاحتجاج الذي لا يفيد، بل استجمع كل ما وهبه الله من قوة وقرر أن يرفع نفسه إلى ذروة المجد، بما يخرجه من روائع الفن، وأن يسمو بها فوق الأطباء والأنصار والأصدقاء والأحباب، بل فوق مصائب الدهر نفسها، وكان له ما أراد.

لورد نلسن يبعث إلى إما هملتن رسالة حب ووداع قبل واقعة طرف الغار

ارتفع شأن إما ليون أو إما هارت[1] من فتاة من بنات الطرقات حتى أصبحت زوجة سير وليم هملين[2] سفير بريطانيا في نابلي، وحبيبة أمير البحر نلسن، تزوجها سير وليم في عام ١٧٩١ وهي في السادسة والعشرين من عمرها، وليس لدينا من الأدلة على أنها كانت تحب نلسن أكثر مما لدينا على أنها كانت تحب زوجها، وكل ما نستطيع أن نجزم به هو أن كلا الرجلين كان عبدا لمطامعها.

قابلت هذه السيدة نلسن أول مرة في عام ١٧٩٣ وفي عام ١٧٩٨ أصبح من رواد مجتمعاتها حين كان يستجم في نابلي من جرح أصيب به في واقعة أبي قير البحرية؛ وعاد نلسن إلى إنجلترا مع سير وليم وزوجته فوجد الخاصة يتحدثون عن علاقته بزوجة سير وليم، ولكن أعماله الحربية غطت على سيرته الخلقية وبخاصة بعد انتصاره في واقعة كوبنهاجن، على أن أكثر ما كان يعيبه عليك أولئك الخاصة أنفسهم لم يكن هذا العمل في حد ذاته بل قلة ذوقه وعدم توفيقه في اختيار من يحب، وهجر نلسن زوجته وعاش مع آل هملتن إلى أن مات سير وليم في عام ١٨٠٣ وما من شك في أنه كان يود لو استطاع أن يتزوج إما لو رضيت زوجته أن تطلق منه.

وعين نلسن في شهر مايو من عام ١٨٠٥ قائدا لأسطول البحر الأبيض المتوسط. وكانت السنتان والنصف السنة التي أعقبت هذا التعيين فترة نشاط عظيم ارتفع فيها نلسن إلى أعظم درجات المجد. وكتب في التاسع عشر من شهر أكتوبر رسالة إلى إما أتمها في اليوم التالي حين كانت القوى البحرية المتعادية تتأهب للقتال عند طرف الغار..

(1)Emma Lyon أو Emma Hart

(2)Sir William Hamilton

– ١٧

"لعل إن الحرب يتوج جهودي بالنصر ..."

على ظهر السفينة فكتري في ظهر اليوم التاسع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٠٥ على بعد ستة عشر فرسخا من قادر[١] إلى شرق الجنوب الشرقي.

إلى أعز الناس لدي، صديقتي وحبيبة قلبي إما، أعطيت الإشارة بأن أساطيل العدو المتحدة تخرج من الميناء، والريح الآن هادئة جدا ولهذا فأنا قليل الرجاء في أن أرى هذه الأساطيل قبل غد، ولعل إله الحرب يتوج جهودي بالنصر، ومهما يكن من أمر فإني سأحرص على أن يكون اسمي عزيزا عليك وعلى هوارشيا[٢] فأنتما اللتان أحبكما حبي لحياتي نفسها، وكما أن آخر ما أكتبه قبل الواقعة سيوجه إليك، فكذلك أرجو أن يطيل الله حياتي حتى أتم رسالتي بعدها، بارك الله فيك، وهذا ما يرجوه لك.

نلسن وبرنتيه[٣]

في ٢٠ أكتوبر

كنا في صباح اليوم قريبين من مدخل المضيق، ولكن الريح لم تتجه نحو الغرب بحيث تكفي لأن تمكن الأساطيل المتحدة من اجتيازه المياه الضحلة القريبة من طرف الغار، ولكننا أحصينا ما لا يقل عن أربعين شراعا من أشرعة السفن الحربية، وأظنها أربعا وثلاثين بارجة وست فرقاطات، وقد شاهدنا طائفة منها في هذا الصباح بالقرب من منارة قادز، ولكن الريح اشتدت والجو تلبد، ولذلك أظن أنها ستعود إلى الميناء قبل أن يجن الليل، أدعو الله القدير أن ينيلنا النصر على هؤلاء القوم ويعيننا على

---

(1)Cadiz

(2)Horatia

(3)Nelson and Bronte

إقرار السلم.

ولم يعش نلسن بعد النصر العظيم الذي ناله في هذه الواقعة، فقد توفي في اليوم الحادي والعشرين من شهرا أكتوبر بين ذراعي الكابتن تومس ماستر مان هاردي[١] بعد أن مزق رصاص البنادق جسمه. وكانت آخر عبارة نطق بها هي: "أحمد الله أني قد أديت واجبي"

ولكنه كان قبيل ذلك قد قال إلى هاردي: "لا تنس أني أترك ليدي هملتن وابنتي هوارشيا وديعة في رعاية بلادي".

على أن سيدة لا زوج لها لم تكن من غير شك تعد فقيرة إذا كان دخلها يقدر في العام بألفي جنيه من جنيهات ذلك الوقت خلفها لهما هملتن ونلسن، غير أن إما لم تكن أرملة عادية، بل كانت مقامرة مسرفة، فلم تمضى عشر سنوات على موت نلسن حتى وقعت في ضنك شديد.

مدام دستائيل ترجو نابليون أن يلغي أمر نفيها

كان بين نابليون ومدام دستائيل[٢] من أوجه الشبه ما لا بد أن يشجر بسببه النزاع بينهما، فقد كان كلاهما يرغب في أن تكون له السيادة في فرنسا، فهو يرغب أن تكون له عليها السيادة السياسية وهي تريد أن تكون لها فيها السيادة الأدبية.

ونشرت مدام دستائيل روايتها المسماة "دلفين[٣]" في عام ١٨٠٢، وكان لنشرها أثر بالغ في الأوساط الأدبية الباريسية لما حوته من أراداء جريئة في الدين والواج والسياسة.

وكتب عنها أحد النقاد يقول: "لا شيء يمكن أن يكون أشد خطرا أو أبعد عن

(1)Captain Thomas Masterman Hardy

(2)Madame de Stael

(3)Delphine

الأخلاق من المبادئ التي احتواها هذا الكتاب" وخشيت مداد دستائيل أن ينتقم منها نابليون، فطلبت إلى أصدقائها أن يدفعوا عنها الأذى، وأن يتوسطوا لها عند الحكومة الفرنسية. وعلم نابليون بمخاوفها فرأى أن يعاقبها على فعلتها، واضطرها أن تغادر باريس وأن تقيم على بعد لا يقل عن أربعين ميلا منها.

وظنت هي أن في وسعها أن تفوت على نابليون قصده، فغادرت فرنسا بأكملها وذهبت إلى ألمانيا، واستقبلت فيها استقبالا وديا، ولكنها عادت مرار إلى فرنسا، واستطاعت بمساعدة فوشيه[١] أن تحصل على إذن من الحكومة الفرنسية بالإقامة على بعد ثمانية عشر ميلا من باريس، غير أن مغريات العاصمة الفرنسية كانت أقوى من أن تستطيع مدام دستائيل أن تقاومها، فكانت من أجل ذلك تتسلل إلى المدينة خلسة، وتمشي في شوارعها في ضوء القمر، وتزور صديقتها مداد ده تسيه[٢] التي كانت تعجب بحديثها حتى قالت مرة: "لو كنت ملكة لأمرت مدام دستائيل أن تتحدث إلي طول النهار". ولما نشرت مدام دستائيل كتابها الثاني "كورن[٣]" في عام ١٨٠٧ أثار ذلك غضب نابليون، فكتب هو نفسه ينتقده في إحدى صحف باريس، ولم يكفه ذلك بل أمر بنفيها من فرنسا، وكتب إلى صديق له يقول: "لقد كتبت إلى رئيس الشرطة أن يعيد مدام دستائيل إلى جنيف، وأن يسمح لها بأن تغادرها إلى أية مدينة أخرى تختارها، إن هذه المرأة لا تزال دائبة على الدس؛ لقد خالفت أمري وذهبت إلى باريس. إنها داء وبيل".

وعادت مدام دستائيل إلى ملجئها في سويسرا وعاشت بين أصدقائها الكثيرين، وأخذت تكتب كتابها الآخر عن ألمانيا "**De I'Allemagne**" وزارها أحد الكتاب في كوبنهاجن ووصفها في ذلك الوقت بقوله إن لها: "صوتا عاليا ووجها كوجه الرجال، ولكن لها قلبا رقيقا حليما". ولما أتمت كتابها حاولت أن تعود إلى فرنسا، وكتبت إلى

---

(1)**Fouche**

(2)**Madame de Tesse**

(3)**Corinne**

صديق لها تقول: "لقد كتبت إلي من أمريكا من ثلاثة عشر عاما تقول إنك ستموت حتما إن بقيت حيث أنت عاما آخر؛ وفي وسعي أن أقول هذا القول بعينه عن بقائي في خارج بلادي، لقد غلبني الحزن في هذا المكان". واعتزمت أن تذهب إلى إنجلترا إن لم يسمح لها نابليون بالعودة إلى باريس. وكتبت إليه ترجوه أن يأذن لها بالعودة:

١٨ –

"إن هذه حياة لا تطاق ..."

[١٨١٠]

مولاي:

أرجو أن تسمح لي بأن أهدي إليك كتابي عن ألمانيا؛ فإذا تفضلت بقراءته، فقد يخيل إليك أنك ستجد فيه شواهد على عقل أنضجه الزمان، وفي مقدوره أن يفكر بعض التفكير.

مولاي؛ لقد انقضى على اليوم الذي رأيتك فيه عشر سنين، وانقضت ثمان على اليوم الذي نفيت فيه، وإن ثماني سنين يقضيها الإنسان في البؤس لكفيلة بأن تغير كل صفاته، والأقدار تعلم من يقاسون الآلام بأن يستسلموا لمحتوم القضاء.

لقد أعددت العدة للرحيل، ولكني أضرع إلى جلالتك أن تتفضل بالإذن لي بأن أراك قبل سفري، وسأسمح لنفسي بشيء واحد في هذه الرسالة، وهو أن أذكر فيها الأسباب التي تضطرني إلى مغادرة أوروبا إن لم تأذن لي يا صاحب الجلالة بالبقاء بالقرب من باريس، حتى يستطيع أولادي أن يسكنوا فيها، إن الذين تغضب عليهم يا مولاي يلقون المهانة في أوروبا بسبب هذا الغضب، ومن أجل ذلك فإني لا أكاد أخطو خطوة دون أن أشعر بآثاره، فمن الناس من لا يريدون أن يعرضوا أنفسهم للخطر بالاتصال بي، ومنهم من يظنون أنفسهم أشجع الشجعان إذا استطاعوا أن يتغلبوا على هذا الخوف، على حين أن النفس الكريمة تألم أشد الألم من أبسط أنواع

المجاملة التي يظهرها لها المجتمع. ومن بين أصدقائي من ربطوا مصيرهم بمصيري، وكانوا في ذلك كراما إلى حد خليق بالإعجاب، ولكني رأيت أقوى عواطف الود تقضي عليها ضرورة وجود أصحابها معي في عزلتي، ومن أجل هذا قضيت من عمري ثماني سنين بين الخوف من ألا يضحي الناس من أجلي، والشقاء الذي أشعر به حين أكون هدف هذه التضحية.

قد يكون غير جميل مني أن أذكر هذه التفاصيل لسيد العالم، ولكنك يا مولاي قد أعطيت ملك العالم لما لك من عبقرية لم توهب لغيرك من الناس، وبقدرتك على معرفة ما تنطوي عليه القلوب من أدق الإحساسات وأعظمها نبلا، إن أولادي لا مستقبل لهم، وابنتي قد بلغت الثالثة عشرة من عمرها، ويجب أن تكون ربة بيت بعد بضع سنين، ولو أنني أرغمتها على أن تعيش في الأماكن المنعزلة الحقيرة الشأن التي حكم علي أن أعيش فيها لكان ذلك أنانية مني لا تليق بي، فهل قدر على أن أفارقها هي الأخرى؟ إن هذه حياة لا تطاق، ولكني لا أعرف للخلاص منها سبيلا.

وأية مدينة في أوروبا أستطيع أن أختارها، ولا يكون فيها غضب جلالتك على عقبة كا داء في سبيل استقرار أبنائي وراحة بالي؟

وقد لا تعرف جلالتك ما يسببه المنفيون من خوف لمعظم ولاة الأمور في جميع البلاد، وفي وسعي أن أقص عليك من آثارها هذا الخوف ما هو أشد وقعا علي من العقاب الذي أمرت به.

وقد قيل لجلالتك إني أحن إلى باريس لما فيها من متاحف ومباهج، وتلك فكاهة طريفة يوصف بها النفي – أي البلاء الذي وصفه شيشرون وبلنجبروك[1] بأنه شر أنواع البلاء وأشدها وقعا على النفس.

وهل يليق بك يا مولاي أن تلومني إذا كنت أنعم بروائع الفن التي تدين بها فرنسا لفتوح جلالتك – أي إذا كنت أنعم بامآسي الجميلة التي تمثل البطولة – ؟ إن

(1)Bolingbroke , Cicero

السعادة التي ينالها كل إنسان إنما تنبعث من طبيعة ملكاته، وإذا كان الله قد أنعم علي ببعض المواهب ألا يكون الاستمتاع بالفنون والملاذ الذهنية مما لا غني عنه لخيالي؟

إني أرى الكثيرين من الناس يلتمسون من جلالتك النعم المادية على اختلاف أنواعها، فلم إذن أخجل إذا التمست منك الصداقة والشعر والموسيقى والصور وجميع مستلزمات الحياة المثالية التي أستطيع أن أستمتع بها من غير أن أحيد قط عن ذلك الخضوع الواجب على لملك فرنسا ؟

ولا حاجة إلى القول بأن نابليون لم يأذن لها بالعودة، ولما نشر كتابها عن "ألمانيا" في باريس أتلف رجال الشرطة عشرة الآلاف من النسخ التي طبعت منه، وإن كان الرقيب قد أجاز طبعه. وأشار أصدقاء مدام دستائيل عليها أن تكتب شيئا عن مولد ملك رومة ابن نابليون علها بذلك تنال رضاه، ولكنها أبت.

وسافرت مدام دستائيل إلى إنجلترا بطريق النمسا والروسيا والسويد والنرويج، لأنها لم يكن في مقدورها أن تذهب إليها بطريق فرنسا، ثم عادت من منفاها بعد أن هزم نابليون وجلس لويس الثامن عشر على عرش فرنسا، غير أنها لم تعش بعد عودتها أكثر من ثلاث سنين، وكانت في أثناء مرضها تجر في عربة إلى صديقاتها، وتوزع الورد والكلمات الطيبة على أصدقائها. وكان مما قالته لشتو بريان[١]! "لقد اتصفت طوال حياتي بصفات لم أتحول عنها قط؛ فقد كنت دائما شديدة الحماسة ومكتئبة؛ وقد أحببت الله وأبي والحرية".

---

(1)Chateaubriand

صمويل تيلر كولردج يصف آلام مدمن المخدرات

رسالته إلى جوزف كتل

بدأ كولردج يتعاطى الأفيون من صغره، فلم يكد يبلغ التاسعة عشرة من عمره في عام ١٧٩١ حتى كتب إلى أخيه جورج يقول في استهتار غريب: "لم يكن للأفيون في أثر كريه يوما من الأيام". ولم يصبح هذا المخدر قوة مسيطرة عليه إلا في عام ١٨٠٣ أي بعد العهد الذي كتب فيه روائع شعره.

ويختلف كولردج عن دكونسي[١] – وهو أيضا من مدمني الأفيون المشهورين – في أنه كانت تنتابه في كثير من الأحيان نوبات قاسية من تأنيب الضمير، أما دكونسي فكان يعد هذا الإدمان من الأمور المألوفة. ولو أن صحة كولردج كانت أحسن مما كانت، ولو أن أعصابه كانت أقل تهيجا واضطرابا لكان في الأرجح أقل إدمانا، لكن الذي حدث أنه لم يكد يقنع نفسه بأن لا ضرر من تعاطي جرعات الأفيون يتخذها دواء حتى أرخى لنفسه في تعاطيه العنان.

أما سبب كتابة الرسالة التالية فهو أن جوزف كتل[٢] صديقه وناشر كتبه بعث إليه برسالة طويلة ينصحه فيها بعبارات قوية مؤثرة بالإقلاع عن عادته، فرد عليه كولردج بهذه الرسالة التي يعترف فيها بجرمه:

---

(١) Thomas de Quincy أنظر كتابه "اعترافات آكل أفيون إنجليزي" Confessions of an English Opium Eater

(2)Joseph Cottle

-١٩
"... إن حالتي ضرب من الجنون ..."

في ٢٦ إبريل سنة ١٨١٤

لقد صببت الزيت يا كتل في جرح ذرب متنسر[١] أصيب به ضمير صديق لك قديم، ولكنه زيت الزاج. ولقد ألقيت نظرة خاطفة على وسط الصفحة الأولى من رسالتك ثم لم أر منها شيئا بعد – ولم يكن هذا لأني غضبت مما حوته، (لا قدر الله) بل كان سببه ما أعانيه من آلام مبرحة في الجسم والعقل تعجز معها الطاقة البشرية عن تحمل ألم جديد.

والذي أبتغيه من هذا الرد هو أن أعرض قضيتي على حقيقتها؛ فأقول أولا إني ظللت عشر سنين أعاني من الآلام النفسية ما يجل عن الوصف، فقد كان الخطر فيها ماثلا على الدوام أمام عيني، ولكن علمي بجريمتي كان أشد من هذا الخطر وقعا علي، لقد دعوت الله والألم يكاد يتقطر من جبيني، وفرائضي ترتعد، خشية أن يأخذني خالقي بذنبي، وألا تنجيني من العذاب رحمته، وأن يناديني: "لقد مننت عليك بكثير من المواهب فماذا صنعت بها"؟ وثاني ما أقوله هو أنني لم أحاول قط أن أخفي عن غيري سبب ما أنا عليه من ضعف مؤلم رهيب، أو أن أنكر هذا الضعف، بل فعلت عكس هذا، فلم أكتف بأن أفصح عن حالي لأصدقائي والدمع يتقطر من عيني، وقلبي يكاد يتمزق من فرط الخجل، بل فعلت ما هو أكثر من هذا فتحدثت مرتين إلى شابين – لم ترق معرفتي بهما إلى حد الصداقة – وحذرتهما مما يتعرضان له من عواقب وخيمة، بأن كشفت لهما بعبارات رهيبة عما كان لهذه العادة من أثر سيء في.

وثالث ما أقوله أني وإن لم أكن أستطيع أن أرفع عيني أمام ربي وقد فقدت كل رجاء إلا رجائي في رحمته، لأن اليأس من رحمة الله جريمة تضاف إلى جرائمي السابقة، فإن في وسعي أن أقول لبني جنسي إن الجهل هو الذي أضلني وأغواني على تعود

---

(١) جرح ذ ر ب يزداد اتساعا ولا يقبل البرء، والجرح المنتسر الذي انتشرت مدته لانتقاضه

هذه العادة الملعونة.

لقد ظللت عدة شهور طريح الفراش متورم الركبتين لا أكاد أقوى على النهوض، ثم اطلعت لسوء حظي في إحدى الجرائد الطبية على وصف لعلاج يفيد في حالة كحالتي (أو حالة ظننتها كحالتي)، وذلك بتدليك موضع الألم بصبغة الأفيون وشرب جرعة منه. وجربته فكان كأنه سحر ومعجزة، فقد استعدت قوة أطرافي وشهيتي ونفسيتي. وبقيت على هذه الحال نحو أسبوعين ثم ضعفت قوة هذا المنبه غير الطبيعي وعاد الألم كما كان، وعدت إلى العلاج المزعوم — ولكني لا أقوى على أن أقص باقي القصة المشؤمة المحزنة.

وحسبي أن أقول إن الآثار التي أحدثها في هي الرعب والجبن والألم والخوف من الموت المفاجئ، وأشهد الله أني لم تدفعني إليه رغبة في السرور أو توقعه أو حرص على إيقاظ أحاسيس لذيذة. ولديك مسز مورجن وأختها فاسألهما ينبئانك أن حالي كانت على عكس ذلك، وأني كلما طال امتناعي عنه زدت بهجة وانشراحا، حتى حانت الساعة، الساعة الرهيبة، التي أخذ فيها نبضي يضطرب وقلبي يخفق، وشعرت كأن جسمي كله يتساقط، وتملكني قلق لم أطقه، وبدأت أشعر بالحيرة والارتباك، وحاولت مرارا أن أتخلص من هذا السم الزعاف، وصرخت من فرط الألم في آخر هذه المحاولات صرخة أعيدها الآن في جد وخشوع: "إني أضعف من أن أجازف هذه المجازفة". ولو أنني كنت أملك بضع مئات قليلة من الجنيهات، بل لو أنني كنت أملك مائتي جنيه لا أكثر، لأعطيت نصفها إلى زوجتي ولاستعانة بالنصف الآخر على دخول مستشفى خاص للأمراض العقلية لا أحصل فيه إلا على ما يصرح به الطبيب، ويلازمني فيه خادم من خدمه شهرين أو ثلاثة شهور (وما من شك في أن أمري سيقرر في أقل من هذه المدة فإما حياة وإما موت)، لو أنني كنت أملك هذا القدر من المال لكان لي بعض الرجاء، أما الآن فلا رجاء لي، أي إلهي! ما أشد رغبتي في أن أكون في

مؤسسة الدكتور فكس[١] وتحت رعايته لأن حالتي نوع من الجنون لا تفترق عنه إلا في أنها اضطراب في العقل مصحوب بفقد الإرادة – لا المواهب العقلية – فقد تاما، وأنت تأمرني بأن أنشط وأقلع ثوب الخمول، وما أجدارك بأن تذهب إلى رجل مشاول الذراعين وتأمره أن يفركهما معا بقوة لأن في ذلك شفاءه، إنك إن تفعل يجبك من فوره "وأسفاه! إن الذي أشكو منه وأبتئس له هو عجزي عن تحريك ذراعي"

أسأل الله أن يبارك فيك وفي صديقك المخلص المعذب أشد العذاب

ص . ت . كولردج

وأعقبت هذه الرسالة رسائل أخرى مكتئبة بعث بها كولردج إلى كتل، ولما أشار كتل في إحدى رسائله بأن كولردج قد تقمصه الشيطان، قال الشاعر تعليقا على هذه العبارة: "سامحه الله! إنه مخلوق حسن النية ولكنه شديد الغفلة".

ولم يأل كتل جهدا في نصح صديقه وتحذيره من سوء عاقبته، وظل الشاعر عامين كاملين يحاول محاولات ضعيفة أن يتخلص من عادته السيئة، ثم عثر في عام ١٨١٦ على طبيب عرف كيف ينقص له جرعات الأفيون حتى كادت تكون عديمة الضرر بالقياس إلى ما كان يصيبه من الجرعات السابقة.

وفقد كولردج في سنيه الأخيرة ملكة الشعر، ولكن مقدرته على التفكير الفلسفي المشتت ظلت كما هي، وكان يطلق عليه في آخر أيامه اسم "حكيم هايجيت[٢]" وهايجيت هذه ضاحية من ضواحي لندن.

وكانت حياة كولردج مصداقا لقول دكونسي: "إن الأفيون يعطى ويمنع، إنه يفقد الإنسان عادة الجد المتواصل؛ ولكنه يخلق فيه نوبات من الجد المتقطع؛ وهو يقضي على ما في الحياة من قوة طبيعية، ولكنه يحدث في الكائن الحي نوبات عجيبة غير طبيعية من القوة المتقطعة القصيرة الأجل".

---

(1)Dr Fox

(2)The Sage of Highgate

دلي مادسن[١] تفر من واشنجتن بالأوارق الرسمية قبل أن يستولى عليها الإنجليز

[رسالتها إلى أختها "أنا"]

ظلت دلي مادسن ملكة المجتمعات الراقية في واشنجتن ستة عشر عاما، وكان جفرسن أعزب، ولهذا اختار زوجة وزيره جيمس مادسن[٢] لتستقبل ضيوفه في الحفلات الرسمية. ولما خلف زوجها جفرسن[٣] في رياسة الجمهورية أصبحت هي صاحبة الأمر والنهي في البيت الأبيض.

وكانت مآدبها غاية في الأبهة والفخامة، فقد كان يقف وراء كل ضيف خادم خاص به، وكانت تقدم فيها أحسن أنواع النبيذ وأشهى الأطعمة وخير أنواع التسلية، وكانت مولعة إلى حد الجنون بلعب الورق، وقد خسرت في ذلك مبالغ طائلة.

ثم تبدلت هذه الحال فجأة. ذلك أن الإنجليز زحفوا على العاصمة الأمريكية في سهر أغسطس من عام ١٨١٤ ظنا منهم انهم إذا استولوا عليها وضعوا حد للحرب التي ظلت نارها مشتعلة من عام ١٨١٢، وفي من المدينة كثيرون من أثريائها وجميع موظفي الدولة، لكن دلي بقيت في البيت الأبيض إلى آخر لحظة، وقبل أن تفر منه بعثت بالرسالة الآتية إلى أختها "آن" تقص عليها ما فعلته:

(1)Dolly Madison

(2)James Madison

(3)Jefferson

-٢٠
"... أريد منظاري في جميع الجهات ..."

في يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس سنة ١٨١٤

أختي العزيزة:

فارقني زوجي في صباح أمس لينضم إلى القائد وندر[١] وسألني وهو قلق هل أوتيت من الشجاعة أو رباطة الجأش ما يعينني على البقاء في بيت الرئيس حتى يعود في اليوم الثاني أو في اليوم الذي يليه؟ فلما أكدت له أني لا أخاف إلا عليه وعلى جيشنا ألا ينتصر، تركني وتوسل إلي أن أعني بنفسي وبأوراق مجلس الوزراء العامة منها والخاصة، ولقد تلقيت منه حتى الآن رسالتين مكتوبتين بالقلم الرصاص، وروعتني الرسالة الثانية لأنه يطلب إلي فيها أن أكون على استعداد في اللحظة التي يصل إلي فيها الأمر لأن أركب عربتي وأغادر المدينة من فوري، ومما جاء فيها أنهم يظنون أن العدو أقوى مما نقل إليهم أول الأمر، وأنه يزحف على المدينة يريد أن يدمرها، ولهذا أعددت عدتي، فكدست من الأوراق الرسمية في الحقائب ما يملأ عربة واحدة، ولا بد لي من أن أضحي بممتلكاتنا الخاصة لأنا لا نستطيع الحصول على مركبات ننقلها عليها.

وقد اعتزمت ألا أغادر البيت حتى أتأكد من سلامة مستر مادسن، وذلك حتى يستطيع أن يرافقني، لأني أسمع عن وجود عداء شديد نحوه، ولأن الناس من حولنا مستاؤون، وقد ذهب عني جميع أصدقائي ومعارفي فلم يبق منهم أحد حتى الكولونل ل. ورجاله المائة الذين عهد إليهم بالحراسة في داخل أسوار البيت، وقد عرض جون[٢] الفرنسي [وهو خادم أمين] أن يستخدم ما اعتاد من حذق وعزيمة ماضية في أن يعطل المدفع القائم عند الباب، وأن يضع في البيت كمية من البارود ينسف بها

---

(1)Winder

(2)John

الإنجليز إذا دخلوا البيت، لكنني عارضت أشد المعارضة في اقتراحه الثاني وإن لم أستطع أن أفهمه لم لا يصح أن تستخدم في الحرب كل الوسائل التي يمكن الانتفاع بها.

صباح يوم الأربعاء والساعة الثانية عشرة – لا أزال منذ شروق الشمس أدير منظاري في جميع الجهات أرقب به في قلق ومن غير ملل راجية أن أتبين اقتراب زوجي العزيز وأصدقائه.

ولكن وأسفاه! إني لا أستطيع أن أرى إلا طوائف من الجند يتنقلون في جميع الجهات، وكأنهم تعوزهم الأسلحة أو الشجاعة التي يدافعون بها عن مواطنهم.

الساعة الثالثة – هل تصدقيني يا أختي. لقد وقعت واقعة أو مناوشة قرب بلاندنزبرج[١] ولا أزال أنا هنا أسمع قذف المدافع! ولما يأت مستر مادسن بعد. وقانا الله السوء. لقد جاء رسولان يعلوهما العثير ليأمراني أن أبادر إلى الفرار، ولكني أعتزم انتظاره في هذا المكان ... لقد استطعنا أن نحصل على عربة نقل في هذا الوقت المتأخر، وأمرت أن تحمل بالصحاف وبكل ما خف حمله وغلا ثمنه من أدوات البيت، ولست أعرف هل تصل هذه الأدوات إلى مقرها وهو مصرف ميري لاند[٢] أو تقع في يد الجنود الإنجليز، فذلك رهن بما تأتي به الظروف لقد جاء صديقنا الكريم مستر كرل[٣] ليطلب إلى أن أعجل بالرحيل، وقد غضب مني حين أصررت على أن أبقى حتى آخذ صورة واشنجتن الكبيرة، وهذا يتطلب انتزاع مساميرها المحوا من الجدار، ثم وجدت هذا العمل مملا في هذه الساعة الخطرة، ولذلك أمرت بأن يكسر إطارها ويخلع منه القماش المرسومة عليه، وقد تم هذا فعلا، وعهدنا بالصورة النفيسية إلى رجلين من أهل نيويورك ليحافظا عليها، والآن لا بد لي أيتها الأخت العزيزة أن أغادر هذا البيت، وإلا وقعت في الأسر لأن الجيش المنسحب سيسد الطريق الذي أشير

(1)Blandensburg

(2)The Bank of Maryland

(3)Carrol

على بإتباعه. ولست أدرى متى أكتب إليك الرسالة الثانية، أو أين أكون غدا.

"دلي"

وغادرت دلي مادسن الدار بعد أن أرغمها على ذلك أصدقاؤها، وأركبوها عربة سارت بها إلى جورج تون[١] لتنتظر فيها حتى تنضم إلى رئيس الجمهورية، وفي هذا الوقت دخل الإنجليز واشنجتن وأشعلوا النار من فورهم في المباني العامة وفي البيت الأبيض، وكان من حسن الحظ أن دلي أنقذت أثمن ما في البيت، وبعد أن قابلت رئيس الجمهورية لم تستطع أن تحاجز نفسها عن الرجوع إلى مدينة واشنجتن. ذلك أنها لما سمعت أن الإنجليز غادروا المدينة بعد أن أحرقوها بزمن قليل، عادت إليها متخفية. وقد علقت إحدى جرائد واشنجتن على تدمير البيت الأبيض بقولها إن ذلك لم يكن خسارة جسيمة لأننا "نرجو أن يقضي هذا الحريق قضاء أبديا على حجر الاستقبال والحفلات الرسمية، وملجأ المتعطلين، وأنصار الخونة والجواسيس".

---

(1)Oeorgetown

جين أستن تأبى أن تسخر قلمها

[رسالتها إلى ج. س. كلارك]

ذهبت جين أستن(١) في عام ١٨١٥ إلى لندن لتزور أخاها ولتصحح تجارب "إما(٢)" آخر رواية لها نشرت في حياتها، وكان الوصي على العرش وقتئذ يعجب بكتابتها فانتهز هذه الفرصة ودعاها لزيارة قصره في لندن، ولبت جين الدعوة وطاف معها جيمس استانير كلارك(٣) أمين مكتبة الوصي بحجرات القصر، وأشار في هذه الأثناء إلى أن سمو الوصي يسره أن تهدي إليه روايتها الثانية، ويبدو من رسائل جين أستن أنها لم تعن كثيرا بذلك الشرف، وكتبت إلى كلارك بعد يومين من هذه الزيارة تسأله هل هي حرة في أن تهدي روايتها إلى الوصي إذا شاءت، أو أن ما أشار إليه يعد أمرا لها لا يسعها أن تخالفه، ولم يكد كلارك يتلقى رسالتها حتى كتب إليها يقول: "لا شك أنك غير ملزمة بأن تهدي كتابك الذي يطبع الآن إلى صاحب السمو الملكي، أما إذا أحببت أن ينال سمو الوصي هذا الشرف في هذا الوقت أو في أي وقت آخر في المستقبل فأني يسعدني أن أبعث إليك بإذن سموه، ولست بعدئذ في حاجة إلى أن تكلفي نفسك أي عناء أو رجاء".

وقررت جين أستن أن تشرف الوصي بهذا الإهداء، وظهرت إما وفيها الإهداء المطلوب، وتلقت بعد وقت قصير خطاب شكر من سموه كتبه كلارك، وفي آخره العبارة الآتية: "لعلك إذا نشرت كتابا آخر أن تتفضلي بإهدائه إلى الأمير ليو بولد؛ وإن رواية غرامية تاريخية في تاريخ بيت كوبرج العظيم إذا صدرت في هذا الوقت لتكون رواية ممتعة طريفة"

---

(1)Jane Austen

(2)Emma

(3)James Stanier Clarke

وكان كلارك يشير بقوله هذا إلى زفاف الأمير ليو بولد سليل بيت ساكس كوبرج[١] والأميرة شارلت[٢] ابنة الوصي بعد وقت قصير، وأثار هذا الإيحاء ردا مفحما مؤدبا من جين أستن:

"٢١"

"ولكني عاجزة عن كتابة القصص الغرامية التاريخية عجزي عن إنشاء الملاحم الشعرية"

شوتون – قرب – ألتن[٣] في أول إبريل سنة ١٨١٦

سيدي العزيز:

تشرفت بتلقي شكر الأمير، وأنا أشكر لك ما في رسالتك من إشارة جميلة إلى كتابي، ولا بد لي أن أبلغك أيضا أني تلقيت قبل الآن خطابا من هانز بلاس[٤]، وأؤكد لك أني أقدر أعظم التقدير لهجة الخطاب الودية، وأرجو ألا يفهم من سكوتي إلا المعنى الذي قصدته منه حقا وهو إني لم أشأ أن أضيع وقتك في قراءة شكر لا قيمة له، هذا وإني لأرجونك الخير في كل منصب خطير تناله بفضل مواهبك وجهودك الأدبية أو عطف الوصي عليك، وأرجو أن يكون منصبك الجديد خطوة تصل بها إلى ما هو أعظم منه وأعلى منه مكانة، واعتقادي أن كل جزاء مهما عظم لا يكون أكبر مما يستحقه من يخدم الملوك، وذلك لأن خدمتهم تقتضي تضحية بالوقت والشعور ما أعظمها.

وقد تفضلت فأشرت إلى نوع الكتاب الذي أنال به عطف الوصي في الوقت الحاضر، وإني أحس بأن رواية غرامية تاريخية عن بيت ساكس كوبرج قد تنيلني من

---

(1)Prince Leopold of Saxe Coburg

(2)Charlotte

(3)Chawton – near – Alton

(4)Hans Pice

المال والشهرة أكثر مما تنيلني تلك الصور التي أرسمها في قصص للحياة المنزلية الريفية، ولكني عاجزة عن كتابة القصص الغرامية عجزي عن إنشاء الملاحم الشعرية، وليس ثمة سبب يحملني على أن أمسك بقلمي لأكتب رواية غرامية جدية اللهم إلا إذا لم يكن لي سبيل غير هذه السبيل أنجو بها من الموت؛ وإذا كان لا بد لي حتى في هذا الظرف أن أواصل الكتابة دون أن يسمح لي بأن أسخر في أثناء ذلك من نفسي أو من غيري فلست أشك في أنني سأشنق حتما قبل أن أتم كتابة الفصل الأول.

كلا! يا سيدي! إني لا بد لي أن أحتفظ بأسلوبي، وأن أواصل الكتابة بطريقتي الخاصة، وإذا ما قدر لي ألا أفلح في هذا بعد الآن، فإني لا أشك في أني سأخفق إخفاقا تاما في كل ما عداه.

ولا زلت يا سيدي العزيز

صديقتك الشاكرة المخلصة

ج . أستن

وما من شك في أن سمو الوصي كان وقتئذ شديد الرغبة في رواية تشيد بمجد آل ساكس كوبرج، ولو أن جين أستن حققت رغبته لنالت من وراء ذلك خيرا كثيرا، ولكنها أبت أن تنزل إلى ميدان تعتقد أنها لم تخلق له.

لورد بين ينعي نفسه إلى صديق له

[رسالته إلى جون كام هبهوس[1]]

غادر بيرن إنجلترا بعد زواجه المشئوم بالآنسة ملبانك[2] وانفصاله عنها، ولم يعد إليها إلا بعد موته، وقد كتبت ملبانك بعد انفصالهما تقول إنه تزوجها "وهو مصمم على الانتقام مني، وقد أقسم على ذلك في يوم زواجي وبر بقسمه هذا، وكان انتقامه انتقاما منظما لا رحمة فيه ولا هوادة." وكانت زوجته من ناحيتها لا تترك سبيلا لمضايقته إلا سلكتها، كما كان الشعب الإنجليزي نفسه شديد الاستياء من سوء سيرته.

ونزل بيرن في أرض إيطاليا واستقر في مدينة البندقية حيث أطلق العنان لرذائله وشهواته إلا في فترات معدودة كان ينحي فيها بأشد اللوم على نفسه، ومن أقواله بعد مغادرته هذه المدينة: "إني أمقت كل ما يذكرني بالمكان وأهله ومسلكي فيه". وكان بعد وليمة من الولائم الفاخرة يلتزم الحمية زمنا ما، وكان طوال حياته يحب الأكل الدسم، فإذا أراد أن يقلل وزنه ألزم نفسه باتباع نظام في العيش عجيب: يستحم بالماء الساخن، ويمارس ضروبا من الرياضة البدنية، ولا يتناول إلا قليلا من الأرز، وكان في بعض الأحيان يمتنع عن الطعام ثماني وأربعين ساعة كاملة، ثم يعيش بعدها على الشاي وست بقسماطات في اليوم، أو يشرب الخل والماء، وقد قال هو إنه وهو يكتب "دن جوان"[3] لم يكن يتناول إلا الماء وشراب الجن، ولكن الحمية لسوء الحظ لم تتغلب على سائر رذائله.

---

(1)Jhon Cam Hob house

(2)Milbanke

(3)William Fletcher

وقد كتب بيرن الرسالة التالية إلى صديقه جون كام هبوس الذي رافقه في رحلته إلى أوروبا ينعي إليه فيها نفسه ويحدثه عن رذائله، ووقعها باسم خادمه وليم فلتشر[1] الذي لازمه منذ رحلته الأولى إلى بلاد الترك:

– ٢٢

".. سببها القلق والاستحمام في البحر والنساء والركوب في حر الشمس."

البندقية في يونيه سنة ١٨١٨

سيدي:

يحزنني أشد الحزن أن أنعي إليك اللورد سيدي السابق. فقد توفي في الساعة العاشرة من صباح اليوم على أثر هبوط سريع في قواه وحمى بطيئة سببها القلق والاستحمام في البحر والنساء والركوب في حر الشمس على الرغم من نصيحتي إليه.

وإن موته لخسارة عظيمة لجميع الناس وبخاصة لي أنا، فقد خسرت بذلك سيدا وعملا أعيش منه ، وأرجو يا سيدي أن تعطيني شهادة بحسن سيرتي في أثناء خدمتي.

وأنت تعرف أني اقتصدت في أثناء خدمته بضع مئات من الجنيهات، والله وحده يعلم كيف اقتصدتها، أما أنا وأما سيدي السابق نفسه فلسنا نعلم، وإذا لم يكن أجري يؤدي لي كاملا على الدوام فقد كان يؤدى أو يجب أن يؤدى في وقت من الأوقات وبوسيلة من الوسائل، ولست أظن يا سيدي أنك وأنت المنفذ لوصيته ستسمح بأن يحرم خادم مسكين من القليل الذي له. وهو كل ثروته.

وكان إلى جوار سيدي ساعة وفاته قس وعدة أطباء، وقد مات بابويا، ولكنه سيدفن مع اليهود في مقابر اليهود؛ ولست أدري لم يفعل به هذا وهو الذي لم يكن في حياته يطيقهم أو يطيق غيرهم من الناس، كما كان يكره النساء الساقطات اللاتي كن يطلبن إليه المال.

---

(1)Don Juan

وقد صبر على مرضه صبر الكرام، إلا أنه حين بلغ المرض أشده لعن أصدقاءه مرتين وقال إنهم سفلة أنانيون .. وقد لعنك يا سيدي بنوع خاص أنت والمستر كنيرد[1] الذي لم يرد قط على رسائله ولم يجب مطالبه المتكررة.

ولقد قال– سامحه الله – فضلا عن هذا إنه يرجو ألا تنال مأساتك الجديدة غير اللعنات، وأنا أدعو الله ألا يلقى هو من اللعنات ما تلقاه هذه المأساة.

إن النساء التسع الساقطات قد خصص لهن ما يكفيهن من المال، وعومل سائر خدمه إلا أنا وحدي نفس المعاملة، ولست أدري ماذا يكون من أمري، لقد استوليت على ملابسه وعرباته ونقوده وكل ماله، ولكن القنصل خرج على القانون صراحة ووضع خاتمه على أملاكه بعد حصرها، وأقسم أنه سوف يقدم حسابا عنها لورثة اللورد – ولست أدري من هم أولئك الورثة – ولكن من واجبهم أيا كانوا ألا ينسوا الخدم المساكين وبخاصة خادم حجرته الخاص.

إن مولاي لم يكن يرفض قط مطلبا – وكان أجري أقل ما له منه، وإذا كنت قد استبقيت لدى الكنته (وهي كنته ويجب أن تكون كنته بحق رغم تسكعها في المدينة) ماريتا هونتا بيرتا[2]، بعد أن وعدتك أنت وسيدي ألا أفعل وألا أعود إلى فعله – فقد كان سيدي كثير التسامح، ولم يزد في لومي على أن قال إني أبله لعين، وسبني ثم نسي كل شيء بعد، وماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لقد قالت إنها تكاد تموت أو أنها ستقتل نفسها إذا لم أذهب معها، ففعلت – وشغلتها عن غسيل سيدي وكي ملابسه – وليس في الناس من ينكر أن ملابسه الداخلية قد غسلت بعد ذلك، وإن كان الأجر الذي تقاضته كبيرا.

أرجو يا سيدي أن تكون بخير – ولا أزال والدمع يفيض من عيني.

المخلص الخاضع لأمرك

وليم فلتشر

---

(1)Mr. Kinnaird

(2)Marietta Honetta Piretta

حاشية: إذا كنت تعرف سيدا في حاجة إلى خادم خاص – فإني أريد منك شهادة بحسن السيرة، لقد رأيت أخيرا خادمك السويسري سجينا في لجهورن لأنه سطا على حانة، وقد قدم توصية منك في أثناء المحاكمة.

وبقى ولين فلتشر في خدمة بيرن حتى مات سيده في حرب الاستقلال اليونانية، وكان هو آخر رجل إنجليزي رأى الشاعر حيا وسمع آخر كلماته الخافتة التي بعث بها إلى زوجته وابنته وأخته، ولما فرغ منها قال بصوت لا يكاد يسمع، "والآن سأنام". ثم غاب عن وعيه وتوفي في اليوم الثاني.

هيكل فراداي[1] يعتذر عن عجزه عن كتابة رسالة حب

رسالة إلى سارة برنارد[2]

عاش فراداي من عام ١٧٩١ إلى عام ١٨٦٧؛ وكان لأبحاثه وتجارته العلمية أكبر الأثر في استخدام الكهرباء في الصناعة الحديثة، وتدل هذه الرسالة على أن الإنسان، وإن استطاع أن يستحضر في ذاكرته حين يشاء عناصر علم الحركة الكهربائية وأثر المجال المغناطيسي في الضوء، وما إلى ذلك من الحقائق العلمية، قد لا يستطيع أن يجمع في ذهنه العناصر التي تتألف منها رسالة حب.

– ٢٣

"... الخيالات العلمية تسبح أمامي ..."

المعهد الملكي في مساء الخميس

[ديسمبر سنة ١٨٢٠]

عزيزتي سارة:

من أعظم ما يثير الدهشة أن يكون للجسم ذلك الأثر الشديد في قوى العقل؛ فقد كنت طيلة الصباح أفكر في ذلك الخطاب السار الممتع الذي اعتزمت أن أرسله إليك في المساء.

والآن قد بلغ مني التعب غايته، ومع ذلك فإن أمامي الشيء الكثير الذي لا بد لي أن أعمله، ومن أجل هذا كانت أفكاري مضطربة تحوم حول صورتك، ولكنها لا

---

(1)Michael Faraday

(٢) Sarah Barnard وهي غير سارة برنهاردت Sarah Brenhardt والاسم الأخير هو الاسم المسرحي للممثلة الفرنسية روزين برنارد 1923 – 1844) (Rosine Bernard)

تجد من القوة ما يمكنها من أن تقف عندها لتعجب بها، أريد أن أقول لك أشياء كثيرة رقيقة، وأرجو أن تصدقيني إن قلت إنها خارجة من أعماق قلبي، ولكنني عاجز عن السيطرة على الألفاظ التي تمكنني من الإفصاح عما في نفسي. على أنني كلما فكرت وطافت صورتك بمخيلتي، رأيت أنواع الكلوريد، والتجارب، والزيت، والصلب، والزئبق، مئات أخرى من الخيالات العلمية تسبح أمامي وتدفعني دفعا إلى المعضلات السخيفة.

من محبك

ميكل

ورغم هذا العجز عن كتابة رسائل الحب فإن سارة برنارد أصبحت بعد هذا الوقت بقليل زوجة فاراداي المخلصة، وظلت كذلك سنين طوالا، وكان فاراداي وسارة برنارد من أسعد الأزواج.

عندهم مثل ما عندنا

دزرائيلي[1] يرد على أحد خصومه السياسيين

خطاب مفتوح في جريدة التيمس إلى دانيل أوكنل(٢)

إن الرسالة التي كتبها درزائيلي إلى دانيل أوكنل صاحب المواقف المشهودة في الدفاع عن حرية إيرلنده السياسية، لمن أشهر الرسائل المعروفة في المهاترات السياسية.

ويرجع سبب كتابتها إلى أنه لما رشح نفسه لمجلس النواب طلب إلى أوكنل أن يرسل إليه خطابا يزكيه فيه لأن دزرائيلي كان وقتئذ مثل أوكنل من الأحرار المتطرفين.

وأجابه أوكنل إلى ما طلب، وإن كان حظه من مبادئ الأحرار المتطرفين لا يزيد على حظ لويس الرابع عشر منها. ولهذا سقط في الانتخاب مرتين، ثم رشح نفسه مرة أخرى على مبادئ المحافظين في عام ١٨٣٧، واتهم في إحدى خطبه الانتخابية صديقه القديم بأنه رجل مهيج مثير للفتن، ولم يكن هذا الوصف لينطبق على أوكنل بحال من الأحوال، فقد كان كل ما يعمل له أن يكون لإيرلندة برلمان مستقل، وأن تلغي القيود المفروضة على الكاثوليك، وكان لا يتأخر عن مد يده لكل من يعمل معه لهذا الغرض سواء كان من الأحرار أو المحافظين، وكان في الوقت الذي اتهمه فيه دزرائيلي بإثارة الفتن يخطب ود زعيم الأحرار الفيكونت ملبورن[٣].

---

(1)Benjamin Disraeli

(2)Daniel o'connell

(3)Viscount Melbourne

ولم يكد أوكنل يقرأ خطبة دزرائيلي الانتخابية ويطلع على التهمة التي رماه بها حتى اعتزم أن يثأر لنفسه، وبعد بضعة أيام قليلة ألقى في دبلن خطبة سياسية قال فيها عن دزرائيلي: "إن اسمه يدل على أنه من أصل يهودي، وإن أباه قد خرج عن دينه، وسيفيد عمله هذا في الدنيا، وأمله يفيده أيضا في الآخرة، ولقد كان من حسن حظي أني أعرف من زمن بعيد بعض الأسر اليهودية في لندن، فعرفت بين أفرادها نساء لم أر في حياتي أحسن منهن ثقافة أو تهذيبا، ورجالا لم أر من هم أكثر منهم إنسانية ووفاء، أو أذكى عقولا أو أكثر علما، ولهذا فإني إذا وصفت دزرائيلي بأنه من سلالة يهودي أرجو ألا يفهم من قولي هذا أني أعيبه لهذا السبب، لقد كان اليهود في يوم من الأيام شعب الله المختار، ولكنهم مع ذلك كان منهم السفلة والأوباش، وما من شك في أن دزرائيلي من سلالة هؤلاء؛ فقد اجتمعت فيه كل الصفات المرذولة التي اتصف بها اللص العاتي الذي مات مصلوبا، والذي أعتقد أن اسمه كان دزرائيلي أيضا، وعلى هذا الأساس فإني الآن أعفو عن وريث ذلك اللص الكافر".

وكانت المبارزة لا تزال من عادات تلك الأيام، ولكن أوكنل كان قد وعد بألا يبارز على أثر قتله رجلا في عام ١٨١٥؛ ولذلك وجه دزرائيلي الدعوة إلى ابن أوكنل، وكان عضوا في البرلمان وفي مثل سنه (٣٥ عاما). ورد الابن بأنه غير ملزم بتحمل تبعة أقوال أبيه، فبعث دزرائيلي بالرسالة الآتية إلى جريدة التيمس:

— ٢٤

"... ألقيت عليه أقذارك ..."

لندن في ٦ مايو

إلى مستر أوكنل

لقد أخرجت نفسك من زمن طويل من حظيرة المدينة، ولكني لست مع ذلك ممن يتقبلون الإهانة وإن جاءت من الأراذل، ويتغاضون عنها فلا يؤدبون من يهينهم. ولقد قرأت اليوم في صحف الصباح ما نضح به معينك من مثالب ومقاذر، وقرأت في

هذه الصحف عينها أن أبنك كان في الوقت نفسه يلقي من شخص ألقيت عليه أقذارك جزاءه العادل عن مطاعن ومقاذر مثلها، فظننت أن علمك بأن أعداءك قد كشفوا آخر الأمر عن طريقة يثأرون بها لأنفسهم منك قد يبعث فيك أيها الرجل الوقح شيئا من الشجاعة، ولكني لم أجدها فيك، فدعوت ابنك لأن ينوب مرة أخرى عن والده الجبان في تقديم الترضية لي، ولكن يبدو أن ابنك هذا يرفض القيام بعد الآن بهذا الواجب، واجب تحمل تبعات خطبك البذيئة، فلم أجد بعد ذلك إلا هذه الطريقة العلنية أرد بها على مطاعنك. فاستمع إذن إلي.

لو أنك كان في مقدورك أن تفعل ما يفعله السادة الكرام المهذبون لترددت كثيرا قبل أن تعلق بعباراتك القذرة الوقحة على النص الذي أذيع من خطبتي، وهو نص مقتضب مشوه لا يحتوي على جملة أو عبارة كما نطق بها لساني، وحقيقة الأمر أنك قد سرك أن تغتنم أول فرصة تمكنك من أن تنفث سمك في إنسان يرى حزبك أن من مصلحته أن يظهره للشعب في صورة المرتد عن مبادئه السياسية.

ولما قال مستر أوكنل للناخبين في دائرة ويكوم[1] عام ١٨٣١ إنه يحرص على مساعدتي في الانتخابات، كنت قد رشحت نفسي في ذلك الوقت منافسا للحزب المتولي أزمة الحكم، ووصفت ذلك الحزب في خطبتي الانتخابية بأنه "شيعة باغية ظالمة عاجزة" ، وكان هذا هو حزب الأحرار الإنجليزي الذي أتهمك بالخيانة في خطبة العرش التي ألقيت في السنة التالية، والذي كنت قبل بضعة أشهر من ذلك الوقت تطعن على كل فرد من أفراده وتسلط عليه كل ما تعوده لسانك من بذيء اللفظ، والآن أراك يا مستر أوكنل تناصر هؤلاء الرجال، بل أراك من أشد الناس "إخلاصا" لهم. أما أنت فلا أزال عدوهم الألد، فمن منا إذن أكثر ثباتا على مبادئه؟

وتقول إني كنت في يوم ما حرا متطرفا وإني أصبحت الآن محافظا، ولكن ضميري يبرئني من وصمة الانشقاق على أي حزب سياسي أو تغيير رأي سياسي، لقد كنت

---

(1)Wycombe

في عام ١٨٣١ أسعى لغرض نبيل صريح، وهو إعادة التوازن بين الأحزاب السياسية في الدولة، وهو عمل أعتقد أنه لا بد منه لشرف الدولة وسعادة الأمة، ولم أدافع طول حياتي عن عمل لا أعتقد أنه يؤدي إلى هذه الغاية، وإذا كان ثمة عمل من الأعمال أيدته وقتئذ ولا أعمل لتأييده الآن، فما ذلك إلا لأن الغاية التي كنت أسعى إليها قد تحققت.

وكان يسرني في عام ١٨٣١ أن أبذل كل ما لدي من جهد لبلوغ هذا الهدف مع مستر أوكنل الذي لم أكن أعرفه شخصيا، ولكنه كان عضوا في الهيئة التشريعية، اشتهر فيها بنفوذه السياسي، وبتعدد مواهبه، وبكرهه الشديد واحتقاره لحزب الأحرار.

ولم نتقابل بعد عام ١٨٣١ إلا مرة واحدة، ولكني أذكر جيدا حديثي مع تلك الشخصية الممتازة. لقد كان حديثنا جد طويل، أتاح لي فرصة كافية لدراسة أخلاقك.

وكانت الصورة التي ارتسمت في ذهني أنك رجل مضحك إلى أقصى حد، ممتع كل الإمتاع، ولكنك مقدر فوق قدرك، ولست أشك في أنني لم أخف عنك آرائي السياسية وقتئذ، فقد كنت أتحدث إليك بصراحة هي من طبيعتي، وقلت لك إني من رجال السياسة العمليين لا من الذين يندفعون وراء عواطفهم، وإن أهم ما أرغب فيه أن أرى في البلاد حكومة قوية، ولكنها حكومة دستورية، تحفظ كيان الإمبراطورية، وإن الأحرار إن بقوا في كراسي الحكم سيحطمون هذه الإمبراطورية، وصرحت وقتئذ كما اعتدت أن أصرح أن من واجبنا أن نتخلص من الأحرار مهما كلفنا ذلك من تضحيات، وقد خيل إلي وقتئذ أن آراءك لم تكن تختلف كثيرا عن آرائي، ولكن حديثنا كان حديثا عاما، لم نعقد فيه حلفا سياسيا، وذلك لسبب لا يصعب فهمه — فإني لم أخف عنك، ولم أخف عن أصدقاءك، أن وقوفك في وجه الاتحاد بين بريطانيا وإيرلندة يجعل بيننا هوة لا يمكن اجتيازها، وأني لا أعرف كيف يستطيع حزب سياسي إنجليزي أيا كان لونه أن يتعاون معك بعد أن جهرت بعزمك على الوقوف هذا

الموقف، ولعلك قد ظننت وقتئذ أن أنصار الحركة الإنجليزية القائمة في البلاد تستطيع أن تتحالف معكم على نظام يكفل لها ولكم تبادل المساعدة، وأنك تستطيع بفضل هذا الاتفاق أن تنشر مبادئك الهدامة.

ولكني أعتقد أنه ما من إنسان حتى مستر أوكنل نفسه صاحب الاعتقاد الثابت في ضعف حزب الأحرار وخيانته يتصور أن شركاءه في المؤامرة سيكون من بينهم بعد اثنى عشر شهرا لورد ملبورن[1] ومركيز لاندسدون[2].

أما إشارتك البذيئة إلى أصلي فإني أعجب بها كثيرا ولا يخالجني شك في أن "العبد الذي ورث العبودية عن آبائه" قد نسى الآن قعقعة ما يرسف فيه من أغلال، إني أعرف الخطط التي تسير عليها كنيستكم، إنها ترفع عقيدتها مناديه بالتسامح، ولكنها تعمل جاهدة لتسيطر على سائر المذاهب؛ ولا أرتاب في أنكم على أتم استعداد لاضطهاد من يخالفونكم في العقيدة.

أما ما عيرتني به من إخفاق في حملتي الانتخابية فلتسمح لي أن أذكرك بأني لم يكن لدي ما ألجأ إليه فيها إلا حكمة الناخبين، فلم يكن معي هيكل عظمي أهددهم به، ولم ترسم على أعلامي رؤوس موتى وعظام مصلوبة، وكانت مواردي المالية محدودة، ولم أكن من أولئك المتسولين الذين تغص بهم كنائسكم، والذين يسدون على الناس المسالك بصناديقهم، وليست لي موارد كموارد الأمراء انتزعتها من شعب من الأرقاء المتعصبين يتضورون من شدة الجوع.

هل أنني مع ذلك موقن بأن ساعة انتصاري آتية لا ريب فيها، وأني سأجلس عما قريب في ذلك المجلس الموقر الذي يجهر مستر أوكنل برغبته في ألا يبقي عضوا فيه، واعتقادي أنني سأمثل فيه الشعب قبل أن تنفصم عري الاتحاد بين البلدين، وسنلتقي في تلك الساحة.

---

(١) من زعماء الأحرار في ذلك الوقت

(٢) من زعماء الأحرار في ذلك الوقت

وثق أنني وأنا الرجل المؤمن بعدالة قضيته وبما له من جهود قد تبينت شيئا منها سأغتنم أول فرصة فأنزل بك من العقاب ما يعيد إلى ذاكرتك تلك المقابح التي بسطت بها لسانك، وستندم وقتئذ على فعلتك.

بنجمين دزرائيلي

وتصالح دزرائيلي واوكنل قبل موت ثانيهما في عام ١٨٤٧، ولكنهما لم يكونا ذلك الصديقين، ويقول دزرائيلي أن أوكنل "قد بعث إلي برسالة يعلن فيها أن ما كان بيننا من خصام كان دائما يقض مضجعه ... وأنه كان يحييني باحترام كلما قابلني".

من رسائل ربرت براوننج وإلزبث برت

نستطيع أن نتتبع في الرسائل التالية قصة حب شاعر عظيم وشاعرة عظيمة، عاشا في القرن التاسع عشر وانتهى حبهما بزواجهما، وهي تمثل على حد قولها "الموسيقى النفسية الكامنة" في قلبين يخفقان متناغمين "في منتصف الليل والناس سكون نيام".

وتفصح هذه الرسائل نفسها عن عواطف الإخلاص والوفاء التي أوحت إلى إلزبث رت براوننج بأغانيها الخالدة المعروفة "بأغاني البرتغالية".

وكانت إلزبث براوننج كبرى بنات إدورد مولتن برت[1]، وهو رجل ثري ورث في جاميكا ثروة طائلة، وكان الرجل ارستقراطيا من الطراز القديم، رزق ثلاث بنات أبى أن يزوج واحدة منهن.

واعتلت صحة إلزبث حين بلغت الثلاثين من عمرها، ولكنها كانت تجد سلوتها في السفر؛ ونشرت في عام ١٨٤٤ طائفة من قصائدها لفتت إليها نظر الشاعر الكبير ربرت براوننج، فكتب إليها الرسالة التالية يثني على هذه القصائد، وسرتها هذه الرسالة فكتبت إلى صديق لها تقول: "لقد تلقيت في الليلة الماضية رسالة من الشاعر براوننج أنعمت قلبي بهجة وسرورا – فهي من براوننج – ملك المتصوفة".

---

(1) Edward Moulton Barrett

– ٢٥
"... هذا الشعر العظيم الحي ..."

نيوكرس، هاتشام، سري[1]

[في ١٠ يناير سنة ١٨٤٥]

أحب شعرك من كل قلبي يا عزيزتي الآنسة برت، وهذه الرسالة التي أبعث بها إليك لم تجئ عفو الخاطر، ومهما يكن من شأنها فليست هي اعترافا سريعا عاديا بعبقريتك، ينتهي أمره نهاية طيبة عادية.

لقد ظللت مذ قرأت قصائدك أول مرة في يوم من أيام الأسبوع الماضي أفكر فيها عسى أن أصف به لك أثر هذه القصائد في نفسي، وليس يسعني الآن إلا أن أضحك من هذا التفكير، ولقد فكرت في نشوة الفرح الأولى أن أخرج في هذه المرة عما ألفته من الاستمتاع السلبي الخالص حين أستمتع بشيء استمتاعا حقا، فأبرر لك إعجابي بقصائدك – بل خطر لي أن افعل ما يجب أن يفعله الزميل الوفي، فأحاول أن أجد فيها بعض العيوب، فأحسن إليك بعض الإحسان الذي أستطيع أن أفخر به فيما بعد – ولكن هذه التفكير كله لم يؤد إلى نتيجة، ذلك أن شعرك قد نفذ إلى أعماق قلبي، وأضحى هذا الشعر العظيم الحي جزءا من نفسي، ولم تبق منه زهرة واحدة إلا أينعت في وترعرعت، وما أعظم الفرق بينهما وبين الأزهار المجففة المضغوطة التي يعلي الناس من شأنها، ويضعونها على الرفوف ... وهم مع ذلك يسمون كتابهم هذا "أزاهير".

على أنني لا أجد قط ما يحول بيني وبين تنفيذ قصدي هذا في الوقت الملائم له، ذلك أني حتى في هذا الوقت حين أتحدث عن شعرك إلى من هو جدير بأن أحدث إليه عنه، أستطيع أن أبين أسباب ما أجده فيه من المزايا المختلفة – من موسيقى

(1)New Cross, Hatcham, Surrey

عجيبة شجية، إلى لغة سلسة متدفقة، إلى شعور رقيق، وتفكير حق جديد جرئ. هذا عن شعرك؛ أما إذا تحدثت إليك أنت – إلى نفسك – ولأول مرة في حياتي فإن شعوري يعلو على هذا كله.

صدقيني إذا قلت أني أحب هذه القصائد من كل قلبي – وإني أحبك أنت أيضا.

وهل تعرفين أني كنت في وقت من الأوقات غير بعيد عنك أستطيع أن أراك – نعم أن أراك رأى العين؟ فلقد سألني مستر كنين[1] ذات صباح "أتحب أن ترى الآنسة برت؟" ثم ذهب ليعلن لك قدومي – لكنه عاد ... لقد كنت مريضة، ومضت على هذه الحادثة عدة سنين ولكني ما زلت أشعر أنها بأنها كانت من الحوادث المشؤومة في أسفاري، وكأنما كنت إلى جانب إحدى عجائب العالم المخبأة في معبد، أو مشكاة لا يحجبها عن ناظري إلا ستار رقيق أدفعه بيدي فأدخل إلى حيث أمتع عيني برؤيته، ولكن هذا الحاجز الصغير الضعيف –كما يبدو لي الآن – ظل يمنعني من الدخول حتى انقفل الباب الذي كان بعضه مفتوحا، وعدت بعد ذلك إلى موطني، على بعد آلاف الأميال، وحرمت هذه الرؤية أبد الدهر.

على أنني سأراها في قصائدك، وسأجد فيها هذه المتعة، وهذا الفخر اللذين أشعر بهما وأشكر لك أن هيأت لي أسبابهما.

المخلص الوفي على الدوام

ربرت براوننج

وسرت إلزبث برت بالرسالة أعظم السرور، وكان لها في نفسها أعظم الأثر، ولم تضيع هذه الفرصة التي سنحت لها للاتصال بالشعر العظيم، فردت عليه من فورها بالرسالة التالية تعترف فيها بفضله.

---

(1)Kenyon

٢٦ –

"... من أعماق قلبي .."

٥٠ شارع ومبول في ١١ يناير سنة ١٨٤٥

أشكرك يا عزيزي بروننج شكرا يفيض من أعماق قلبي، لقد أردت برسالتك أن تدخل السرور على نفسي –، ولو أن هذا الغرض لم يتحقق لكان من واجبي مع ذلك أن أشكر لك حسن صنيعك، فما بالك وقد تحقق قصدك كاملا، فيا لها من رسالة ويا له من كاتب! إن العطف في حد ذاته شيء جميل وعزيز – وهو جد عزيز علي –، ولكن عطف شاعر – وأي شاعر –! هو في نظري جوهر العطف وخلاصته! فهل تقبل مني شكري واعترافي بالجميل، إذا كنا متفقين أيضا في أن أثمن تجارة تبادلها العالم من صور إلى قرطاجة هي تبادل العطف والشكر!

وأنت بعد هذا تجذبني إليك بحنانك، وليس أصعب عليم من أن تبتعد عن قوم بعثت في نفوسهم فوق ما ينبغي أن تبعثه فيها من السرور والبهجة – وتلك حقيقة تعترف بها، ولست أريد هنا أن أبحث فيما تنطوي عليه من خير أو شر، أما الذي أريد أن أقوله – بعد شيء من التردد الذي هو من طبعي – فهو أنك إذا اطرحت يوما ما من غير مشقة عليك "حالتك السلبية"، وحدثتني عما في قصائدي من أخطاء تكشف عن نفسها، وترى أنت أيها أخطاء خطيرة ٠لأني بطبيعة الحال لا أرغب في أن أكلفك عناء النقد المفصل)، إذا فعلت ذلك فإنك تسدي إلي جميلا يدوم مدى الحياة، وهو جميل عظيم الشأن أتطلع إليه على ما بيننا من بعد الشقة.

ولست أدعي أني جد وديعة أتقبل كل نقد، ولعلي لن أكون جد طيعة لك في نقدك، ولكني أجل مواهبك وتجاربك في فنك، ومن أجل هذا لا أستطيع أن استمع إلى شيء من ملاحظاتك العامة على ما تراه عيبا خطيرا في شعري من غير أن أفيد منها في المستقبل بطريقة ما، وكل الذي أطلبه إليك هو جملة أو جملتان تتضمنان ملاحظاتك العامة – وحتى هذا لا أطلبه لأثقل عليك به، بل أطلبه طلب الخاشع

المنخفض الجناح كما هو خليق بالنساء وبخاصة إذا جئن يستعطفن.

وأظن أن أكثر ما يوجه إلي من النقد العام إنما يوجه إلى أسلوبي، فكثيرا ما أسمع قول الناقدين – لو أنني غيرت أسلوبي! – ولكن هذا اعتراض يوجه إلى الكاتب جملة وتفصيلا (أليس كذلك؟)، ذلك أن أسلوب الكاتب هو شخصيته كما يقول بفن[1] – وهو قول يشعر به كل كاتب مخلص لفنه، ومع هذا فإن هذه الحقيقة التي لا شك فيها قلما تنقص من حدة اعتراض الناقدين.

وهل حق ما قلته من أنني أوشكت أن أحظى بمعرفتك وأتشرف بها؟ وهل صحيح أنك تنظر إلى ضياع هذه الفرصة بشيء من الأسف! إنك لا شك تعرف أنك لو دخلت "المحراب" لبردت حرارة قلبك، أو لأودي بك التعب، ولتمنيت أن لو كنت "بعيدا عني ألف ميل"، ولوجدت في هذا الأمنية من المشقة أكثر مما في قطع هذه المسافة فعلا، على أنه ليس من مصلحتي أن أوحي إليك بأن ما حدث "كان كله خيرا لك"، بل إن من مصلحتي أن أرجو – وأنا أرجو حقا – أن تسنح لي في المستقبل فرصة تعوض علي ما فاتني في الماضي، إن الشتاء يلزمني بيتي فلا أخرج منه قط، أما في الربيع فسوف نرى، وإني لأشعر الآن بتحسن كبير في صحتي يخيل إلي معه أني سأخرج إلى العالم مرة أخرى، ولقد عرفت صوتك، وأنا لا أزال حبيسة في داري، ولكني لم أعرفه من شعرك فحسب، بل عرفته أيضا مما فيه من حنو وشفقة، ومستر كنين لا يفتأ يحدثني عنك – وما أجل مستر كينين في نفسي! – وليس في وسعي أن أتحدث قط عن فضله علي، أو أني لا أستطيع أن أتحدث عنه إلا والدمع يفيض من عيني؛ فهو صديقي ونصيري، وهو صديق كتابي ونصيره! وهو ينقدني ويعطف علي، وهو صديقي بحق في جميع الأوقات! وأظنك تعرفه حق المعرفة، فتدرك أن من حقه علي أن أقر له بالجميل.

لقد اطلت الكتابة، ولكني على الرغم من هذا الطول سأكتب إليك عن شيء

(1)Buffon

آخر، سأقول لك إني مدينة لك، وليس هذا الدين مقصورا على الرسالة التي أملاها عليك قلبك، وما حوته من أسباب السرور والغبطة لي، بل إنه ليشمل فوق الشعر المقدس، سأظل شديدة الإعجاب بأعمالك، عاكفة على دراستها، لا ينقص حبي وإخلاصي لها عن حبي للشعر وإخلاصي له، هذا ما ينطوي عليه قلبي، وما أريد أن أقوله لك – وقد قلته.

وليس لي بعد هذا إلا أن أقول إنني فخورة بأن أظل

الشاكرة المخلصة لك

إلزبث ب . برت

أما كيف أثمرت هذه الصداقة رابطة قوية وزواجا شعريا موفقا فسيراه القارئ في الرسالة التالية.

من إلزبث برت براوننج إلى أختيها هنريتا وأربل[١]

بعد فرارها وزواجها بربرت براوننج

ظل الخطاب التالي سرا في الأسرة حتى عام ١٩٣٥، حين بيع هو مجموعة الرسائل الأخرى بأربعين ألف ريال، وتبين منها أن المراسلات التي بدأت بأولى الرسالتين السالفتين الذكر التب امتدح فيها ربرت براوننج قصائد إلزبث برت لم تنقطع، بل أعقبها بعد قليل زيارات، ثم خطبة، استطاع بعدها أن يقنعها بأن تتزوجه رغم معارضة أبيها، وعارضت في هذا الزواج أيضا أسرة براوننج نفسها، لأن إلزبث كانت تكبره بست سنين، ولأنها كانت معتلة الصحة، وكان لا بد من إخفاء الموضوع كله عن مستر برت، وتحسنت صحة إلزبث في صيف عام ١٨٤٦ فتزوج بها الشاعر الكبير في ١٢ سبتمبر من ذلك العام، وسافرا بعدئذ إلى إيطاليا ليقضيا فيها الشتاء. ولما أقبل الربيع استقرا نهائيا في فلرنس.

كل هذا تسجله إلزبث مفصلا في رسالتها الطويلة إلى أختيها وهي الرسالة التي تنتقل فيها فجأة من موضوع إلى موضوع دون تمهيد.

— ٢٧

"يظن أبي أني بعت روحي – للعبقرية .. للعبقرية فحسب"

روان[٢] في الثاني من شهر أكتوبر سنة ١٨٤٦:

أشكركما وأدعو لكما بخير يا عزيزتي هنريتا وأربل ... يا أعز الأخوات وأشفقهن! لقد قاسيت من الشدائد قبل أن أصل إلى أورليان[٣] ما لا يعدله في هذه

---

(1)Henerietta and Arabel Barret

(2)Roanne

(3)Orleans

اللحظة التي أمسك فيها كل رسائلكما بيدي إلا عظيم شكري لكما، وإلا الدموع التي أذرفتها، وإلا القبلات التي طبعتها على كل سطر من الأسطر التي كتبتماها إلي ... يا أعز الخوات وأشفقهن، إن الأسبوع الذي تأخرت في باريس كاد يقضي على حياتي في أورليان ... ولقد قلت وقتئذ إنه كاد يقضي على حياتي، فلقد سبب لي ذلك التأخير الشيء الكثير من القلق والرعب. ثم جاء ربرت بإضبارة كبيرة من الرسائل ... أمسكتها بيدي، ولم أستطع أن أفض واحدة منها، بعد أن امتقع لوني، وبردت أطرافي، وزادت حالي سوءا في كل لحظة، وأراد هو أن يجلس إلى جانبي وأنا أقرأ الرسائل ولكني رفضت، لأني كنت قد اعتزمت ألا أسمح له بهذا قبل أن يحين الوقت الملائم، واستطعت بعد رجاء أن أقنعه بالابتعاد عني عشر دقائق، أتحمل فيها الألم وحدي، وأتحمله بشجاعة أعظم مما لو كان هو إلى جانبي، وتلك عادتي كما تعلمان. يضاف إلى هذا أن الخير كان في ألا يطلع هو علي ...

لقد كان بعض هذه الرسائل قاسيا شديد الوقع علي، وأنا أقصد الرسالتين اللتين كتبهما والدي وأخي جورج العزيزان؛ فأما الأولى فكان من حقها علي أن أحني لها رأسي إجلالا لها، وإن كنت لا أظن أني جديرة بأن أتجرع تلك الكأس المرة حتى الثمالة جزاء لي على العمل الذي دبرته وأقدمت عليه، ولكنه أبي ومن حقه بطبيعة الحال أن ينظر بعينيه هو إلى ما يراه أمامه ليحكم عليه، أما جورج فإني أصارحكما القول بأنه كان قاسيا علي حين كتب، وكأنه كتب إلي بحد السيف لا بالقلم، وهل هناك ما هو أقسى من أن أتهم بأني لم أكن أحبكم جميعا، أنا التي لا أضن عليكم بحياتي أضحي بها لأقل إشارة منكم، إن كان لا بد من التضحية وكان فيها نفع حقيقي لأحدكم، ولو أنكم أثبتم لي ذلك لكانت حياتي وسعادتي رهن إشارتكم.

وكان قاسيا حين أتخذ حبه لي وسيلة لتحطيم قلبي برسالته. ولكني أعذره لأنه كتبها وهو مهتاج غير عالم بالحقيقة؛ وأسأل الله أن يظهر له ولأقللكم تصديقا لي، أني لم أحبكم في وقت من الأوقات، أنتم أحبابي جميعا، أكثر من حبي لكم حين فارقتكم — أي في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة ...

والآن أخبركما أن ربرت – وقد كان في اعتقادي ينتظر بجوار الباب في شدة القلق علي – جاءني ووجد أن قد عاد إلي من قوتي ما أستطيع به أن أبكي من ألفاظكما الرحيمة التي كانت بلسما لجراحي، فوضعت رسالتيكما بين يديه؛ ولما قرأها اغرورقت عيناه بالدموع، وأخذ يقبل ما بين ألفاظ الرسالتين ثم قال لي: "إني أحب أختيك من كل قلبي، وأنا عاجز عن أن أعبر لهما عن شكري، وسيكون همي في الحياة أن أثبت لهما أني جدير بهذه الأمانة كما يقولان في هاتين الرسالتين" ...

آه يا أختي العزيزتين هنريتا وأربل، ما أشد ما قاسيت في ذلك اليوم – يوم الأحد المشئوم ... حين اضطررت أن أمثل أمامكما دورا متصنعا! ما أشد ما قاسيت وأنا أفكر في أني إن بدا على وجهي شيء مما أخفيه من ألمي أشركتكما في الحزن الذي كان لولا هذا يبقى لي وحدي، ولكن أربل كشفت السر رغم ما بذلت لإخفائه من جهود! ولذلك أصبحت أخشاها – فقد كانت تسدد نظراتها إلي، وكانت نظرات جد ورزانة ... آه يا عزيزتي هنريتا وأربل! يجب أن تعلما كلتا كما أني، وإن كانت ظروف ذلك الوقت التي لا تخفي عليكما قد ألجأتني إلى الرضا بأن يكون زواجي قبل سفرنا ببضعة أيام، قد اشترطت ألا يراني في ذلك المنزل بعد الحفل، بل ألا يراني مطلقا إلا ونحن مسافران.

وافترقنا، كما التقينا عند باب كنيسة ماري لبون[1]، وأخذ بيدي إلى مائدة العشاء الرباني ولم ينطق أحدنا بعد ذلك بكلمة، وقد قال لي بعدها إنه لم يكن ثمة فرق بيني وبين الموتى ...، وكنا نخشى وقتئذ أن يحدث حادث يفد علينا كل تدبيرنا، أو أن أضطر على الأقل أن أسافر إلى لندن قبل إتمام مراسيم الزواج، وهو العمل الذي لا أرضاه لأسباب لا تخفى عليكما، إذن لم يكن ما حدث فرارا بل كان في واقع الأمر زواجا خاصا، وقد كنا كلانا نكره أن نثير بعملنا شيئا من التكفل وحب الاستطلاع لدى طائفة معينة من الناس، ولم يعرف ولسن شيئا مما انتويناه إلا في الليلة

(1)Marylebone

السابقة، أما ما قاسيته وأنا معكما ففي وسعكما أن تتصوراه، لقد كانت آلامي تزداد بنسبة ما أبذله من الجهد الناجح لإخفاء هذا الألم، وإن مجرد التفكير في هذه الجهود ليحز الآن في نفسي، وأرجو أن تعفوا عن كل ما كفرت عنه في أعماق قلبي.

ولقد وصلتني في أورليان مع رسالتيكما رسالة من صديقي العزيز مستر كنين، وهي رد على ما كتبناه إليه من الرسائل أخيرا، وصدقاني إذا قلت إني لم أتلق قط رسالة أكرم منها ولا أرحم ولا أدل على ثقته بنا — وما أكثر ما خففت من آلام ربرت المسكين لأنها تفصح عن رأي صديق يحبه ويعتمد عليه لأسباب كثيرة، وسأنقل إليكما بعض ما قاله المستر كنين لأن لرأيه كما تعلمان قيمة كبيرة في نظرنا:

"عزيزتي ب . ب .[1] تلقيت بالأمس بعض رسائل زوجك، واسمحي لي أن أقول بإيجاز، كما هو الواجب علي في هذه الظروف، إني راض عن كل ما كنتما تفكران فيه وتشعران به، وعن كل ما فعلتماه، وأعتقد أنه لا يمكن أن يصدر منك ومن برونج تفكير أو عمل غير كريم، ولقد كان من أثر الظروف الخاصة التي أحاطت بكما أن استحال ما يمكن أن يسمى في غير هذه الظروف نزفا وطيشا إلى فطنة وبصيرة، وما قد يبدو في ظاهره عنادا إلى نزول على حكم الضرورة، ورأيي الشخصي فيكما أني لا أعرف شخصين كلاهما أجدر بالثاني منكما، وإذا شئتما أن أتحدث حديثا شخصيا إليكما قلت إنه لا يمكن أن يكون من غير أسرتيكما شخص أكثر مني حبا لكما، أو أكثر رجاء لسعادتكما، وإن من أبهج الأفكار التي يمكن أن تمر بخاطري أن أتمتع إذا عشت بحبكما وبوجودي معكما مجتمعين في المستقبل، كما تمتعت حتى الآن بالسعادة بوجودي مع كليكما وحده" ...

ولقد اضطررت (لضيق الصحيفة) أن أقتطع من الرسالة جملة أو اثنتين ولكنهما لا تختلفان عن سائر ما فيها.

ألا ما أعز مستر كنين على نفسي، وما أكثر شفقته علي! وأنا أحبه حبا لا

(١) برت برونج

يعدله حب. كذلك جاءتني رسائل شفقة وعطفا من الآنسة متفرد، ومن نلي بوردمن، ومستر جاجو[١]. وقد أرسل جاجو إلي وصفا لدواء أشربه، ودعا إلي بخير ... أما جين فقد كتبت إليها حين كنت في باريس ...، أو على الأصح حين هممت أن أغادر باريس، ولكني لم أكتب إلى منى بعد، وإذا استرحت من متاعبي نحو نصف ساعة فسأكتب إليها ما في ذلك شك، وأشكر لكما عنايتكما بكتابة الرسالتين اللتين بعثتما بهما إلي كما تقولان في هاتين الرسالتين.

هل وصلتكما رسالتي الطويلة التي كتبتها في باريس؟ وهل تلقت تربي[٢] رسالتي القصيرة التي كتبتها في هافر؟ آه يا عزيزتي تربي! أرجو ألا تسمحا لها بأن تسيء بي الظن.

إن عملي هذا لا يستطيع أن يحكم عليه إلا من عرف الرجل الذي تزوجت به حق المعرفة، أنه يبرهن في كل ساعة على أنه أعظم مني قدرا، وإذا كان مخلوق أرقى من بني الإنسان تحيط برأسه هالة من المجد قد عاش في الأيام الأخيرة على ظهر هذه الأرض فقد كان هو هذا المخلوق.

يظن أبي أني بعت روحي – للعبقرية ... للعبقرية فحسب، وذلك عمل كنت أعمله وأنا صغيرة السن لو أتيحت لي فرصة لعمله ... أما الآن فقد أمسيت بعيدة عن ذلك الخطر، لقد رضى زوجي برهة من الزمان أن يضع نفسه موضع الريبة من أجلي، من أجل حبه لي، من أجل افتتانه بي افتتانا دهشت له من أول الأمر إلى آخره.

وما من شك في أن أكثر الناس ارتيابا في أمره سيكونون في المستقبل أعظم الناس تقديرا له؛ وكل ما يجب علينا هو أن نصطبر قليلا ونسلم أمرنا إلى الله. وإلى أن

---

(١) Mr Jago, Nelly Bordman, Mitford وقد رأينا أن نستبقي هذه الأسماء كما هي محافظة على أصل الخطاب ولسنا نريد من القارئ بطبيعة الحال أن يعرف عنها شيئا.

(2)Trippy

يحين ذلك الوقت أحل أن أطلعكما على حقيقة أمره – حقيقة أمره بالنسبة إلي – وأرجو أن يكون لكما من الثقة بي ما يحملكما على تصديقي، إنه يستعين بملكاته كلها ليدخل علي السرور والراحة ... وهو يسحرني فيوجه أفكاري إليه إذا رأى هذه الأفكار شاردة ... وهو يضطرني إلى الابتسام على الرغم من هذه الأفكار جميعها – ليتكما رأيتماه يوم أن كنا في أورليان.

لقد وضعني بنفسه على السرير؛ وجلس إلى جانبي ساعات طوالا، يغمرني بعبارات العطف التي تفيض من قلبه، وتدل على الخير الذي تنطوي عليه نفسه، ويعدني بأن يرجع لي بفضل الله وعونه حب من غضب علي من أهلي، وهو يزداد حبا لي كل يوم، وقد مضى علينا معها الآن أربعة عشر يوما، ولن أنسى قوله لي في رقة عميقة صادقة ... "لقد قبلت قدميك ياب[1] قبل أن أتزوج بك، أما الآن فأني أقبل الأرض تحت قدميك، إني أحبك الآن أضعاف ما كنت أحبك من قبل". وهو في وقله هذا صادق كل الصدق، فأنا أرى هذا الحي وأحس به، وأنا أشعر أن في قدرتي أن أسعده ... نعم أشعر أني أملك هذه القدرة، وإن كان من أعجب الأشياء أن يحبني مثل هذا الرجل النابه؛ ولكنه حب حقيقي عجيب ... لا أستطيع أن أشك فيه بعد الآن، ومن أجل هذا سننعم بالسعادة الكاملة إذا استطعت أن أفكر فيكم كلكم دون أن يجز الألم في قلبي، أما أسرته فكانت شديدة العطف علي، فقد رأى أبوه أنه بلغ السن التي يستطيع فيها أن يحكم على أعماله، ولم يفكر قط في أن يتدخل في أمره بأكثر من أن يقول له في آخر لحظة: "قبل لي زوجتك"؛ قال ذلك ساعة أن افترقا، وقد أرسلت أخته إلي مكتبا صغيرا يصلح للأسفار ومعه هذه الكلمة: "إلى إ . ب . ب؛ من أختها سريانا"[2]، ولم يغضب أحد لأنه أخفى أمره عنهم، وذلك لاعتقادهم أن ثمة أسبابا حملته على هذا الإخفاء، وإن كانت لا تنقص من حبه واحترامي لهم.

---

(١) برت

(2)Sariana

لقد قلت لكما إن مسز جيمسن[1] كانت تصحبنا في سفرنا، وإننا رأيناها كثيرا في باريس، وهي لا تفتأ تقول عن ربرت إنها لم تعرف له نظيرا في سعة العقل وخصب الخيال، تزينه أخلاق طيبة وعادات جميلة، تستهوي النفوس وتأسر القلوب، ولا غرابة في أن تقول فيه مسز جيمسن هذا القول ... فهو يرعانا بالليل والنهار، يفكر فيما يشعر به كل منا ... وهو حلو الفكاهة، عاقل متزن ... (وهو سخيف في موضع الشخف)، وهو يدخل السرور على العجائز الغاضبات اللاتي لا يفتأن يتململن ويشكون المرض، ويتحدث باللاتينية إلى القساوسة الذين يجيئون في الساعة الثالثة صباحا ويسألون هل ...؟ ولا يغفل عن شيء أو ينسى أحدا ... اللهم إلا نفسه ... هذا هو الشيء الوحيد الذي يغفل عنه ...

وأؤكد لكما أنه كسب قلب ولسن، وعلى ذكر ولسن أقول إنها طيبة نشطة فوق ما كنت أنتظره منها، وإنها كانت مخلصة وفية لي على الدوام، وهي الآن لا تخاف الفرنسيين، وقد تعلمت كيف تأتي لنا بالماء الساخن والقهوة والخبز والزبد ... وأسألكما عرضا هل تعرفان ما يقصد جورج بقوله "أربل ومنى شريكتاي في الجريمة"؟ ألم يصدقني حين قلت له ما يناقض هذه الأقوال تماما؟ أو أن عزيزتي منى قد ذكرتني عنده بخير أكثر مما ينبغي فاستحقت على ذلك اللوم؟ أما أربل فإن معرفتي إياها لا تقل عن حبي لها ... ولست أسأل أحدا عما قالته عني.

ولكني لا بد أن أفكر ... أفكر ... فيما سببته لك يا عزيزتي أربل من آلام مبرحة في مساء ذلك اليوم! إني لترتعد فرائضي حين أتصورك في ذلك المساء يا أربل، يا أحب الناس إلي! لا تظني يا أربل أن الحب الجديد يستطيع أن يفسد الحب القديم، فأنا أعتقد أني أحبك الآن أكثر مما أحببتك في أي وقت مضى. وسيكتب إليك ربرت من بيزا وسيكتب كذلك إلى هنريتا. وهو يقول إنه يحبكما كما يحب أختيه، ويتمنى لو كنتما معنا، ويرجو أن يحظى بذلك في يوم من الأيام ...، فتقيما معنا وتسافرا معنا

---

(1)Mrs. Jameson

كما أقيم وأسافر أنا بالضبط، ويجب أن أحدثكما عما قالته لي مسز جيمسن من بضعة أيام ...ن لقد قالت: "إن من أبهج المناظر أن أراك أني ومستر برونتج معا، ولو أن إنسانا أراد أن يختار من طرفي الأرض شخصين ليتحدا ويأتلفا لما وجد أجدر منكما يزينكما الحب والائتلاف".

وأنا أنقل إليكما هذا القول لأني أظن أنه يسركما كل السرور أن ترعفا ما انطبع في عقل هذه السيدة النبيلة وإن كان فيه من الثناء علي أكثر مما ينبغي ... أما فيما عدا هذا فإذا كان هو ذكيا وكنت أنا غبية (من الناحية الاجتماعية)، فإن الحب يقرب بيننا، وفي ذلك كثير من السلوى لي.

لقد قضينا ليلتين في عربة السفر (ولم تكن الليلتان متتابعتين بطبيعة الحال)، وتعبت كثيرا من أشياء أخرى، ولكن هذا التعب لم يؤذني حقيقيا، فإني ألقي عناية كثيرة وأتخذ من ذراعي زوجي وركبتيه وسادة لي ... وهو يحملني رغم إرادتي إذا نزلت الدرج أو صعدت عليها ... ويدللني ويهتم بي بكل وسيلة مستطاعه، وقد أفادني تغيير الهواء، فأنا الآن أقدر مما كنت على العمل، وحين نصل إلى بيزا ونستريح من وعثاء السفر لن يبقى للتعب فيما أظن أي أثر اللهم إلا أثره الطيب، وإنكما لتدهشان إذا رأيتماني قد اطرحت جميع عاداتي! –، ويخيل إلي أني في حلم. وسنستقل القطار غدا إلى ليون، ونركب بعد غد زورقا في نهر الرون، ثم نقيم يوما في أفنيون[1] نسافر بعده إلى فوكلوز[2] لنتتبع فيها آثار بترارك. ولم يسمح لي اليوم بمغادرة الفراش حيث أكتب الآن رسالتي لأنا قضينا الليلة الماضية في السفر –، وقد جيء بالخوان إلى جوار الفراش (كما يفعل الأجانب يا أربل) ليتناول عليه ربرت طعامه، ولأتناول أنا عليه أيضا طعامي ...

ويسرني أنكما في الريف – فاكتبا إلي – واكتبا ... نبئاني بكل شيء، نبئاني هل

---

(1)Avignon

(2)Vaucluse

تحبان بلدة بوكهام[١] الصغيرة؟ إن نصف روحي معكما، أعانكما الله يا أختي المحبوبتين. بلغا حبي إلى مستر بويد[٢]، وسأكتب إليه أنا بعد قليل. وقولا ذلك أيضا لمسز مارتن[٣]. وهل تشعران وتعلمان أن .. مقامي بوصفي زوجة ... هو السعادة بعينها في هذا العالم؟ فزوجي طيب رحيم يفضلني في كل شيء، وكلانا يحب الآخر حبا لا ينقص على مر الأيام بل يزيد، وأنا أتحدث إليكما عن هذه الأشياء بدل أن أتحدث عن كنيسة بورج[٤] لأني أحس أنها هي الأشياء التي ترغبان في معرفتها.

وسأكتب إلى أبي – وإلى جورج توا – نعم سأكتب إليهما – آه – إن جورج لم يكن ليكتب إلي بما كتب لو أنه عرف كل ما في قلبي، ولكني أحس أنه كان يحبني وهو يكتب إلي، وأنا نفسي أشعر بهذا كلما آلمتني كتابته، عزيزي جورج – إني أحبه حبا هو جدير به. وأبي المسكين! إني أفكر فيكم جميعا، وأفكاري لا تفارقكم يا عزيزتي هنريتا وأربل، اسمحا لي أن أكون كما كنت من قبل وكما سأكون أبد الدهر.

حبيبتكما

ب

كنت أقصد أن أبعث إليكما بالرسالتين بعد ساعة من مغادرتي شاره ومبول[٥] ...، وقد ساءني كثيرا بل أحزنني أني لم أفعل. أما عن سفري إلى بوكهام[٦] فقد فكرت فيه مرة – ولكني لو فعلت لأسأت إليكما كثيرا بهذا السفر، ولأني كنت حينئذ أفسد به المناظر الجديدة التي وصفتها لكما بدل أن أجعله من أسباب متعتكما – كونا سعيدتين يا عزيزتي وثقا أني سأكتب إليكما.

---

(1)Bookham

(2)Mr. Body

(3)Mrs Martin

(4)Bourges

(5)Wimpole

(6)Bookham

ولم يعف مستر برت عن ابنته مطلقا، ولم يزل بينهما من جفاء، أما ربرت براوننج وزوجته فقد عاشا في فلرنس من عام ١٨٤٧ حتى توفيت إلزبث في عام ١٨٦١، ولم يبرحاها إلا في زيارات متفرقة إلى باريس ولندن، وقد كتبت إلزبث "أغاني البرتغالية[١]" في أثناء خطبة ربرت لها، ولكن أحدا لم يرها إلا بعد الزواج، وأهدتها إلزبث إلى زوجها في بيزا وأثمر هذا الزواج ولدا في عام ١٨٤٩.

---

(1)Sonnets from the Portuguese

إلزبث برت براوننج تتوسل إلى نابليون الثالث

أن يعفو عن فكتور هوجو

لسنا نتوقع بطبيعة الحال أن يكون نابليون الثالث (لوي نابليون) شديد العطف على أديب كبير مثل فكتور هوجو؛ ذلك أن هوجو لم يكن صريحا في إبداء آرائه فحسب، بل كان فوق ذلك يبديها في قوة وهنف، وكان من أثر عدائه لنابليون الثالث ومن أثر صراحته وقوته أن نفي من فرنسا، وأوحي ذلك إلى إلزبث برت براوننج، وكانت هي الأخرى شبه منفية في خارج بلادها لأسباب صحية، أن تكتب هذه الرسالة القوية تدافع فيها عن زميل من الأدباء لم تكن لها به صلة غير صلة الفن، وهو دفاع مجيد أوحي به شعور نبيل وخلق كريم.

— ٢٨

".. ذلك يا مولاي صوت امرأة أوتيت من الجرأة ما يدفعها إلى الجهر بما يتردد في صدور الكثيرين ولكنهم لا ينطقون به"

مولاي

لست إلا امرأة كل ما لها من الحق في أن تطلب إلى جلالتكم أن تعنوا بأمرها لا يزيد على ما لأضعف الناس من حق على أقواهم، ولعل اسمي نفسه لم يصل إلى مسامع جلالتكم، فلم تعرفوا أنه اسم لزوجة شاعر من شعراء الإنجليز، وأن صاحبته تذكر أحيانا بين الشعراء؛ وأنا لم أتقدم لمليكي قبل الآن بمطلب ما، ولست أحذق وسائل مخاطبة الملوك، ولكن ما قضيته من حياتي في الدرس والتفكير قد جعلني آلف العظماء (عظماء الموتى على الأقل)، ولذلك لا أجدني عاجزة كل العجز عن مخاطبة الإمبراطور نابليون.

وأرجوك أن تصطنع الصبر معي حين أتوسل إليك، فإني لا أفعل ذلك لنفسي

ولا لأحد من أهلي، لقد كنت أقرأ بعين دامعة وقلب حزين (كما فعل في الأيام الأخيرة كثيرون ممن يحبون جلالتك وكما فعل أيضا بعض من يبغضونك) كتابا يسمى "التأملات" كتبه رجل أخطأ في حقك كل الخطأ في بعض ما أبداه من الآراء السياسية. ووردت على لسانه وهو منفي في جرسي ألفاظ حمقاء وأقوال ليس لها ما يبررها؛ ولست أعرف شخص هذا الرجل ولم أر وجهه قط، وما من شك في أنني لا أكتب إليك الآن لأعتذر عنه.

والحق أني أرى أن عدم وجود عذر له هو عين السبب الذي يجعله جديرا بعفوك، وذلك أن هذا الرجل، مهما يكن من أمره، شاعر من كبار شعراء فرنسا، ومن واجب الإمبراطور الذي يرعى مجد فرنسا أن يذكره وألا يتركه بحاله التي هو عليها.

أي مولاي، إن ما كتبه عن (نابليون الصغير[1]) لا يهم جلالتك، بل الذي يهمك ألا يضطر واحد ممن يؤرخون ذلك العصر فيما بعد إلى القول: "إن فكتور هوجو كان يعيش في المنفى حين كان نابليون الثالث يحكم فرنسا". إن الذي يهمك ألا يقول قائل حين يشيد أبناء وطنك بفضلك ويذكرون من أنجبتهم فرنسا من رجال التجارة والحرب والعلم "ولكن أين شاعرنا؟". إن الذي يهمك ألا يأسى على إبعاد هذا الرجل أحد من ذوي العواطف الرقيقة أو من النساء مثيلاتي مهما تكن الأعذار التي يبرر بها رجال الحكم والسياسة إخراجه من بلده. إن الذي يهمك أنه إذا قرأ ابنك الأمير المحبوب هذه القصائد (وأنت يا مولاي حين ترغب في أن يتطبع بطباع الأمراء لا شك راغب أيضا في أن يكون لهذه الأشياء أثر في نفسه) أفعم قلبه سرورا حين يذكر أن أباه الإمبراطور قد بلغ من العظمة حدا استطاع معه أن يغلب منشئها بكرمه وعلو نفسه.

أجل يا مولاي حسبك، ما بلغت من عظمة، وفي وسعك أن تغض الطرف عن نزوات الشعراء وعما تلوح به المواهب العالية من مغريات، وما ينتاب الشعراء من

---

(١) **Napoleon le Petit** من أقوال فكتور هوجو في نابليون الثالث

حمى عارضة تدفعهم إلى الثورة أحيانا، ويقاسون من آثارها فوق ما يقاسيه غيرهم من الناس، إن مثلك لا يخفي عليه أنهم حين يبغضون أشد البغض لغير سبب، يكمن في ناحية من نواحي نفوسهم حب قدسي، وأنهم حين يخطئون أسوأ الخطأ في نظرتهم إلى الأمور يخلصون لمثل أعلى ينشدونه، فأعف عن هذا العدو الذي يتهمك ويفتري عليك، وأثبت له بكرمك أنه مخطئ في اتهامه لك وافترائه عليك، ولا تجعل هناك سبيلا لدمعة يذرفها أمامك إنسان معجب بشعره، واستثنه كما استثناه الله حين وهبه عبقريته الفذة، وأعده إلى وطنه وإلى قبر ابنته بلا قيد ولا شرط.

لقد كتبت ما كتبت دون أن يعرف بذلك أحد، وكان حقا علي بطبيعة الحال، وأنا امرأة أن أتوجه بخطابي إلى زوجتك الرحيمة الإمبراطورة أوجيني، ولكني وأنا زوجة ظننت أن العفو عن ذنب يرتكب في حق الإمبراطور نابليون أصعب على جلالتها منه على الإمبراطور نفسه.

وإني لأشعر بدافع لا أستطيع مقاومته يدفعني نحو أقدام جلالتك، لأتوسل إليك بأن تعفو عنه. ذلك يا مولاي صوت امرأة أوتيت من الجرأة ما تستطيع به أن تجهر بما يتردد في صدور الكثيرين، ولكنهم لا ينطقون به. وإني لعظيمة الثقة بنابليون الثالث؛ وإن حبي الشديد للدمقراطية ليدفعني إلى أن أعتقد من بادئ الأمر أنها ستجد فيك ومنك أكبر عون، وأنا موقنة بأنك ستكون عظيما في أعمالك، وسأوقن فوق هذا بأنك ستكون نبيلا في عفوك؛ وما من شك في أنك ستكون نابليون في هذا أيضا.

إلزبث برن براوننج

ولكن هذه الرسالة ككثير من الرسائل الأخرى التي كتبت في أوقات الانفعال لم ترسل إلى من كان يراد إرسالها إليه. وبقى فكتور هوجو منفيا حتى هزم نابليون الثالث في ميدان القتال ونفي هو أيضا من فرنسا.

شارلت برنتي تتحدث عن موت أختها املي

[رسالتها إلى إلن نسى]

كانت شارلت برنتي وأختاها املي وآن[١] كلهن كاتبات مجيدات، خير ما خلفنه من الآثار الأدبية في اللغة الإنجليزية روايتا جين أيري[٢] لشارلت ومرتفعات وذرنج[٣] لإملي، وللأخوات الثلاث ديوان شعر اشتركن فيه جميعا.

وقد توالت المصائب على هذه الأسرة البائسة، فماتت أولا أمهن، وبعد أربع سنين من موتها ماتت اثنتان من بناتها، وفي عام ١٨٤٨ مات أخوهن بترك برانول[٤] بالسل بعد أن أدمن الأفيون والخمر، ثم مرضت املي بعد ذلك بقليل، ولكنها لم تنقطع عن الكتابة حتى يوم وفاتها، وأبت أن تعرض نفسها على الطبيب، وأخذت تغالب الموت حتى غلبها فتوفيت بعد ثلاثة أشهر من وفاة أخيها، وبعد أن وريت التراب كتبت أختها شارلت إلى صديقتها إلن نسى[٥] تقول:

— ٢٩

"ليست الآن في حاجة إلى أن ترتعد من البرد القارس والريح الصرصر العاتية"

في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٤٨

عزيزتي إلن

إم املي لا تعاني الآن شيئا من الألم أو الضعف، ولن تعاني شيئا منهما في هذا العالم بعد الآن.

---

(1)Charlotte و Emily and Anne Bronte

(2)Jane Eyre

(3)Wuthering Heights

(4)Patrick Branwell

(5)Ellen Nussy

لقد غادرته بعد كفاح شاق قصير إذ توفيت في يوم الثلاثاء، وهو اليوم الذي كتبت لك فيه، وكنت أظن وقتئذ أنها قد تبقى معنا عدة أسابيع ولكنها انتقلت إلى دار الخلد بعد بضع ساعات من ذلك الوقت. نعم إن املي لم يعد لها الآن وجود في الزمان أو المكان، فقد ورابنا جسمها الفاني الضعيف الهزيل في الثرى ونحن هادئون، ولا يزال هذا شأننا الآن؛ ولم لا نكون هادئين؟ لقد زال عنا الآن ما كنا نحس به من الألم الشديد حين نراها تعاني الآلام، وغاب عنا منظر الآلام التي عانتها في أثناء الموت، ومر يوم الجنازة، وأصبحنا نحس الآن أنها في سلام، وليست هي الآن في حاجة إلى أن ترتعد من البرد القارس والريح الصرصر العاتية، فإملي لا تشعر بشيء منهما، ولقد ماتت في وقت كانت فيه الآمال تبسم لها، ورأيناها تختطف من بيننا في ريعان الشباب، ولكن بهذا قضى الله، وإن الدار التي انتقلت إليها خير من التي غادرتها.

وحزنت شارلت على أختها حزنا شديدا، ولم تكد تجف دموعها حتى لحقتها أختها الأخرى آن بعد خمسة أشهر، وقد كتبت إلى صديقة لها تقول: "ما أشد ما أعاني حين أجلس في الحجرة وحدي أسمع دقات الساعة عالية في بيت يخيم عليه السكون، وتمر أمام مخيلتي حوادث العام الماضي، وما قاسيته فيه من صدمات وآلام وخسارة". وعاشت شارلت بعد أختيها نحو سبع سنين، وأخرجت رواية شيرلي[1] التي صورت فيها إملي أحسن تصوير، ولما كتب صديق لها في إحدى المجلات بقول إن الكتاب قد كتبته "أنثى" أرسلت إليه شارلت خطابا تؤنبه، وكان خطابها هذا مكونا من جملة واحدة هي: "إن في وسعي أن أحترس من أعدائي، ولكني أدعو الله أن ينجيني من أصدقائي".

وتزوجت شارلت في يونيه من عام ١٨٥٤، ولم يمض على زواجها إلا أقل من عام حتى توفيت هي الأخرى بالسل، ولم تبلغ هي أو إحدى أخواتها سن الأربعين.

(1)Shirley

رسالتان من أبراهام لنكلن إلى أخيه وإلى سيدة

فقدت أبناءها الخمسة في الدفاع عن البلاد

كتبت هاتان الرسالتان في عامي ١٨٤٨، ١٨٦٤؛ وهما تفصحان عن ناحيتين مختلفتين من حياة الرئيس العظيم، ففي الرسالة الأولى نرى الحكمة الدنيوية وبعد النظر؛ وفي الثانية نرى العطف ورقة الشعور، وهما معا تفصحان عما تتصف به روح رجل قال عنه أحد أصدقائه إن الحوادث صهرته فخرج منها كالذهب الخالص لا تزيده النار إلا صفاء.

وتفصح الرسالة التالية عن الناحية الشخصية الخاصة من حياة لنكلن، وهي ناحية تختلف كل الاختلاف عن العظمة الأخلاقية التي تتمثل في كثير من أقواله الشهيرة، فهو يلقي فيها على شاب من أسرته درسا في الاقتصاد والجد، وهي نموذج من التفكير الواضح السليم، والكتابة الجدية الصريحة الخالية من الالتواء والتعقيد.

كانت سلى بش لنكلن[١] زوجة أبيه تعيش وقت أن كتب هذه الرسالة في مزرعة في إلينوي[٢] إحدى ولايات الجمهورية الأمريكية، وقد كتب إليه ابنها يطلب أن يقرضه بعض المال فجاءه منه الرد التالي:

---

(1)Sally Bush Lincoin

(2)Illinois

– ٣٠
"... هيا إلى العمل بجد ..."

[٢٤ ديسمبر سنة ١٨٤٨]

عزيزي جنستن:[١]

لست أرى من الخير أن أقرضك الآن الثمانين ريالا التي طلبتها، لقد قلت لي أكثر من مرة حين كنت أقدم لك بعض العون: "إن أمورنا ستستقيم بعد الآن". ولكني أجدك ولما يمضي على ذلك القول إلا وقت قصير تواجه نفس الصعاب التي واجهتها من قبل؛ وذلك لا يحدث إلا إذا كان في سلوكك عيب. وأظن أن هذا العيب غير خاف علي؛ فأنا أعرف أنك لست كسولا بطبعك ولكنك مع ذلك لا تعمل، ولست أظن أنك بعد أن رأيتك آخر مرة قضيت يوما واحدا في عمل جدي، وأنت لا تكره العمل كرها شديدا ولكنك مع ذلك لا تعمل كثيرا، وليس لذلك من سبب إلا ما يبدو لك من أنك لا تحصل منه على أجر كبير.

ويقيني أن تلك العادة، عادة إضاعة الوقت سدى، هي أساس المشكلة كلها، ومن الخير لك ولأبنائك أن تقلع عنها، وذلك أهم لأبنائك منه إليك، لأنهم أطول حياة منك، ولأن اتقاء عادة البطالة قبل الانحدار إليها أسهل عليهم من الإقلاع عنها قبل الوقوع في شرها.

إنك الآن في حاجة عاجلة إلى المال، والرأي عندي أن تبدأ العمل بجد عند من يقدم إليك المال نظير هذا العمل.

أما شؤون الدار وما إليها فليعن بها الوالد هو وأبناؤك، ففي وسعهم أن يهيئوا الأرض ويزرعوها، وفي وسعك أنت أن تعمل عند من يقدم لك أحسن الأجور نقدا، أو أن يؤدي ما عليك من ديون. وإذ كنت أرغب في أن أضمن لك أحسن جزاء لعملك، فإني أعدك بأن أقدم لك عن كل ريال تكسبه بين هذا اليوم واليوم الأول من

---

(1)Johnston

شهر مايو، أو كل ريال يؤدي من دينك، ريالا مثله.

ومعنى هذا أنك إن عملت بعشرة ريالات في الشهر، حصلت مني على عشرة مثلها، فكسبت بذلك عشرين ريالا، ولست أقصد بهذا أن تسافر إلى سنت لويس أو إلى مناجم الرصاص أو مناجم الذهب في كاليفورنيا، بل الذي أقصده أن تعمل بجد في مكان قريب من موطنك في مقاطعة كول[1] بأحسن أجر تستطيع الحصول عليه.

فإن فعلت هذا وفيت بعد قليل بما عليك من الدين، واعتدت فوق ذلك عادة أفضل لدى من هذا الوفاء، لأنها تحول بينك وبين التورط في الدين مرة أخرى، أما إن أديت أنا دينك الآن فإنك لن تلبث أن تستدين من جديد في العام الثاني. ولقد قلت في رسالتك أنك لا تتردد في أن تبيع مكانك في الجنة بسبعين ريالا أو ثمانين! إنك إذن تبيعه بأبخس الأثمان، فأنا لا أشك مطلقا في أنك تستطيع الحصول على سبعين ريالا أو ثمانين نظير عمل تقوم به أربعة شهور أو خمسة، ثم تقول إنك مستعد لأن تكتب لي عقدا بأرضك وأن تسلمها إلي إذا لم ترد المال.

ألا ما أسخف هذا التفكير! وكيف تستطيع العيش بغير الأرض إن لم يكن في وسعك أن تعيش وهي لك، لقد كنت على الدوام تعطف علي، ولست أريد الآن أن أقسو عليك، غير أنك إذا عملت بنصيحتي وجدتها أكبر قيمة من الثمانين ريالا ثمانين مرة.

أخوك المخلص

ا . لنكلن

وليس لدينا من الوثائق ما نعرف منه هل عمل جنستن بهذه النصيحة أو لم يعمل بها، ولكن من حقنا أن نفترض أن أثرها في سلوكه كان عظيما.

---

(1)Cole County

أبراهام لنكلن يعزي مسز ليديا بكسبي في فقد خمسة من أبنائها في الحرب الأهلية

هذه الرسالة من أكثر الرسائل ذكرا في التاريخ الأمريكي، وقد وصفها أحد كبار الكتاب بقوله: "لست أعرف رسالة غيرها وصفت التضحية في سبيل قضية عظيمة، وما يبعثه التفكير في هذه التضحية من اطمئنان للنفس وراحة للضمير، مثل هذا الوصف السهل الذي يفيض عطفا وحنانا، وما من شك في أن المعين الذي ينبع منه هذا الغدير الصافي معين عميق لا ينضب". ووصفها مؤرخ آخر بأنها "قطعة من إنجيل أمريكا".

ومن الطرف أن نوازن بين هذه الرسالة ورسالة أخرى في موضوع شبيه بموضوعها يقال إن غليوم الثاني قيصر ألمانيا أرسلها إلى أم سقط أبناؤها التسعة في ميدان القتال.

فقد كتب الإمبراطور لهذه الأم الثكلى يقول: "لقد سمع جلالة الإمبراطور أنك ضحيت في هذه الحرب بتسعة من أبنائك استشهدوا في الدفاع عن أرض الوطن، وقد أرضى هذا العمل جلالته، ويسره أن يرسل إليك صورته الشمسية في إطار، موقعا عليها بإمضائه، واعترافا منه بهذه التضحية".

– ٣١

"... ألفاظ ضعيفة قليلة الجدوى ..."

واشنجتن في ٢١ نوفمبر سنة ١٨٦٤

إلى مسز بكسبي[١]، بسطن مسا.

سيدتي العزيزة

لقد اطلعت في سجلات وزارة الحرب على تقرير من مساعد القائد العام في

(1)Mrs. Lydia Bixby

ساشوستس[1] يقول فيه إنك أم لخمسة أبناء ماتوا كلهم ميتة شريفة في ميدان القتال.

وإني لأشعر أن كل الألفاظ التي أحاول أن أخادعك بها لأخفف عنك ما تقاسيه من الحزن الذي سببته لك هذه الخسارة الفادحة، إن هي إلا ألفاظ ضعيفة قليلة الجدوى؛ ولكني مع هذا أرى من الواجب علي أن أقدم لك من العزاء ما قد تجدينه في عبارات الشكر الموجهة إليك من الجمهورية التي ضحى أبناؤك بأنفسهم في سبيلها، وأدعو الله جل وعلا أن يخفف عنك ما تسببه لك هذه الخسارة من آلام، وألا يبقى منها إلا تلك الذكرى العزيزة ذكرى من أحببتهم وفقدتهم، وذلك الفخر الذي أنت جديرة به نظير ما قدمت من تضحية ثمينة على مذبح الحرية.

وتقبلي إخلاصي وإجلالي

ا . لنلكن

ولقد يدهش القراء إذا عرفوا أن المعلومات التي بلغت إلى لنكلن وحفزته إلى كتابة هذه الرسالة التي تفيض عطفا وأسى لم تكن كلها صحيحة، فقد دل البحث فيما بعد على أن مسز بكسبي قد عارضت أول الأمر في تجنيد أبنائها في الحرب الأهلية، وعلى أن أبناءها الخمسة لم يموتوا كلهم "ميتة شريفة في ميدان القتال"، فمنهم واحد يدعى هنري أسر وافتدي، وعاد إلى أمه في صحة جيدة، ومنهم ثان يدعى جورج فر إلى صفوف الأعداء، ومنهم ثالث يدعى إدوارد فر من الجندية إلى خارج أمريكا ،وأقسمت أمه أنه تطوع رغم إرادتها، وأنه كانت تنتابه نوبات متقطعة من الجنون، ولكن هذه الرسالة لم يكد يمضي على وصولها إلى تلك السيدة بضعة أسابيع حتى بعث قائد مساشوستس صورا منها إلى صحف بسطن فنشرتها ثم نقلتها عنها جميع صحف العالم.

---

(1)Massachusettes

جوزيب (يوسف) غار يبلدى يكتب إلى زوجته عن أمله في تحرير إيطاليا رغم احتقاره الشديد لمواطنيه

التقى غار يبلدى[١] وأنيتا ربراس[٢] أول مرة في البرازيل. وكتب غار يبلدى عن هذا اللقاء في مذكراته يقول: "ظللنا كلانا مبهوتين مأخوذين صامتين، ينظر كل منا إلى الآخر كأنا شخصان لا يلتقيان لأول مرة، ويبحث كل منهما في وجه صاحبه عن شيء يعينه على تذكر الماضي المنسي".

وكان غار يبلدى قد اضطر إلى الفرار من بلده لأنه ساعد ماتزيني[٣] في ثورته، فجاء إلى البرازيل وقاد فيها الأحزاب الثائرة المطالبة بالحرية، وكانت أنيتار براس فتاة برازيلية طويلة القامة سمراء اللون، جريئة مقدامة. وكان والدها يعتزم تزويجها إلى شاب اختاره لها، ولكنها لم تكد تلتقي بغار يبلدى حتى انفصمت تلك الرابطة القديمة ولم يبق لها أثر، ففر بها في ظلام الليل في سفينته الخاصة بحماية مدافعه وأصدقائه.

وكانت أنيتا فارسة تجيد ركوب الخيل، فخاضت المعارك إلى جانبه وتعرضت معه لأشد الأخطار، وولدت أطفالا في البراري الموحشة، وقد قبض عليها أهل البرازيل مرة في إحدى المواقع فطلبت إلى الأعداء أن يسمحوا لها ببحث جثث القتلى لأنها تخشى أن يكون زوجها من بينهم، وبعد أن قبلت هذه الجثث واحدة بعد واحدة ولم تعثر فيها على جثة زوجها، فرت من الأمر بحيلة ماهرة وظلت أربعة أيام تعدو على ظهر جوادها في وسط الغابات الاستوائية من غير ما طعام ولا شراب، تسبح أحيانا في مياه الأنهار الجارفة التيار، وتعرض نفسها لقوى الأعداء، حتى نجت والتقت بغار يبلدي. وقد قال عنها بعدئذ "إن أنيتا كنز لا تقدر قيمته، وليست هي أقل مني غيرة

(1)Quiseppe Garibaldi

(2)Anita Riberas

(3)Mazzini

على قضية الأمم المقدسة".

ولما سمع غار يبلدي بأن ثورة جديدة نشبت في إيطاليا غادر البرازيل إلى بلاده فوصلها في عام ١٨٤٨، وسرعان ما لحقت به أنيتا وسائر أسرته، وبدأ حملته الشهيرة لتحرير إيطاليا مع متطوعي الثلاثمائة الذائعين الصيت، وقد كتب في أثناء زحفه إلى زوجته ينبئها بتقدمه:

– ٣٢

"... لقد أصبح اسم إيطاليا سخرية العالم وموضع ازدرائه .."

سبيا كو في ١٩ إبريل سنة ١٨٤٩ :

عزيزتي أنيتا

أكتب إليك لأبلغك أني بخير، وأني أزحف على أنانيي[١]مع كولنا[٢]، وأغلب الظن أني سأبلغها غدا، وليس في مقدوري الآن أن أخبرك كم من الزمن أمكث فيها.

سأتسلم في أنانيي البنادق وسائر لوازم الجد، ولن يستريح لي بال حتى أتلقى رسالة منك تؤكد لي أنك وصلت سالمة إلى نيس[٣]. فاكتبي إلي من فورك إذ لا بد أن تصلني أخبار منك يا أنيتا يا أحب الناس إلي، وعرفيني عن أثر حوادث جنوا وتسكانا[٤] في نفسك أيتها المرأة القوية الشجاعة! ولا يخالجني شك في أنك تنظرين بعين الازدراء إلى هذا الشعب الإيطالي المخنث، أي إلى مواطني هؤلاء الذين حاولت أن أبث فيهم روح العظمة، وهم غير أهب لها، ولست أنكر أن الخيانة قد قضت على كل ثورة تأججت في البلاد نارها، ولكن مهما يكن من ذلك الأمر فقد جللنا العار، وأصبح اسم إيطاليا سخرية العالم وموضع ازدرائه.

---

(1)Anagni

(2)Colonna

(3)Nice

(4)Toscana

ألا ما أشد أسفي لأني ولدت من أسرة أخرجت هذا العدد الجم من الجبناء، ولكن لا تظني أن هذا قد ذهب بشجاعتي ففقدت الأمل في مستقبل بلادي، كلا إن أملي الآن أعظم منه في أي وقت مضى؛ إن في وسع الإنسان أن يلوث شرف الفرد ثم ينجو من طائلة العقاب، ولكنه لا ينجو من القصاص إذ لوث شرف أمة. وقد عرفنا الخونة، ولا يزال قلب إيطاليا ينبض بدم الحياة، وقد لا يكون ذلك القلب سليما، ولكنه مع ذلك قادر على أن يطرد جراثيم الداء التي كانت سبب هذه الأسقام المضنية.

لقد أفلحت الرجعية في إرهاب الشعب بما استخدمته من أساليب الغدر والنذالة، ولكن مع هذا الشعب لن ينسى غدر الرجعية ونذالتها! وإذا ما سكن روعه فلن يلبث أن يثور ثورة كقطع الليل تقضي على الجبان الذي كان سببا في إذلاله. أرجوك أن تكتبي إلي مرة أخرى، فلا بد لي أن أتلقى أخبارك وأخبار أمي وأطفالي، ولا تشغلي بالك مرة أخرى فإني الآن أحسن مما كنت في أي وقت مضى، وأرى أني أنا وأتباعي المائتين والألف المسلحين قوم لا يقهرون. وروما تتمثل لنا الآن في صورة رهيبة رائعة، والأبطال الآن كلهم بجوارها، والله معنا وإلى اللقاء.

جوزيب

وبعد أحد عشر يوما من ذلك الوقت دارت معركة روما ونال غار يبلدي في الدفاع عنها نصرا مؤزرا؛ ومع أنه جرح في بداية الواقعة فقد ظل طول النهار على ظهر جواده يخوض غمار الحرب، ولما سقطت رومة بدأ هو وأتباعه ارتدادهم الشهير إلى مدينة البندقية، ومن ورائهم الجيوش الفرنسية والإسبانية وجيوش نابلي، ولكنهم نجوا منها كلها بين التلال والمستنقعات.

وصحبت أنيتا زوجها في هذا الارتداد العظيم تعنى بالجرحى، وتبعث الأمل في قلوب الجنود، وهي على ظهر جوادها إلى جانب زوجها، ثم مرضت فجأة وخارت

قواها، وطلبت شربة ماء فلم تجدها، ولما وصلت مع القوة إلى مستنقعات رافنا[1] عجزت عن مواصلة السير، وأسلمت الروح بين ذراعي زوجها.

وحزن عليها غار يبلدي أشد الحزن، وكتب بعد موتها يقول: "لقد عثرت على كنز عزيز المنال، وهو كنز لا يستطاع تقدير قيمته ... لقد ألف الحب بين قلبينا ... ولما حاولت عبثا أن أعيد إليها الحياة وأمسكت بيدها في ذلك اليوم المشئوم كنت أمسك بيد جثة هامدة، وفاضت دموع اليأس من عيني، وعرفت وقتئذ الذنب الذي ارتكبته، لقد أذنبت ذنبا عظيما ولكنني أذنبت وحدي.

(1)Ravenna

دستويفسكي يصف شعوره حين لم يكن بينه وبين الموت إلا دقيقة واحدة

[رسالته إلى أخيه ميهيل]

لم يكتب دستويفسكي[1] رواياته الشهيرة إلا بعد أن مضت عدة سنين على الحوادث المثيرة التي تصفها هذه الرسالة، وكان دستويفسكي في سني حياته الأولى قد اشترك مع طائفة من شبان الروس المتطرفين في دراسة كتابات الاشتراكيين الفرنسيين والطرق التي اعتزموا أن يسلكوها لإصلاح نظم الحكم في بلادهم. ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره نشر أول كتبه "الفقراء" وفي عام ١٨٤٩ حين بلغ الثامنة والعشرين قبض عليه وهو وجماعة من رفاقه واتهموا بالتآمر على قلب نظام الحكم وصدر عليهم الحكم بالإعدام، وقبل أن ينفذ فيهم الحكم بلحظات قليلة أبلغوا أنه قد استبدل به النفي والسجن، وتركت هذه الثواني القلائل التي كان فيها دستويفسكي بين الحياة والموت أثرها البالغ في حياته، ونحن نراه في الرسالة التالية التي كتبها إلى أخيه بعد يوم واحد من هذه المأساة يحدثه كأنه إنسان مسجون يوشك أن ينفذ فيه حكم الإعدام قد بعث حيا من بين الأموات:

– ٣٣

"... هي علينا جميعا حكم الإعدام ..."

من قلعة بطرس وبولس

في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩

ميهيل ميهيلوفتش دستويفسكي[2]

أخي، صديقي العزيز! لقد انتهى كل شيء، وحكم علي بالأشغال الشاقة في

(1)Dostoevsky

(2)Mihail Mihailovich

القلعة (وأعتقد أنها قلعة أرنبرج[١]) أربع سنين، أعود بعدها جنديا بسيطا، وفي هذا اليوم الثاني والعشرين من ديسمبر أخذنا إلى ساحة التدريب في سمينوف[٢] حيث تلي علينا جميعا

حكم الإعدام، وأمرنا أن نقبل الصليب، وكسرت سيوفنا فوق رؤوسنا، واتخذنا زينتنا الأخيرة (ارتدينا قمصانا بيضا) ...، ثم شد ثلاثة منا إلى العمود لينفذ فيهم الحكم.

وكنت أنا سادس الجماعة، وكان كل ثلاثة منا ينادون معا، ولما كنت أنا سادسهم فقد كان دوري إذن في المجموعة الثانية، ولم يكن باقيا من حياتي أكثر من دقيقة واحدة.

وذكرتك وقتئذ يا أخي، وذكرت كل أسرتك؛ ولم يكن في ذاكرتي في الدقيقة الأخيرة إلا أنت، أنت وحدك؛ ولم أتبين إلا في تلك اللحظة مقدار حبي لك أيها الأخ العزيز! واستطعت فيها أيضا أن أعانق بلشجيف[٣] ودوروف[٤]، وكانا وقفين بجواري، وأن أودعهما الوداع الأخير، ثم صدر إلينا الأمر بالرجوع، وحل وثاق الذين كانوا مشدودين إلى العمود، وبلغنا أن صاحب الجلالة الإمبراطورية قد وهبنا الحياة، ثم قرئت علينا الأحكام الحالية، فوجدنا أنه لم يعف عن غير بام[٥] وأنه سيعود إلى الجيش برتبته القديمة.

وقد نبئت الآن أيها الأخ العزيز أننا سننقل من هذا المكان غدا أو بعد غد، وطلبت أن أراك ولكني أبلغت أن هذا مستحيل، ولم يسمحوا لي إلا بأن أكتب إليك هذه الرسالة، فعجل بالجواب قدر ما تستطيع.

---

(1)Orenburg

(2)Semionof

(3)Pleschegev

(4)Durov

(5)Palm

وأخشى أن تكون قد عرفت بطريقة ما أنه قد حكم علينا بالإعدام، لقد أبصرت من عربة السجن. ونحن مساقون إلى ساحة التدريب في سمينوف، جمعا غفيرا من الناس، ولربما كان الخبر قد نقل إليك فتألمت من أجلي، ولكنك الآن سيهدأ روعك من جهتي.

وثق يا أخي أني لم أكتئب، ولم يضعضعني الحزن، فالحياة هي الحياة حيثما نكون، وليست الحياة فيما هو خارج عنا بل هي في نفوسنا؛ وسيكون بالقرب مني خلائق، وما الحياة إلا في أن تكون إنسانا بين الناس، وأن تبقى إنسانا أبد الدهر، فلا تبتئس ولا تستسلم للمصائب التي تصادفك .. تلك هي الحياة وهذا هو واجب الإنسان فيها، لقد أدركت هذا وتغلغل في لحمي وفي دمي.

أجل إنه لحق! إن الرأس الذي كان يبتدع ويحيا أسمى حياة الفن، والذي عرف أعلى حاجيات الروح وتعودها، إن هذا الرأس قد فصل عن جسمي، ولم تبق إلا ذكراه، وإلا الصور التي ابتدعها، وإن كانت هذه الصور لم تتجسد بعد، نعم إنهم سيمرقون جسدي، ولكني سيبقى لي قلبي، وسيبقى لي ذانك اللحم والدم اللذان يستطيعان أن يحييا ويتألما ويرغبا ويذكرا، وليست الحياة آخر حبا وألما ورغبة وذكرى، إني أرى الآن ضوء الشمس! وداعا يا أخي! لا تحزن علي.

والآن فلأحدثك عن الأشياء المادية. فأما كتبي (عدا الكتاب المقدس الذي لا أزال أحتفظ به) وعدة صحائف من مخطوط لي ومشروع أولي لمسرحية ورواية، و"قصة الطفل" كاملة، فقد أخذت مني، وأكبر الظن أنها ستصل إلى يديك. وسأترك أيضا معطفي وثيابي القديمة، فإذا شئت فأرسل في طلبها، وقد أضطر يا أخي إلى السير على قدمي مسافة طويلة، وسأحتاج إلى بعض المال، فإذا وصلك يا أخي العزيز خطابي هذا واستطعت أن تحصل على شيء من المال فأرسله من فورك، ذلك أني الآن أحوج إلى المال مني إلى الهواء (وذلك لحاجة في نفسي)؛ وابعث إلي أيضا ببضعة أسطر؛ وإذا وصلك المال من مسكو – فأذكرني ولا تبخل علي – هذا كل ما أرجوه.

إن علي ديونا[١] ولكن ماذا عسى أن أفعل؟.

قبل لي زوجتك وأبنائك، وذكرهم بي على الدوام، ولا تجعلهم ينسوني، ولعلنا نلتقي يوما ما؛ وعليك يا أخي أن تعنى بنفسك وأسرتك، وأن تكون في حياتك هادئا يقظا، وأن تفكر في مستقبل أبناءك.

عش عيشة العاملين، أما أنا فلم أحس قط بمثل ما أحس به الآن من الحياة الروحية السليمة الموفورة، ولكن ترى هل يطيق جسمي هذه الحياة؟ لست أدري. إني أسافر وأنا مريض أشكو داء العقد الخنازيرية؛ ولكن لا يهمك هذا يا أخي فقد قاسيت في الحياة ما قاسيت ولم يعد فيها ما يروعني مهما يأت الزمان به.

وسأرسل إليك أخباري في أول فرصة تسنح لي، بلغ آل ميكوف وداعي وتحياتي الأخيرة، وقل لهم إني أشكر لهم جميعا دوام اهتمامهم بأمري، واذكرني بأحسن ما تستطيع وبقدر ما يوحيه إليك قلبك – عند يوجينا بترفنا[٢]. إني أتمنى لها موفور السعادة، وسأذكر اسمها على الدوام مقرونا بالإجلال والشكر، وبلغ تحياتي إلى كل من لم ينسني وإلى من نسيني أيضا.

وقد نتلاقى يا أخي في يوم من الأيام! فأوصيك أن تعنى بنفسك، وأستحلفك بالله أن تحيا حتى نلتقي، ولعلنا نتعانق يوما من الأيام، ونذكر أيام الشباب، تلك الأيام السعيدة التي ولت – نذكر شبابنا وآمالنا التي أنتزعها هي ودمي في هذه الساعة من قلبي لأدفنها جميعا.

وهل قدر علي ألا أمسك بيدي قلما بعد الآن؟ أظن أني قد تتاح لي هذه الفرصة مرة أخرى بعد السنين الأربع، وسأرسل إليك حينئذ كل ما أكتبه – إذا كتبت شيئا – أي إلهي كم من الخيالات تملأ نفسي، قد ابتكرتها ابتكارا، ستفنى أو تنطفئ

(١) إن كان دستوفيسكي مدينا به لكريفسكي Krayevsky قد أداه من أرباح كتابه "قصة طفل".

(٢) يوجينيا بترفنا Eurgenia Petrovna أم الشاعر أبلون ميكوف Appollon Maikof صديق دستويفسكي

جذوتها من عقلي، أو تسري في دمي سما زعافا! أجل إنني سوف أفنى إذا لم يسمح لي بالكتابة، وإن خمسة عشر عاما أقضيها سجينا وقلمي في يدي لخير لدي من هذه الحال!

أكتب إلي أكثر مما كتبت حتى الآن، وأكتب إلي تفاصيل أوفى وحقائق أكثر وأكثر، وأكتب في كل رسالة عن كل شيء، عن شئون الأسرة كلها ولا تنس أتفه الأمور، إن هذا هو الذي يبعث في الأمل والحياة، ليتك تعرف ما كان لرسائلك من الأثر في نفسي وأنا في القلعة، لقد بعثت في الحياة من جديد! وكان الشهران الأخيران والنصف الشهر الأخير من أقسى ما مر علي من الأوقات، لأني حرم علي فيها أن أكتب إلى أحد أو أن أتلقى رسائل من أحد، وقد مرضت وضايقني كثيرا عدم إرسالك لي مالا من آن إلى آن، واكتئبت من أجلك أيما اكتئاب، لأن معنى هذا أنك أنت نفسك في حاجة شديدة إلى المال! قبل لي الأطفال مرة أخرى؛ إن وجوههم الصغيرة الجميلة لا تفارق مخيلتي، وكم ذا يسرني أن يكونوا سعداء، وكن سعيدا أنت أيضا يا أخي، كن سعيدا.

ولكن بالله لا تحزن – لا تحزن علي وثق أني لم أبتئس، وأن الأمل لم يفارقني، وسيكون مصيري بعد أربع سنين أحسن بعض الشيء مما هو الآن، فسأكون وقتئذ مجندا بسيطا لا سجينا، ولا تنس أني سوف أعانقك يوما ما، لقد قضيت اليوم ثلاثة أرباع الساعة بين مخالب الموت، وكانت هذه فكرة هي التي تسيطر على عقلي في تلك الفترة، حتى وصلت إلى اللحظة الأخيرة من حياتي، وها أنا ذا أحيا من جديد!

وإذا كان أحد يذكر أني أسأت إليه، وإذا كنت قد تنازعت مع أحد، وإذا كان عمل من أعمالي قد ترك أثرا سيئا في نفس أي إنسان، فأطلب إليهم أن ينسوه إذا استطعت أن تلتقي بهم، أما أنا فليس في نفسي غل من أحد أو حقد على أحد، وليس أحب إلى نفسي في هذه اللحظة من أن أعانق صديقا من أصدقائي القدامى، إن في هذا راحة جربتها اليوم بنفسي حين كنت أودع أصدقائي الأعزاء قبل موتي، وكنت في تلك اللحظة أعتقد أن خبر إعدامي سيقضي عليك لا محالة؛ أما الآن

فطب نفسا لأني لا أزال حيا، وسأحيا في المستقبل وكلي أمل في أن أعانقك يوما ما، وليس في عقلي شيء غير هذا.

وماذا تفعل أنت الآن؟ وماذا كنت تفكر فيه طول هذا اليوم؟ هل تعلم عنا شيئا؟ ما أشد البرد اليوم!

آه! ليت رسالتي تصلك بسرعة! إنها إن لم تصلك مسرعة قضيت أربعة أشهر كاملة لا أعرف فيها شيئا من أخبارك، ولقد اطلعت على الغلاف الذي بعثت إلي فيه المال في الشهرين الأخيرين. وكان عنواني مكتوبا بخطك، فسرني أنك بخير.

إن قلبي يتقطر دما كلما عدت بذاكرتي إلى الماضي، وعرفت كم من الوقت أضعته سدى، وكم منه ضاع في الأوهام الباطلة، وفي الأخطاء، وفي التراخي والكسل، وفي الجهل بأساليب الحياة الحقة، وكلما ذكرت أني لم أعرف للوقت قيمة وأني كثيرا ما أخطأت في حق قلبي ونفسي، إن الحياة هبة، وإن الحياة سعادة، وكل دقيقة منها يستطاع جعلها دهرا من السعادة، آه لو عرف الشباب! والآن وقد بدلت حياتي أراني قد ولدت في صورة جديدة، أقسم لك يا أخي أني لن أفقد الأمل، وأني سأحتفظ بطهارة روحي وقلبي، سأولد من جديد لأضطلع بواجب خير مما اضطلعت به، ذلك هو رجائي كله وسلوتي كلها!

إن حياة السجن قد قضت على كل ما كان غير طاهر ونقي من مطالب الجسد؛ إني لم أكن أعنى بأمر نفسي من قبل، أما الآن فلا آبه بالحرمان ، ولذلك أرجو ألا تظن أن الصعاب المادية ستقضي علي، كلا إن هذا لن يكون! آه ما أحسن الصحة!

وداعا يا أخي وداعا، متى أكتب إليك بعد الآن؟ سيصلك مني وصف لرحلتي واف بقدر ما أستطيع، وإذا استطعت أن أحتفظ بصحتي فستجري الأمور كلها على ما أحب.

وداعا يا أخي وداعا! إني أعانقك على البعد وأقبلك، وأرجو أن تذكرني بقلب خالص من الألم، وأرجوك ألا تحزن، لا تحزن علي، وسأخبرك في رسالتي التالية عن

حالي، ولا تنس إذن ما قلته لك، ورتب شئون حياتك ولا تضيعها عبثا، ونظم أمر مستقبلك، وفكر في أطفالك، آه هل من سبيل إلى أن أراك؟ أن أراك. وداعا. إني الآن أنتزع نفسي من مكان ما كان عزيزا لدي، إن ذلك مؤلم دون شك! مؤلم أن أقسم نفسي قسمين وأن أقطع قلبي قطعتين، وداعا وداعا! ولكني سأراك وأنا واثق من ذلك كل الثقة — وأرجو أن يكون، لا تتغير وأحبني، ولا يفتر حبك لي، وسيكون تفكيري في حبك إياي خير ما أعتز به في حياتي، وداعا! وداعا! مرة أخرى. وداعا لكم جميعا.

أخوك

فيودور دستويفسكي

في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٩

لقد استولوا على بعض كتبي حين قبض علي، ولم يكن فيها ما يحرم القانون اقتناءه إلا كتابان، فهل تستطيع أن تحصل على ما بقى منها لنفسك؟ لي رجاء واحد: إن واحدا منها من مؤلفات فليرين ميكوف[1]، وهو مقالاته الانتقادية، والنسخة التي كانت عندي منه ملك يوجينا بترفينا. ولقد كانت تعتز بها ولكنها أعارتني إياها، فلما قبضوا علي سألت الضابط أن يرد الكتاب إليها، وأعطيته عنوانها، ولست أدري هل وصلها الكتاب أو لم يصلها، فتحر أنت عن هذا، لأني لا أحب أن تفقد يوجينيا هذا التذكار.

أخوك

ف . دستويفسكي

(1)Valerian Maikov

وقد كتب على هامش الرسالة ما يأتي:

لست أعرف هل أقطع المسافة سيرا على الأقدام أو هل أقطعها على ظهور الخيل، لكني أظن أني سأركب الخيل، ربما كان ذلك.

أطلب إليك مرة أخرى أن تبلغ تحيتي إلى إملي فيودورفا[١]، وأن تقبل الأطفال، وأن تسلم على كريفسكي: ربما ..

أكتب إلي بتفصيل أوفى عن حادث القبض عليك وحبسك وإطلاق سراحك.

وبعد أن قضى دستويفسكي في السجن أربع سنين خفف عنه الحكم، ولكنه يشير مرارا وتكرارا في أعظم مؤلفاته إلى ما قاساه من شدة في عام **١٨٤٩** كما تدل على ذلك أسماء ثلاث من أشهر رواياته: "دار الموت" **١٨٦١** و "ذكريات من تحت الأرض" **١٨٦٤** و"الجريمة والعقاب" **١٨٦٦**

---

(1)Emily Fiodorovna

تشارلس دكنز يبلغ زوجته نبأ وفاة ابنتهما الصغيرة

في عام ١٩٣٩ نشرت لأول مرة عشرة آلاف رسالة لتشارلس دكنز تحتوي فيما تحتويه من رسائل الكاتب القصصي الكبير على الرسالة التالية التي بلغ فيها زوجته نبأ وفاة ابنتهما.

وكان فراغ دكنز من روايته الشهيرة "دافد كير فيلد[١]" في السنة السابعة والثلاثين من عمره إيذانا بانقضاء أسعد أيام حياته.

كان دكنز كاتبا حلو الفكاهة، خصب الخيال، موفور الإنتاج، واثقا من النجاح، سعيدا في زواجه، وأبا لأسرة كبيرة، ثم تبدلت الحال غير الحال فمات والده، ومرضت زوجته وابنته التاسعة الطفلة دورا[٢]. والرسالة الواردة هنا تعبر عن مأساة مزدوجة، فقد كانت دورا الصغيرة مريضة في الدار، وكانت زوجته مريضة في مكان آخر بعيد؛ وبينما هو ذات ليلة يرأس حفلة تقام لبعض الممثلين، إذ جاء رسول من بيته يطلب صديقه جون فورستر[٣] من هذا الاجتماع، لينقل نبأ وفاة الطفلة إلى أبيها، فلما عاد فورستر إلى الاجتماع كان دكنز يخطب في المجتمعين قائلا: "لقد جاء الكثيرون ... من جوار المرضى المعذبين، بل جاءوا من جانب الموتى، ليقوموا بتمثيل أدوارهم أمامنا، وليس ذلك مقصورا على الممثلين دون غيرهم، فإن الكثيرين منا يضطرون في معظم الأحوال إلى أن يقاوموا شعورهم، ويكتبوا ما تنطوي عليه قلوبهم، وهم يكافحون في سبيل الحياة، إذا أرادوا أن يؤدوا واجبهم، ويتحملوا في شجاعة ما يلقيه عليهم هذا الواجب من تبعات".

وفي اليوم التالي أبلغ دكنز النبأ إلى زوجته المريضة المنهوكة القوى بهذه الرسالة الرقيقة المحزنة:

---

(1)David Copperfield

(2)Dora

(3)John Forster

- ٣٤ -
"إذا قرأت هذه الرسالة على مهل"

في صباح الثلاثاء ١٥ من إبريل سنة ١٨٥١

عزيزتي كيت. عليك أن تقرئي هذه الرسالة بعناية فائقة وبطء شديد، وإذا كنت قد أسرعت في قراءة ما مضى منها من غير أن تفهمي ما تنطوي عليه حق الفهم (وأن تتوقعي أنباء غير سارة) فعودي إلى قراءتها من جديد.

لقد أصيبت دورا الصغيرة بمرض فجائي وإن كانت لا تشكو أقل ألم، ولا يبدو عليها إلا الراحة التامة — حتى لتظننين أنها نائمة نوما هنيئا؛ ولكنني واثق من أنها مريضة أشد المرض، ولا أرى ما يشجعني على الأمل في شفائها، ولست أظن (ولم أقول لك يا عزيزتي إني أظن) أن شفاءها من الأمور المتوقعة.

ولست أريد أن أبرح المنزل وإن كان وجودي به لا غناء فيه، ولكنى أرى واجبا علي أن أبقى حيث أنا، ويقيني أنك لا ترغبين في البقاء بعيدة عن المنزل، ونفسي لا تطاوعني على أن أبعدك عنه، وسيحمل إليك فوستر، وقلبه ملئ بحبنا كعادته، هذه الرسالة؛ وسيأتي بك إلى منزلنا، وليس في وسعي أن أختمها من غير أن أرجوك أشد الرجاء، وألح عليك، أن تحضري وأنت هادئة غاية الهدوء .

وأن تذكري ما قلته إليك مرارا من قبل، وهو أننا لا نستطيع أن نطلب لأنفسنا النجاة من الأحزان التي تصيب غيرنا من الآباء، وكيف نطلب هذا وأبناؤنا كثر؟ ولو أنني اضطررت أن أقول لك حين تحضرين إن "ابنتنا الصغيرة قد توفيت"، لكان عليك حتى في هذه الحال أن تقومي بواجبك نحو سائر الأطفال، وأن تثبتي أنك جديرة بالأمانة الكبرى التي تحملينها بوصفك أما لهم.

ولست أشك مطلقا في أنك لن تخطئ الواجب عليك إذا قرأت هذه الرسالة على مهل وفي هدوء واطمئنان.

ولك خالص الحب

تشارلس دكنز

ثم عرف العالم بعد سنين كثيرة من تاريخ هذه الرسالة أن زواج تشارلس دكنز وكترين هوجارث دكنز[١] لم يبق إلى آخر أيامهما زواجا موفقا سعيدا، فقد افترق الزوجان في عام ١٨٥٨ بعد اثنين وعشرين عاما من زواجهما، وبعد عام واحد من وقوع تشارلس في هوى ممثلة شقراء تدعى إلن ترنان[٢].

وحدث في اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٩٢٩ أن توفيت مسز كيت برجيني[٣]، الابنة الثالثة لتشارلس وكترين دكنز، في التاسعة والثمانين من عمرها، وتركت لكتاب سيرتها التصريح الخطير التالي:

لقد أحببت أبي أكثر من حبي لأي إنسان آخر في العالم، ولكنني أحببته من أجل أخطائه ... فلقد كان رجلا خبيثا .. رجلا جد خبيث ...".

---

(1)Catherine Hogarth Dickens

(2)E L e n Ternan

(3)Mrs Kate Perugini

تومس بابنجتن مكولي[١] ينظر إلى المستقبل ويتنبأ بأن الجمهورية الأمريكية سيقضي عليها البرابرة في القرن العشرين

[رسالة إلى هنري س . رندال][٢]

في الثمن عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٣٧ أشار الرئيس فرانكلن د. روزفلت[٣] إلى نبوءة غريبة وردت في رسالة لتومس بابنجتن مكولي كتبها في عام ١٨٥٧ عن مستقبل الديمقراطية في أمريكا، وسرعان ما انتشرت هذه الرسالة التي كان الناس قد نسوها، واحتلت الصفحات الأولى من الصحف اليومية، وطغت على أهم الأخبار والأحداث السياسية وقتئذ.

أما كاتبها لورد مكولي فكان أعظم المؤرخين الإنجليز في القرن التاسع عشر، وكان مكولي ابن رجل من أعظم أنصار تحرير الرقيق، وقد بدأ وهو في الثامنة من عمره يكتب تاريخا للعالم، وانضم مكولي إلى الحركة القائمة في إنجلترا لتحرير الرقيق وناصر حركة الإصلاح البرلمانية التي قامت في عام ١٨٣٣. ودخل البرلمان في سن الثلاثين، وأضاف إلى شهرته الكتابية والانتقادية شهرة خطابية وسياسية، ثم خصص الجزء الأكبر من وقته لكتابة التاريخ، وأصبح أحب المؤرخين إلى قلوب الإنجليز إذا استثنينا جبن[٤].

---

(1)Thoms Babington Macaulay

(2)Henry S. Randall

(3)President Franklin Roovsevelt

(4)Gibbon

– ٣٥

"إن دستوركم كله شراع وليست له مرساة ..."

[٢٣ مايو سنة ١٨٥٧].

هلي بدج، كنز نجتن، لندن[١].

سيدي العزيز:

لقد أدهشتك أن تعرف بأن ليس للمتر جفرسن في نظري مكانة كبيرة، وإن دهشتك هذه لتدهشني ... وأنا واثق من أني ... لم أحظ قط سطرا، ولم أنطق قط بكلمة يفهم منها أني أريد أن تكون السلطة العليا في الدولة في يد أغلبية أهلها أي في يد أفقر طوائف المجتمع وأكثرها جهلا.

لقد اقتنعت من زمن بعيد بأن النظم الديمقراطية الخالصة ستقضي إن عاجلا أو آجلا على الحرية أو المدنية أو عليهما معا ...

ولست أشك مطلقا في أن هذه ستكون النتيجة المحتومة لو أننا في هذه البلاد كانت لنا حكومة ديمقراطية خالصة ... وقد يخيل إليك أن بلادكم بمنجاة من هذه الشرور ...

أما أنا فإني أرى غير هذا الرأي. إني أعتقد أن مصيركم محتوم ومقرر وإن أخرته أسباب طبيعية لا يد لكم فيها. فما دامت لديكم أرض خصبة واسعة غير مأهولة فإن الطبقة العاملة في بلادكم ستكون أرغد عيشا من الطبقة العاملة في الدنيا القديمة، وما دامت هذه هي الحال فإن سياسة جفرسن[٢] قد تظل قائمة دون أن تؤدي بالبلاد إلى كارثة مدلهمة.

ولكن سيأتي الوقت الذي تصبح فيه إنجلترا الجديدة غاصة بالسكان كإنجلترا

---

(1)Holly Lodge, Kensington London,

(2)Jefferson

القديمة فتنخفض الأجور في الأولى كما هي منخفضة في الثانية، وتتقلب في بلادكم كما تتقلب في بلادنا، وستكون لديكم مدن كمنتستر وبرمنجهام؛ وما من شك في أن هذه المدن ستحتوي أحيانا آلاف العمال المتعطلين. وسيكون هذا محك النظم القائمة في بلادكم، إن الفاقة أينما وجدت تثير ثائرة العامل وسخطه وتفتح أذنيه لسماع المحرضين الذين يقولون له إن من الظلم الفاضح أن ينعم رجل بالثروة الطائلة، ولا يجد آخر ما يسد به رمقه.

... ولست أنكر أن الناس في بلادنا يتذمرون، أو أنهم في السنين العجاف قد يصخبون، لكن ذلك لا يهمنا في كثير أو قليل لأن ضحايا هذه الحال ليسوا هم الحكام. ذلك أن السلطة العليا في هذه البلاد في يد طبقة كثيرة العدد من غير شك ولكنها طبقة مصطفاة، طبقة متعلمة، طبقة تعلم حق العلم أن مصلحتها في حماية الملك وحفظ النظام، فهي لذلك تكبح جماح الساقطين في قوة ولكن في رفق، وتمر الأزمات من غير أن تغتصب أموال الأغنياء لتخفيف الضنك عن الفقراء، ولا تلبث موارد الثروة القومية أن تفيض من جديد، فينعم بالرخاء، ويكثر العمل، وترتفع الأجور، ويسود الهدوء وتعم البهجة جميع الأهلين ...

... وليس في وسعي أن أغض الطرف عن أسوأ النذر، إني لقوي الاعتقاد بأن حكومتكم ستعجز كل العجز عن كبح جماح الأغلبية البائسة الساخطة ... وسيأتي اليوم الذي تقوم فيه طائفة من الناس، ولم يجد أحد منهم ما يكفي فطوره، أو لا يتوقع أحد منهم أن يجد ما يكفي عشاءه، تقوم فيه هذه الطائفة باختيار الهيئة التشريعية في البلاد.

وحينئذ ترون في ناحية سياسيا يخطب في الناس يدعوهم إلى الصبر واحترام الحقوق المكتسبة، وفي الناحية الأخرى مهرجا شعبيا يندد باستبداد الممولين ... ويسأل الناس كيف يسمح لرجل أن يشرب خمرا ويركب عربة، في الوقت الذي لا يجد فيه كثيرون من أشراف الناس ضروريات الحياة، وأخوف ما أخافه أن تقدموا في مثل تلك الأوقات الشديدة على أعمال تمنع عودة الرخاء، وأن تملوا كما يعمل الذين

إذا أسنتوا أكلوا كل ما لديهم من بذور القمح، فلا يكون عامهم الثاني عام قلة وشدة فحسب بل يكون عام قحط وجدب ... وأي شيء يحول بينكم وبين هذا المصير؟ إن دستوركم كله شراع وليست له مرساة، وليس أمامكم إلا واحدة من اثنتين: فإما أن يقوم بينكم رجل مثل قيصر أو نابليون يقبض على أزمة الحكم بيد من حديد، وإما أن ... يقضي البرابرة على جمهوريتكم في القرن العشرين كما قضوا على الدولة الرومانية في القرن الخامس.

توكس بابنجتن مكولي

وقد علق الرئيس روزفلت على هذه الرسالة بقوله: "ومعنى هذا أن مكولي كان يعارض فيما نسميه الحكومة الشعبية، ذلك يا سادتي هو خير مثل يضرب لصيحات الذعر التي ترتفع اليوم من الأمريكيين الذين يعتنقون آراء لورد مكولي – مع شدة احترامي للورد نفسه، فهم يقولون لكم إن أمريكا تندفع مسرعة نحو خطتين كلتاهما شر من الأخرى، وهما الطغيان في ناحية والفوضى في ناحية أخرى، أما المرساة التي يريدون أن ينقذوا بها سفينة الدولة فهي مرساة مكولي ... السلطة العليا ... في يد طبقة كثيرة العدد من غير شك، ولكنها طبقة مصطفاة، طبقة متعلمة، طبقة تعلم حق العلم أن مصلحتها في ضمان الملك وحفظ النظام".

وقد قال أحد المعلقين على ما قاله الرئيس روزفلت خاصا بهذه الرسالة "إن خير ما يرد به على أقوال مكولي هو ماضي حكومة الولايات المتحدة لا مستقبلها، وأضاف إلى ذلك أن تاريخ الجمهورية الأمريكية والديمقراطية الأمريكية من عام ١٨٥٧ إلى عام ١٩٣٧ هو خير رد على نبوءة لورد مكولي". وقال معلق آخر إن "الديمقراطية لم تخفق كما لم تخفق المسيحية. وكل ما في الأمر أنها لم تجرب على حقيقتها ..." وإن "العلاج الوحيد لمساوئ الديمقراطية هو التوسع في النظم الديمقراطية ...".

شارل بودلير[١] يندم على سوء سلوكه

[رسالته إلى والدته]

كان بودلير شاعرا عظيما، اتخذ عبادة الشيطان دينا له، نعني أنه كان كذلك في نظر الجماهير. أما حقيقة أمره فإنه كان كاسوليكيا يلوم نفسه أشد اللوم على شروره وآثامه، وكان رجلا غريب الأطوار يسير في شوارع باريس ينطق بأقوال غريبة عن الموت وعن القتل، ويصبغ شعره باللون الأخضر، ويأكل الحشيش، ويعيش مع امرأة من مغنيات المقاهي تدعي جان دوفال[٢] سمراء اللون.

وكان بودلير طول حياته رجلا متلافا لا يوثق به، نفر منه جميع أصدقائه، وقد أرسله أهله إلى بلاد الهند وهو في العشرين من عمره ليبعدوه عن مغريات باريس، وليعيدوا إليه قوة أعصابه المحطمة، فلما عاد منها ورث ثروة لا بأس بها، ولكنه أتلفها من فوره، وفي عام ١٨٥٧ نشر مجموعة قصائد سماها "زهرات الشر[٣]" أعجب بها فكتور هوجو ولكن ولاة الأمور الفرنسيين رأوا أنها تسيء إلى الدولة وإلى الأخلاق، وحكموا من أجلها على بودلير وعلى طابعها وناشرها بغرامة، ولم تؤد هذه الغرامات بطبيعة الحال ولكن الحكومة حرمت إعادة طبع القصائد، وكان بودلير شديد الإعجاب بكتابات بو[٤] ودكونسي[٥] وترجم كثيرا منها، ويفضل كثير من النقاد هذه التراجم عن أصلها الإنجليزي، ويقول بودلير إن سبب إعجابه بكتابات بو أنه كتب أشياء كانت مستقرة من قبل في عقله هو.

---

(1)Charles Baudlaire

(2)Jeanne Dnval

(3)Les Fleurs de mal

(4)Poe

(5)De quency

وفي السنة التي نشر فيها "زهرات الألم" تصالح بودلير مع والدته، وكان سبب غضبه منها أنها تزوجت بعد وفاة والده فعد هذا الزواج خيانة منها لذاكراه ولم يسامحها على فعلتها. وتنازع معها ومع زوجها وسبها وسب نفسه معها، وقال إن آباءه كانوا إما بلهاء أو مجانين.

فلما مات زوج والدته تصالح مع أمه فأدت عنه ديونه، وعرضت عليه بيتا يقيم فيه في الريف.

ولكنه رفض هذا العرض أولا وكتب إليها الرسالة الآتية يشرح فيها أسباب رفضه:

٣٦ –

"إني في حاجة إلى السلام ..."

في ١٩ فبراير سنة ١٨٥٨.

والدتي العزيزة.

لقد كتبت إلي رسالة ممتعة من ثلاثة أسابيع، وهي الرسالة الوحيدة من نوعها التي كتبتها إلى من عشرين عاما – ولكنني لم أرد عليها قبل اليوم، وما من شك في أنك قد دهشت دهشة آلمتك كثيرا، وأحب أن أقول لك إني حين قرأت تلك الرسالة عرفت أنك لا تزالين تحبينني حبا أعظم مما كنت أتصوره، وأن ثمة أمورا يمكن أن تتبدل إلى ما هو خير منها، وأنه لا يزال في مقدورنا أن نتمتع بالسعادة.

وأكبر ظني أنك كنت مخطئة في الأسباب التي حاولت أن تفسري بها صمتي أما السبب الحقيقي فهو أن رسالتك الرقيقة التي تفيض بعواطف الأمومة قد آلمتني، آلمتني حين أدركت أنك ترغبين بحق في أن أكون إلى جانبك، وحين فكرت أني سأسبب لك كثيرا من الأحزان لأني لست مستعدا للاقتراب منك الآن.

والسبب الأول هو أني لا أجرؤ على مغادرة باريس وأترك فيها كتابا لي في

المطبعة (جوردن يم[1])، وأنت تعلمين مقدار ما أبذل من العناية في كل ما أعمل، ولو أني تركته لسبب لي هذا مشاغل جمة.

ثم فكري في الحياة التعسة المروعة التي أحياها، وهي حياة لا تترك لي إلا قليلا من الوقت للعمل، وللشئون الأخرى التي يجب على أن أنظمها قبل أن أغادر باريس، فقد اضطررت في أول هذا الشهر إلى أن أقضي أسبوعا مختفيا عن الأنظار حتى لا يقبض علي، وتركت جميع أصول كتبي ناقصة في المنزل، وليست هذه إلا مشكلة من آلاف المشكلات التي تواجهني في حياتي.

ومن أصعب الأشياء على النفس أن تكون السعادة قريبة المنال ثم لا يجد الإنسان إليها سبيلا، وأن يدرك الإنسان فوق ذلك أنه لو وجد هذه السبيل فلن يسعد هو وحده بل سيكون سببا في سعادة إنسان آخر من حقه عليه أن يسعده، ولك أن تزيدي على هذه الآلام كلها ألما آخر لعلك لا تدركين كنهه، ذلك أنه إذا كانت أعصاب الإنسان قد أتلفها ما قاساه من قلق وآلام يخطئها الحصر، فإن الشيطان يتسلل في كل صباح إلى عقله رغم ما ينتويه من نوايا طيبة، ويوسوس له فيقول لنفسه: "لم لا أترك هذه الأشياء جميعها يوما آخر، سأنكتب عليها في الليلة المقبلة، فأفرغ من كل ما هو ضروري منها، حتى إذا أقبل الليل هال الإنسان ما يجب عليه أن ينجزه من الأعمال، وطغى عليه الحزن فأجدب عقله، وأقبل اليوم الثاني وعاد إلى تمثيل الرواية السابقة ومثلها بسابق إيمانه وشرفه وثقته.

ولكني في الحقيقة مخلص في رغبتي أن أغادر هذه المدينة الملعونة التي قاسيت فيها من العذاب ما قاسيت، وأضعت فيها من عمري ما أضعت، ومن يدي لعلي إذا جئت إلى أون فلير[2] عاد إلى عقلي شبابه لما يجده فيها من السعادة والطمأنينة. إن في عقلي الآن عشرين رواية ومسرحيتين، ولست ممن يطمحون في شهرة عادية ينالها

---

(1)Gordon Pym

(2)Honfleur

أوساط الناس، بل إني أريد أن أطلع على الناس بما يذهلهم ويأخذ عليهم مذهبهم كما فعل بهم بيرن وبلزاك وشتو بريان[1]. ولكن ترى هل يمتد بي الأجل حتى أبلغ ما أبتغيه؟ آه ليتني كنت أعرف في سبابي قيمة الوقت والصحة والمال! وهذه "الأزاهير" الملعونة التي لا بد لي أن أكتبها من جديد، إني في حاجة إلى راحة البال، ولابد لي من قوة العزيمة لأعود كما كنت شاعرا .. وأعالج موضوعا ظننت أني فرغت منه، وليس ذلك كله إلا إطاعة لأوامر ثلاثة من الحكام، وإني لأعتقد بحق ومن غير أن يكون في اعتقادي هذا شيء من المغالاة أن سنتين أقضيها في أون فلير مجدا في عملي كفيلتان بأن توفيا بجميع ديوني، أي أني أكسب فيهما ثلاثة أضعاف ما أكسبه في هذا المكان. وما أشد أسفي على أنك لم تعرضي علي هذا من عام واحد تقريبا حين لم أكن قد أحاطت بي الصعاب الشديدة التي تحيط بي الآن.

ولنعد الآن إلى قصة ما وضعته من الخطط لسعادتي، سيكون في وسعي أن اقرأ وأقرأ وأقرأ، دون أن تقلل هذه القراءة من إنتاجي، وسأقضي كل أيامي في تجديد نشاط عقلي!

ولست أخفي عنك يا والدتي العزيزة أن حمقي وما توالى علي من محن قد أفادا على تعليمي وهو ما يؤسفني كل الأسف، وها هو ذا عهد الشباب بنقضي على عجل، وإذا فكرت في السنين وهي تمر مسرعة هالني الأمر وتولاني الرعب، نعم إن هذه السنين تتكون من ساعات ودقائق، ولكن الإنسان وهو يضيع وقته إنما يفكر في أجزائه الصغيرة لا في مجموعه كله.

ها هي ذي خطط طيبة، ولست أظن أن تحقيقها مستحيل، ولن يكون لي في أون فلير عذر إن لم أحققها كاملة.

وإذا قرأت رسالتي فلا تظني أن أنانيتي وحدها هي التي أملتها علي، بل إن أهم ما يشغل بالي هو هذا: إن أمي لا تعرفني، فهي لم تكد تراني لأن الأيام لم تسمح لنا

---

(1)Chateaubriand , Balzac , Byron

بأن نعيش معا، ولكن علينا مع ذلك أن نسعد معا بضع سنين، وداعا يا أماه. الساعة الآن الرابعة والنصف، وإني أقبلك في الخيال بكل ما في قلبي من حرارة الحب، لقد كتبت هذا الخطاب بخط رديء ولكنني تعمدت أن أكتبه بحروف كبيرة لاعتقادي أنه بهذه الصورة أقل إيذاء لعينيك.

وأخذت الديون تتراكم على بودلير بعد كتابته هذه الرسالة، وظلت جان دوفال تنبهه وتخدعه، وأخذ هو يدمن الخمر والأفيون، فأصابه الشلل ومات في السادسة والأربعين من عمره، وقد خلف فضلا عن أشعاره كثيرا من المقالات الانتقادية، وكان هو أول من شاد بفضل فاجنر، ومانيه، ودلا كروا[١]

(1)Delacroix , Mante , Vagner

ونشرد فجنر يطلب إلى أحد المعجبين به أن يقرضه من فوره عشرة آلاف فرنك

[رسالتان متبادلتان بينه وبين البارون ربرت فن هورنشتين]

كان رتشرد فجنر[1] حين كتب الرسالة التالية في حالة نفسية سيئة للغاية، ولكن المطالب التي كان يتقدم بها إلى مريديه والمعجبين به كانت رغم هذا عنيفة ملحة صاخبة.

لقد فشلت وقتئذ مسرحية ترستان وإيلد[2] بعد أن جربت سبعا وخمسين مرة، وتراكمت عليه الديون، وساءت سمعة أسرته، ووجهت إليه سهام النقد والسخرية، وأصبح في واقع الأمر رجلا فاشلا أفاقا، ولكن كبرياءه وإيمانه بعبقريته لم يتزعزعا مطلقا رغم هذا كله.

ولما نشر فردنلد[3] ابن البارون ربرت فن هورنشتين[4] مذكرات والده لول مرة في عام ١٩٠٨ حذف منها الرسالتين التاليتين "احتراما لفجنر وأسرته"، ثم نشرت بعدئذ سيرة فجنر اليت كتبها بنفسه فوجدت فيها إشارة إلى البارون فن هورنشتين أغضبت فردنالد فعدل عن رأيه الأول ونشر الرسالتين لتكونا شاهدا آخر على "صغار فجنر وحقده على الشاب الذي يطلب إليه أن يقرضه المال رغم تشهيره به". والرسالتان تفصحان عن نفسهما من غير حاجة إلى تعليق:

---

(1)Richard Wagner

(2)Tristan and Isolde

(3)Ferdinand

(4)Baron Robert Von Hornstein

٣٧ –

"... ولم تحجم عن بذل التضحية ..."

١٩ كي فلتير، باريس.

في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٦١.

عزيزي هورنشتين

ترامى إلي أنك أصبحت من ذوي الثراء، أما أنا فليس يصعب عليك أن تعرف من خيبتي المتكررة ما أنا فيه من بؤس وشقاء،

وهأنا ذا أحاول أن أصلح حالي بعزلتي وقيامي بعمل جديد، ولكني في حاجة إلى قرض عاجل قدره عشرة آلاف فرنك أستعين به على سلوك هذه السبيل التي اخترتها للإبقاء على نفسي – أي للنجاة من محنتي الشديدة من أسباب قلقي وحاجاتي التي لم تترك لي شيئا من الحرية الفكرية، إني أستطيع بهذا القرض أن أنظم حياتي من جديد، وأن أقوم بأعمال مثمرة.

إني أعلم أن من الصعب عليك أن تقدم لي هذا المال، ولكنك لن تعجز عن تقديمه إذا أردت، ولم تحجم عن بذل التضحية، وهذا ما أرغب فيه وما أطالبك به، وأعدك بأني سأحالو أن أؤدي لك هذا الدين مما أحصل عليه من الدخل في خلال الثلاث السنين التالية.

والآن فلأنظر هل وقع اختياري على الرجل الحق ؟!

فإذا تبين لي أنك ذلك الرجل – ولم لا يكون هذا هو الذي ينتظر من بعض الناس في يوم من الأيام؟ – فإن العون الذي تقدمه لي سيوثق الصلة بيني وبينك، وسيكون عليك أن تتفضل باستضافتي في إحدى ضياعك ثلاثة أشهر في الصيف المقبل، وحبذا لو كان ذلك في مقاطعة الرين.

وحسبي هذا في الوقت الحاضر، ولست أزيد عليه إلا شيئا خاصا بالدين الذي

عرضت عليك أمره، وهو أنك تستطيع أن تخفف عني كثيرا من متاعبي إذا قدمت لي مبلغا عاجلا ولو لم يزد على ستة آلاف فرنك، فإن فعلت فإني أرجو أن أوفق إلى تنظيم شئوني من الآن إلى شهر مارس المقبل من غير حاجة إلى الأربعة آلاف الأخرى؛ لكن لا شيء أقل من تقديم المبلغ كله، ومن تقديمه في الحال، يمكن أن يسدي إلي المعونة التي أحتاجها في الحالة النفسية التي أعانيها في الوقت الحاضر.

فلنر الآن ما سيكون، ولنرج أن تشرق الشمس علي قليلا من الوقت لأول مرة، إن الذي أحتاجه الآن هو النجاح وإلا ، فأكبر الظن أني لن أستطيع القيام بعمل جديد.

المخلص

رتشرد فجنر

ويقول رتشرد فجنر بعدئذ في كتابه "حياتي" إنه كان يظن أنه "يولي" البارون فن هورنشتين "شرفا عظيما" حين يطلب إليه ما طلب، وإنه "دهش أعظم دهشة حين تلقى الرد التالي الذي يعبر عن "فزع" البارون من هذا الاقتراح".

– ٣٨

"يؤسفني ألا أستطيع أن أكون ذا فائدة لك"

عزيزي الهر فجنر

يبدو أن لديك فكرة خاطئة عن ثروتي، إن لي أملاكا غير كثيرة أستطيع بها أن أعيش عيشة بسيطة سهلة مع زوجتي وطفلي، فعليك إذن أن تولي وجهك شطر الموسرين حقا، وما أكثر هؤلاء بين أنصارك ونصيراتك في طول أوروبا وعرضها، أما أنا فيؤسفني ألا أستطيع أن أكون ذا فائدة لك.

وأما زياراتك الطويلة "لإحدى ضياعي" فإنها غير ميسرة في هذا الوقت، فإني سأبلغك.

ولقد أسفت حين قرأت في الصحف أن إخراج مسرحية "ترستان وإيلد" لن يكون في هذا الشتاء، وأرجو أن تكون المسألة مسألة وقت لا أكثر، وأن نستمتع بهذه المسرحية فيما بعد، وتحياتي إليك وإلى زوجتك.

من صديقك

ربرت فن هورنشتين

وكتب فجنر من باريس في السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٦١ إلى البارون فن هورنشتين يلومه على "قلة ذوقه" ويقول: "لم يكن لك أن تجرؤ على أن تسدي إلي شيئا من النصح ولو كان مجرد الإشارة إلى من هو الثري بحق، بل كان عليك أن تترك لي أمر الأنصار والنصيرات الذين تشير إليهم في رسالتك، ولم لم أتقدم إليهم بطلب المعونة.

وإذا لم تكن مستعدا لاستقبالي في إحدى ضياعك فقد كان عليك أن تنتهز الفرصة الفريدة التي أتحتها لك لتعد العدة لاستقبالي في مكان آخر أختاره لنفسي، لذلك آلمني منك قولك إنك ستخبرني عن الوقت الذي تكون فيه مستعدا لاستقبالي. وكان واجبا عليك ألا تشير في رسالتك بشيء إلى مسرحية ترستان، وليس شيئا يعفيك من اللوم على هذه الإشارة إلا الزعم بأنك تجهل أعمالي كل الجهل، فلتكن هذه الرسالة خاتمة الحديث في هذا الموضوع. إني أعتمد على حسن تصرفك، كما أن لك أن تعتمد على حسن تصرفي".

وصلحت حال فجنر في العام التالي صلاحا موقوتا بعد أن قبل ضيافة لدفج الثاني[1] ملك بافاريا في ميونخ، فقد عاش في تلك المدينة عيشة البذخ، وأدى الملك عنه كثيرا من ديونه؛ وأشرف فجنر فيها على العرض الأول لمسرحية ترستان وإيسلد، وأتم مسرحيتين أخريين.

---

(1)Ludwig II

وكتب أحد الكتاب المشهورين يعتذر عما في أخلاق فجنر من شذوذ فقال: "إذا نظرت إلى ما كتبه فجنر – وهو ثلاث عشرة مسرحية موسيقية وغنائية، منها إحدى عشر لا تزال تمثل الآن على المسارح، ومنها ثمان تعد من روائع الفن الخالدة – إذا نظرت إلى هذه الأعمال أيقنت أن الديون التي أداها عنه الناس لا تعد إلى جانبها شيئا مذكورا ...

إن دينا لا يزيد على بضعة آلاف من الريالات يؤديه الناس عنه ليس ثمنا غاليا لبعض جهوده. وماذا يضيره إذا لم يكن وفيا لأصدقائه أو لزوجته؟ لقد كانت له حبيبة واحدة أخلص لها حتى آخر يوم من أيام حياته وهي الموسيقى.

القائد ربرت لي يودع جيشه الوداع الأخير

في شهر مارس من عام ١٨٦٤ تولى القائد يلسيز سمسن جرانت[١] قيادة جيش الشرق بعد أن انتصر نصرا مؤزرا في عدة وقائع في وادي نهر المسيسبي[٢] وفي تنسي[٣]. وكانت المهمة التي عهدت إليه من أشق ما عهد إلى قائد من قواد الشمال في الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب، وهي أن يهزم القائد ربرت ا . لي[٤]، أحد قائدين أو ثلاثة لم تنجب أمريكا أعظم منهم، ولم يمض على نقله إلى الشرق ثلاثة عشر شهرا ، حتى أرغم لي على التسليم في اليوم التاسع من شهر إبريل سنة ١٨٦٥، وفي اليوم الثاني أصدر لي أمرا رقم ٩ إلى جيشه المرابط في فرجنيا الشمالية هذا نصه:

– ٣٩

"... في وسع الضباط والجنود أن يعودوا إلى منازلهم"

مركز القيادة العامة لجيش شمال فرجينيا:

في ١٠ إبريل سنة ١٨٦٥.

أمر عام

رقم ٩.

لقد اضطر الجيش المرابط في شمال فيرجينا إلى الاستسلام لقوات تفوقه كثيرا في عددها وعددها بعد أن ظل أربع سنين في حرب طاحنة، أظهر فيها ضروبا من الصبر

---

(1)Ulysses Simpson Grant

(2)R. Mississippe

(3)Tennessee

(4)Robert E. Lee

والبسالة لا يضارعه فيها جيش سواه.

ولست في حاجة إلى أن أقول للأبطال الذين بقوا على قيد الحياة بعد المعارك الطاحنة، والذين صابروا وثبتوا إلى آخر لحظة، إني لم أرض بهذه النتيجة لضعف ثقتي بهم، ولكنني حين شعرت بأنا لا نستطيع أن نجني من البسالة والإخلاص ثمرة تعوض علينا الخسارة

الفادحة التي لا مفر منها إذا واصلنا القتال، صممت على ألا أضحي من غير جدوى بأولئك الأبطال الذين جعلتهم خدماتهم الماضية أعزاء على مواطنيهم.

وتنص شروط الاتفاق على أن في وسع الضباط والجنود أن يعودوا إلى منازلهم، وأن يبقوا فيها حتى يتم تبادلهم، وستعودون إليها ونفوسكم راضية لأنكم تعلمون أنكم أديتم واجبكم مخلصين، وأدعو الله من صميم قلبي أن يبارك فيكم ويدفع عنكم السوء.

وسأظل ما حييت معجبا بثباتكم وإخلاصكم لوطنكم، ذاكرا بالشكر فضلكم وتقديركم العظيم لشخصي، وأودعكم جميعا من صميم قلبي.

ر . ا . لي

القائد

جون استيورت مل ينقذ هربرت اسبنسر أكبر منافسيه في الفلسفة من محنته

فكر هربرت اسبنسر[1] في عام ١٨٥٨ في مشروعه العظيم وهو وضع عدة كتب يشرح فيها تطور المادة والعقل من السديم إلى الإنسان، ومن الرجل الهمجي إلى شكسبير، وكان وقتئذ قد بلغ الأربعين من عمره، ولكنه كان معتل الصحة رقيق الحال.

وعرض له هذا المشروع الضخم وهو يراجع مقالاته لينشرها كلها في مجلد واحد، فأدهشه ما رآه فيها من وحدة وتسلسل في التفكير. وفي ذلك يقول ول دورانت[2] "وخطر له فجأة أن نظرية النشوء والارتقاء يمكن أن تطبق على العلوم كما تطبق على علم الأحياء، ونفذت هذه الفكرة إلى عقله كما ينفذ شعاع الشمس من أبواب مفتحة، واعتقد أن هذه النظرية لا تفسر نشوء الأنواع والأجناس فحسب، بل إنها يمكن أن تفسر أيضا نشأة الكواكب، وطبقات الأرض، وتاريخ الأمم الاجتماعي والسياسي ومبادئ الأخلاق والجمال، وكانت هذه آراء اسبنسر الأولى في الفلسفة التكوينية[3]، وكانت مشكلة اسبنسر الأولى هي الطريقة التي يستطيع بها أن يمول مشروعه الضخم وأن يكسب قوته في آن واحد. ثم أوصى له أحد أقاربه بألفى ريال وخمسمائة، فاستقال من تحرير "الإيكونيميست"[4]، وحاول أن يحصل على اشتراكات لكتبه قبل طبعها، وأن يقنع "بالكفاف من العيش".

ثم نشر وصفا موجزا لمشروعه مشتملا على خطوطه الرئيسية، وحصل بذلك على وعد بالمعاونة من عدد كبير من جلة العلماء، وعلى اشتراكات تضمن له ألف

---

(1)Herbert Spencer

(2)Will Durant

(3)Synthetic Philosophy

(4)Economist

ريال وخمسمائة في السنة فبدأ العمل من فوره.

وفي عام ١٨٦٢ نشر الجزء الأول من المبادئ الأولى فأثار نشره عاصفة من الجدل، وتصدى هكسلي للدفاع عن أنصار التطور ضد هجمات الأساقفة الحانقين، وأثرت هذه المعركة العلمية القائمة حول "المبادئ الأولى" و"أصل الأنواع" في اشتراكات اسبنسر فانخفضت كثيرا ولم يرسل معظم المشتركين ما وعدوه من الاشتراكات، ونقصت شجاعة اسبنسر بنقص أمواله، واضطر أن يعلن فشل المشروع كله، وفي هذه الساعة الحرجة تلقى الرسالة التالية من جون استيورت مل[١] أكبر منافسيه في الفلسفة:

– ٤٠

"... هو عرض بسيط للتعاون على تحقيق غرض عام جليل ..."

في ٤ فبراير سنة ١٨٦٦

سيدي العزيز

جئت إلى هنا في الأسبوع الماضي فرأيت عدد شهر ديسمبر من كتابك في علم "الأحياء" ولست بحاجة إلى أن أعبر لك عن مقدار أسفي حين اطلعت على الإعلان المنشور في الورقة الملحقة به ... وأنا أعرض عليك أن تصدر رسالتك التالية وأنا كفيل بأن أؤدي للناشر كل ما يلحقه من الخسارة .. وأرجو ألا تنظر إلى هذا الاقتراح على أنه جميل شخصي أسديه إليك؛ على أنه حتى لو كان كذلك فإني ما زلت أرجو أن تسمح لي بعرضه عليك. فما بالك إذا كان لا يمت إلى هذا بصلة ، بل هو عرض بسيط للتعاون على تحقيق غرض جليل، بذلت فيه جهدك وضحيت فيه بصحتك، ولا أزال يا سيدي العزيز.

صديقك المخلص

ج . ا س . مل

(1)Part One of First Principles

ورفض اسبنسر أول الأمر ما عرضه عليه مل، رفضا باتا ولكن في أدب جم. غير أن مل أصر على اقتراحه وأقنع كثيرين من أصدقائه بالاشتراك في الأجزاء الباقية من الكتاب، وعارض اسبنسر مرة أخرى، ولكن جماعة من الأمريكيين المعجبين باسبنسر انضموا إلى مل وجمعوا سبعة آلاف ريال، خصصوا فوائدها أو أرباحها إلى اسبنسر.

وقبل الفيلسوف هذا العرض، وواصل عمله الضخم في البحث والدرس بحماسة وإيمان، وأنكب عليه أربعين عاما كاملة نشر في خلالها جميع ما أراد نشره من فلسفته التكوينية ...

وكتب اسبنسر في عام ١٨٩٦ إلى أندرو كرنيجي[١] أحد المعجبين به يقول: "لن يصعب عليك أن تدرك السبب في أني لا أحفل بما يظهره الناس لي من دلائل التعظيم والإجلال في السابعة والسبعين من عمري، بعد أن منعوها عني طويلا، وبعد أن ظلت أبدد ما كان لدي من موارد ضئيلة حتى كدت أعجز عن العمل لما كان يتهددني من خطر الإفلاس" ... فكتب إليه كرنيجي يقول: "لقد كانت لك رسالة سابقة لزمانها بزمن طويل، ولهذا لم يكن يتوقع أن يقر الناس لك بفضل ... وكيف تشكو أيها الصديق إهمال الناس لك وإساءتهم إليك واستهزاءهم بك؟ إن هذا يا سيدي هو أثمن جزاء يجزي به معلمو الإنسانية".

ويقول بعض المؤرخين إن اسبنسر طلب قبل وفاته ببضعة أيام أن يؤتى له بالمجلدات الثمانية عشر من فلسفته التكوينية وأن توضع في حجره، ولما "شعر بثقلها عجب من أنه لم يفضل عليها أن يكون له حفيد يضعه في مكانها ..."

---

(1)Andrew Caraegie

بسمرك يغتبط بانتصار الألمان في سيدان

رسالته إلى زوجته

بدأت حرب عام ١٨٧٠ في ١٤ يوليه يوم عيد الحرية الفرنسية وسقوط الباستيل في عام ١٧٨٩، أي في ذكرى اليوم الذي خال فيه الفرنسيون أنهم أصبحوا أقرب مما كانوا من قبل إلى الحرية، وقد اختار إميل ألفييه(١) كبير وزراء نابليون الثالث هذا اليوم بالذات ليعلن فيه الحرب إلى بروسيا وقال في ذلك قالته الشهيرة: "لقد أخذت أنا وزملائي على عاتقنا في هذا اليوم تبعة خطيرة، ولكنا أخذناها وضمائرنا مستريحة".

وكان العالم في عام ١٨٧٠ يجهل المهارة المكيفليه التي نصب بها بسمرك الشرك للإمبراطور. فقد استطاع هذا السياسي الداهية أن يبذر بذور الشقاق بين فرنسا وإنجلترا بنشر مطامع نابليون في بلجيكا، وبينها وبين بفاريا بنشر مطامعه في بلاتينات(٢).

ولما كانت الوسائل التي استخدمها بسمرك لم تعرف على حقيقتها إلا بعد عام ١٧٩٠ فإن العالم لم يدرك أن فرنسا كانت هي المجني عليها. ألم يغير نابليون الثالث خريطة أوروبا أكثر مما غيرها عمه؟ وهل يمكن أن يتهم بسمرك بغير النوايا السلمية وهو الذي قال في إحدى الأزمات الأوروبية: إني لا أرغب في الحرب ولكنني لا أرغب أيضا في السلم.

وهكذا دخل نابليون الحرب والعالم يظن أنه هو المعتدي، وبعد شهر ونصف

---

(1)Emile Ollivier

(2)Palatinate

شهر من دخوله إياها أسر في واقعة سيدان[١] ثم التقى ببسمرك ذلك اللقاء التاريخي الذي وصفه رجل الدم والحديد لزوجته في رسالته الآتية:

٤١ –

"... تلك حادثة من الحوادث ... التاريخية العالمية ..."

فندرس في ٣ سبتمبر سنة ١٨٧٠

حبيبة قلبي:

غادرت محل إقامتي هنا أمس الأول قبل مطلع الفجر، ولكنني عدت إليه اليوم، بعد أن خضنا في أول يوم من هذا الشهر معركة سيدان العظيمة وأسرنا فيها نحو ثلاثين ألفا، وسقنا سائر الجيش الفرنسي إلى القلعة؛ بعد أن طاردناه من بار له درك[٢] وضيقنا عليه الخناق حتى اضطر إلى التسليم هو والإمبراطور نفسه، فأخذناهم أسرى حرب، وفي الساعة الخامسة من صباح أمس جاءني القائد ري[٣] وهو رجل أعرفه شخصيا وقال لي إن نابليون يريد أن يتحدث إلي، وكنت قبل ذلك قد ظللت حتى الساعة الواحدة صباحا أبحث شروط التسليم مع مولكته[٤] والقواد الفرنسيين.

ولم أنتظر حتى أغتسل أو أفطر بل ركبت إلى سيدان، ووجدت الإمبراطور في الطريق العام أمام المدينة راكبا في عربة مكشوفة ومعه ثلاثة من كبار الضباط، وبالقرب منه ثلاثة آخرون على ظهور الخيل، فلما رأيته نزلت عن ظهر جوادي وحييته بأدب كأني في قصر التويلري[٥] وسألته ماذا يأمر به؟ فقال إنه يريد أن يقابل الملك، فأجبته إن جلالته مقيم على بعد أربعة عشر ميلا من ذلك الموضع – وكنت

---

(1)Sedan

(2)Bar – Le – Due

(3)General Reille

(4)Moltke

(5)Tulleries

صادقا في هذا – أي في المكان الذي أكتب فيه الآن، ولما سألني عن المكان الذي سيؤخذ إليه، عرضت عليه محل إقامتي أنا في دنشري[١] وهي قرية على نهر الماس[٢] قريبة من سيدان، وذلك لأني غير خبير بهذا الموضع. فقبل ما عرضته عليه وسار بعربته، وصحبته أنا ورجاله الستة الفرنسيون وكارل[٣] وكان قد جاء في أثري إلى صفوف جنودنا في صباح ذلك اليوم الجميل. واكتئب الإمبراطور قبل أن يصل إلى مقره لأنه كان يخشى أن تشاهده الجماهير، وأشار إلى بيت منعزل يسكنه رجل من العمال في الطريق، وسألني هل يستطيع أن ينزل فيه، فأرسلت كارل ليبحث ذلك البيت، ولما جاء قال إنه بيت قذر حقير، فأجاب الإمبراطور: "هذا لا يهم"، وصعدت معه سلما ضيقا متهدما.

وجلسنا ساعة من النهار في حجرة لا تزيد مساحتها على عشر أقدام مربعة، بها من الأثاث منضدة من خشب التين وكرسيان من القش، وظل سائر الجماعة ينتظروننا في أسفل الدار، ألا ما أعظم الفرق بين هذه الجلسة وجلستنا الأخيرة في عام ٦٧، في التويلري! ولم يكن حديثنا بالأمر الهين لأني أردت أن أتحاشى الخوض في أمور تؤلم أولئك الذين أذلهم العزيز الجبار. وكلفت كارل أن يستدعي لنا ضباطا من المدينة، وطلب مولتكه أن يحضر هو أيضا، ثم أرسلنا أحد الضباط ليستطلع المكان، فعثرنا على قصر صغير ذي حديقة في فرزنوي[٤] على بعد ميلين من المكان الذي كنا فيه، وسرنا بالإمبراطور إلى ذلك المكان ومن حوله حرس خاص من الجند المدرعين استدعيناهم لهذا الغرض، وهناك أتممنا وضع شروط التسليم مع وميفن[٥] القائد الفرنسي الأعلى، وتقضي هذه الشروط بأن يسلم نحو أربعين أو ستين ألفا من الجنود

---

(1)Donchery

(2)The Maas

(3)Carl

(4)Fresnoi

(5)Wimpffen

الفرنسيين – ولست أعرف الآن عددهم بالضبط – هم وجميع ما معهم ويصبحوا أسرى حرب لقد خسرت فرنسا في اليومين السابقين إمبراطورها ومائة ألف من رجالها، وقد غادر نابليون هذا القصر في صباح اليوم هو وحاشيته وخيله وعرباته إلى وهلمشوه[1] بالقرب من كاسل[2].

تلك حادثة من الحوادث التاريخية العالمية، وذلك نصر حاسم نحمد الله عليه خاضعين، وإن كان علينا أن نواصل الحرب مع فرنسا التي أصبحت لا رئيس لها.

أستودعك الله يا حبيبة قلبي، قبلي الأطفال.

المخلص

ق . ب

وأخذ الناس بعد نكبة الفرعون في سيدان يعطفون عليه، بعد ما نسوا آثامه وكان نصر الألمان الحاسم السريع مما آثار شكوكهم في الخرافة التي ذاعت عن براءة الألمان.

وبعد عدة سنين من ذلك الوقت لما مات نابليون الثالث في منفاه كتب المؤرخ الكبيرتين[3]إلى صديق له يقول: "إن ما ذكرته لترتعد منه فرائضي". وأي شيء هذا الذي ارتعدت منه فرائض تين فيلسوف التاريخ؟ لا شيء أكثر مما نقل إليه من أن بسمرك قال للسفير الفرنسي في برلين: "لن أتردد في الهجوم عليكم، وسنكون مستعدين لذلك الهجوم، أما أنتم فإني أعلم أنكم غير مستعدين له، ولن أتوانى قط عن ذلك الهجوم"

---

(1)Wilhelmshohe

(2)Cassel

(3)Taine

بنجمين دزرائيلي يعرض على توماس كارليل رغبته في أن ينجبه من متاعبه في أخريات أيامه

ها هي ذي رسالة من رئيس الوزراء الأريب الذي اشتهر بخطبه الطنانة الرنانة وبشدة احترامه للملكة فكتوريا.

ويقال إن أعضاء البرلمان سخروا من دزرائيلي حين قام أول مرة ليلقي خطابه في البرلمان، ولم ينقطعوا عن الضحك حتى أجلسوه، ولكنه رد عليهم بقوله إنه سيرغمهم على ذلك بقدرته السياسية وبتدعيم الإمبراطورية البريطانية.

ومنحت حكومة بروسيا كارليل نوط الجدارة حين نشر كتابه عن فردرك الأكبر، فرأى دزرائيلي أن يمنحه هو أيضا نوط الصليب الأعظم من وسام الحمام ويرتب له معاشا سنويا، وكتب إليه بذلك الرسالة اللطيفة الآتية:

٤٢ –

"يجب على الحكومات أن تعترف بالذكاء لأصحاب الذكاء"

يورنموث في ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٧٤

(خاص)

سيدي:

يجب على الحكومات أن تعترف بالذكاء لأصحاب الذكاء، لأن ذلك يحفظ على الأمة نشاطها ويزيد من قدرة، ولكن أداء هذا العمل على الوجه الأكمل يتطلب شجاعة وحسن تدبير، وإلا هوى إلى المحسوبية وإلى مناصرة ذوي المواهب المتوسطة، وهذا عمل لا يسمو بالشعور القومي بل ينزل به آخر الأمر إلى الدرك الأسفل ويفسده.

ولقد أشارت الحكومة على جلالة الملكة بإعداد بعثة إلى الأقاليم القطبية، واقترحت عليها أعمالا من ذلك النوع، فأظهرت بذلك عطفها على العلم، وأنا أريد ألا يقل نصيب الآداب الرفيعة من اعتراف الحكومة عن نصيب العلم نفسه، ولكن هذا ليس

(٨ – رسائل)

بالأمر الهين لأن من طبيعة الأشياء ألا يبلغ تقدير القيم في الآداب من الدقة ما بلغه في العلوم.

وإذا نظرت إلى عالم الأدب لم أجد في أسماء الأحياء من رجاله إلا اسمين أعتقد أنهما سيخلدان، وقد بلغا من على الشأن منزلة لا ينازعهما فيها أحد، فأما أحدهما فاسم شاعر إن لم يكن عظيما فهو شاعر بحق، وأما الآخر فاسمك أنت.

لذلك أشرت على الملكة أن تمنح مستر تنسن[١] لقب بارون، وهذا اللقب عينه رهن إشارتك إن أحببت، ولكني ذكرت أنك مثلي لا ولد لك، وأنك قد لا تعبأ بالألقاب الوراثية، ولهذا اعتزمت أن أشير على الملكة – إذا وافقت أنت – أن تمنحك أرقى ما لديها من أوسمة الشرف، وهو وسام أعتقد أنه لم يمنح من قبل إلا لمن أسدوا للدولة خدمة حقه. ذلك هو نوط الصليب الأعظم من وسام الحمام.

وسأتحدث إليك حديثا صريحا في مسألة أخرى: ليس من اللائق أن تتعرض في أخريات أيامك للمتاعب التي يتعرض لها الناس عادة، ولست أرى ما يمنع الأمة أن تمنح المؤلف الكبير ما تمنحه المحامي أو رجل الحكم من معاش. لكن من سوء الحظ أن سلطة الملكة في هذا مقيدة محدودة، على أن من حق الملكة مع ذلك أن تمنح أي فرد من المال ما يعادل القدر الذي تمنحه إياه كلية أو جامعة؛ وقد قبل هذا جنسن[٢]

---

(1)Tennyson

(2)Samuel Johnson

العظيم عن رضا وتمتع به عن طيب خاطر، ولم ير فيه سوذي[١] ما ينافي صلاحه واستقامته.

فهل لك أن تتفضل بإفادتي عن رأيك في هذين الموضوعين

ولي الشرف بأن أكون يا سيدي

خادمك الأمين

ب . درزائيلي

ورفض كارليل وسام الشرف الذي عرض عليه في حزم ولكن في أدب، ولقد كان من قبل ذلك كثير الاعتراض على سياسة درزائيلي الاستعمارية، ورفض فضلا عن ذلك أن يدفن في مقبرة وستمنستر، واختار أن يرقد بجوار والديه في مسقط رأسه قرية إكلفشن[٢] باسكتلندة.

---

(1)Robert Suthey

(2)Ecclefeshen

سارة برن هارد تقول لفكتورين ساردو إن باريس قد أصبحت بعد أن خلت منه صحراء متوحشة

كتبت سارة[1] عدد لا يحصى من الرسائل، وكانت كثيرة الاستدانة ولكنها كانت هي المسيطرة على المسرح في أيامها.

وكان مولدها في باريس عام ١٨٤٤، ونشأت في أحد الأديرة، وتغلبت على خوفها من المسرح في عهد شبابها بما كان لها من ذاكرة قوية وصت رخيم، وما لبثت أن تلألأ نجمها في سماء المسرح حتى أدهشت العالم القديم والعالم الجديد، ودامت صلتها بساردو[2] الشاعر المسرحي مؤلف فدورا[3] التي كتبها لها خاصة سنين طوالا، وكان من عادتها في الحب أن تكون هي المهاجمة والمطاردة، وقد رأته أول مرة في مقهى رقص في باريس، فصممت على أن تغزو قلبه وتخضعه، ونجحت في ذلك كل نجاح، وها هي ذي إحدى الرسائل التي بعثت بها إليه:

– ٤٣

"... ألفاظك غذائي وأنفاسك خمري ..."

[من غير تاريخ]

أيها الغلام العجيب

أين أنت الليلة؟ إن رسالتك لم تصلني إلا من ساعة واحدة – وما أقساها من ساعة – لقد كنت أرجو أن تقضيها معي في هذا المكان.

---

(١) Sarah Bernhardt وهو الاسم المسرحي لروزين برنارد الممثلة الفرنسية (١٨٤٤ – ١٩٢٣)

(2)Victorien Sardou

(3)Fedore

ليست باريس بعد أن خلت منك إلا معرضا للموتى. لقد كانت باريس قبل أن أعرفك، وكنت أظنها جنة العالم، أما الآن فقد أصبحت صحراء موحشة لا أنيس فيها ولا رفيق، إنها كميناء الساعة خلت من عقاربها.

إن الصور التي كانت منطبعة في ذاكرتي قبل أن أعرفك قد امحت كلها وحلت مكانها الساعات البهيجة التي قضيناها معا.

ولست أستطيع الآن أن أعيش بعيدة عنك، إن ألفاظك وإن قست تبدد جميع متاعب العالم وتحيطني بالسعادة، وهي التي غذت فني وهزته في مهده الوثير، وهي الآن لازمة لي لزوم الشمس والهواء.

ولا تقل حاجتي إليها عن حاجتي إلى الطعام، وأنا ظمأى لها أشد الظمأ، فألفاظك غذائي وأنفاسك خمري وأنت كل شيء لي.

سارتك

وقطعت إحدى ساقي سارة برنهارد بعد أن بلغت سن السبعين، ولكنها لم تنقطع عن الطواف في أوروبا وأمريكا، ومثلت للسنيما قبيل وفاتها في الثامنة والسبعين من عمرها.

وتوفيت في لندن عام **١٩٢٣**، وبعد وفاتها هي وساردو نشرت رسائل حبهما.

بـ ين بيوتر إلينش تشيكو فسكي[١]
وندجدا[٢] فيلارتقنا فن ملك نصيرته وحبيبته

لما نشرت كترين درنكر بون[٣] وبربارا فن ملك[٤] في فبراير من عام **١٩٣٧** كتابهما المسمى "صديق محبوب" والذي جمعتا فيه رسائل تشيكو فسكس، عرف العالم لأول مرة تفاصيل "قصة من أعجب قصص الحب في العالم وأكثرها إثارة للأشجان". فقد حوت هذه الرسائل الحزينة ما كان بين الموسيقى العظيم ونصيرته "التي هامت بحبه وبحب موسيقاه، والتي أعانته في السراء وواسته في الضراء، وكانت له أما رؤوما تحنو عليه وتكتب له في كل يوم تقريبا، وتنظم له حياته اليومية، والتي دام حبها ودامت صداقتها له ثلاثة عشر عاما كاملة لم تتحدث إليه فيها وجها لوجه". وفي وسعنا أن نتبين في عواطف الكاتب الثائرة ذلك السر – الكامن أيضا في موسيقاه نفسها – الذي جعل من هذا الرجل المولع بفنه إنسانا بائسا حزينا.

وكان تشيكو فسكي في شبابه شابا وسيما رشيقا سطحي التفكير مستهترا، ولم يكن أحد من أسرته من المولعين بالموسيقى، وكانت هذه الأسرة تريد أن تنشئه للاشتغال بالقانون.

ولما بدأ هو وندجدا فن ملك يتراسلان، كان هو في السادسة والثلاثين من عمره وكانت هي في الخامسة والأربعين، وكانت سيدة أرستقراطية مزهوة بنفسها ترملت من زمن قريب واعتزلت مباهج الحياة، فلما سمعت موسيقاه أعجبت بها وهامت بحبه.

وكان تشيكو فسكي وقتئذ رجلا شديد الحياء، وكان أكبر أسباب حيائه خوفه

---

(1)Piotr Ilyich Tchaikovsky

(2)Nadejda Philaretovna von Meck

(3)Catherine Drinker Bowen

(4)Barbarn Von Meck

أن يعرف العالم ما كانت تنطوي عليه حياته من سر عميق، وهو عجزه عن أن يحب النساء.

أما السيدة فن مك التي أعجبت به وهامت بحبه فكانت أما لأثنى عشر ولدا.

وكان واسطة التعارف بينهما بطريق التراسل رجل من كبار الموسيقيين يدعى ربنشتين[1]، وقد أوضحت له أنها لا ترغب في لقائه كما لا يرغب هو في لقائها، وقال كلاهما إنه يحس بأن هذا البعد يزيد قلبيهما قربا، وهكذا بدأت هذه الصداقة العجيبة.

ولكن تشيكو فسكي لم يلبث أن خدع وغلب على أمره وتزوج مرغما من إحدى تلميذاته المسماة أنطونيا إيفانوفا ميلو كوفا[2] التي أعجبت هي الأخرى به، وذلك أن أنطونيا بعثت إليه على ما يظهر برسالة عاطفية أجاب عنها بمثلها، ثم خشي عاقبة فعلته فحاول من فوره ألا يشجعها في عواطفها، ولكنها هددته بأن تقتل نفسها، وبلغ من أمره أن اعترف لها بما كان يتصف به من شذوذ جنسي، ولكنها لم تيأس، فلم ير بدا من الخضوع لما أرادته، وتزوجا في الثامن عشر من شهر يوليو سنة ١٨٧٧.

وبعد أن أقام مع زوجته أسبوعين لاقى فيهما الأمرين حاول أن يتخلص من حياته بالانتحار غرقا، لكنه لم يوفق، ثم استطاع آخر الأمر أن يفر منها مذعورا مشرد العقل، مستعينا بالمال الذي أمدته به السيدة فن مك، وأبلغ أخو تشيكو فسكي وأحد أصدقائه أنطونيا أن تشيكو فسكي لن يعود إلا أبدا فاختلت موازين عقلها، ولم تكن من قبل سليمة، ولكنها عاشت بعدئذ أربعين عاما وماتت في أحد مستشفيات الأمراض العقلية سنة ١٩١٧.

ثم وظفت السيدة فن مك لتشيكو فسكي معاشا سنويا قدره ستة آلاف روبل،

---

(1)Rubinstein

(2)Antonia Lvanova Milukova

فبعثت فيه هذه الهبة الكريمة فيضا من النشاط كانت خاتمته السمفونية الرابعة[1] التي أهداها إلى السيدة فن ملك، وبعد عامين من ذلك الوقت بعث إليه بالرسالة التالية:

- ٤٤ -

"... هل تعرف مقدار حبي؟.."

بريلوف

في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩

يوم الجمعة الساعة الثامنة صباحا.

يحزنني يا أعز الأصدقاء ما تعانيه في بطرسبرج، ولكني أرجو أن تعذرني إذا قلت إني يسرني أن تكون شديد الحنين إلى بريلوف – ولست أدري هل تستطيع أن تدرك كيف أغار عليك على الرغم من أننا لم نلتق قط. هل تعرف أني أغار عليك غيرة أستحق عليها أشد اللوم، فهي غيرة المرأة على الرجل الذي تحبه؟ هل تعرف أن نبأ زواجك كان شديد الوقع علي، وإني أحسست كأن شيئا في داخل قلبي قد تحطم؟ لقد كان تفكيري في أنك قريب من تلك المرأة مؤلما لي أشد الألم، ولم أكن أطيق صبرا عليه.

وهل تعرف مقدار خبثي؟ لقد انشرح صدري حين عرفت أنك لم تكن سعيدا معها. لقد لمت نفسي على هذا الشعور، ولست أظن أني كشفت عنه بطريقة ما، ولكني مع ذلك لم أستطع التخلص منه نهائيا. ذلك أنه شيء لا يخضع لإرادة الإنسان.

لقد كرهت تلك المرأة لأنها لم تسعدك، ولو أنك كنت سعيدا معها لكرهتها أكثر من ذلك ألف مرة، فقد كنت أرى أنها سلبتني ما كان يجب أن يكون لي وحدي، سلبتني حقي، لأن حبي إياك لا يعادله حبي لأي إنسان غيرك، ولأني أقدرك أكثر مما

(1)The Fourth Symphony

أقدر أي شيء في العالم.

فإذا كان لا يسرك أن تعرف هذا فاصفح عن اعترافي الذي اضطررت إليه اضطرارا، إن سبب هذا الاعتراف هو السمفونية. ولكني أرى أن من الخير لك أن تعرف أني لا أهيم في بيداء الخيال كما تظن، هذا إلى أن الاعتراف لا يغير من علاقتنا، ولست أريد أن أغير شيئا منها، وأحب أن أثق بأن شيئا منها لن يتغير حين تقترب حياتي من نهايتها، وأن إنسانا لن ... ولكن ما لي ولهذا؟ إن هذا القول ليس من حقي، فسامحني وانس كل ما فعلته. إن عقلي مضطرب.

أرجوك مرة أخرى أن تسامحني وأن تثق أني لا أشعر بشيء من الألم، ولا أحتاج إلى شيء قط.

تحياتي إليك أيها الصديق العزيز، انس هذه الرسالة ولكن لا تنس من تحبك من كل قلبها.

ن . فن مك

حاشية: هل تتفضل فتخبرني بوصول هذه الرسالة إليك؟

ورد تشيكو فسكي على هذه الرسالة برسالة أخرى حوت من الإخلاص ورقة الشعور ما تحويه موسيقاه نفسها:

٤٥ –

"... حركات نفسي الخفية البعيدة الغور"

جرنكينو

في العاشر من أكتوبر سنة ١٨٧٩

ليس في وسعي أن أصف لك سروري حين رأيت خطك وعرفت أننا قد عدنا

إلى التراسل، وقد نسى جرجنسن[1] أن يبلغني أن ألحان البيان التي في سمفونيتنا قد نشرت آخر الأمر، ولهذا كان ما ذكرته عنها في رسالتك أول نبأ تلقيته عن هذا الحادث، وقد اغتبطت أشد الاغتباط لأنك راضية عن هذه الألحان، وهي في الحق ألحان جيدة متقنة غاية الإتقان.

أما الموسيقى نفسها فقد كنت أعرف من قبل أنك ستحبينها، وهل يمكن أن يكون الأمر غير هذا؟ لقد كنت أكتبها وأنت على الدوام حاضرة في فكري، نعم إن صلتي بلك لم تكن وقتئذ قوية كما هي الآن، ولكنني حتى في ذلك الوقت كان يخالجني شعور غامض بأن لا أحد غيرك في هذا العالم يستطيع أن يستجيب لحركات نفسي الخفية البعيدة الغور كما تستجابين أنت لها، ولم تهد إلى أحد قطعة موسيقية بروح أكثر جدا وصدقا من الروح التي أهديت بها السمفونية إليك، فهي لا تعبر عن مشاعري وحدي بل تعبر عن مشاعرك أنت أيضا، لأنها لم تكن من عملي بل من عملنا معا، وستبقى أبد الدهر أحب الأعمال إلي، وستظل هي الأثر الخالد من ذلك الوقت الذي أصاب فيه عقلي مرض خبيث خطير أخذ يزداد شدة على مر الأيام، وحل بي ما لا أطيقه من الألم والحزن واليأس، ثم لاح لي فجأة ضياء الأمل، وأشرقت علي شمس السعادة في صورة الإنسان الذي أهديت إليه وإني لترتعد فرائضي حين أفكر فيما كان يؤول إليه أمري لو لم تهيئك المقادير إلي.

ذلك أني مدين لك بكل شيء: بحياتي، وبالفرصة التي أتيحت لي لأن أسعى لنيل حريتي – ذلك المطمح الذي كان أبعد من مناط النجم لي – وذلك الحظ السعيد العظيم الذي لم يلح قط لخاطري من قبل ولا في الأحلام.

ولقد قرأت خطابك ولساني يلهج بالشكر لك، وقلبي يفيض بالحب الذي لا يمكن التعبير عنه بأية وسيلة غير الموسيقى، ولعلي أستطيع في يوم من الأيام أن أعبر عنه بتلك الوسيلة!

---

(1)Jurgenson

صديقتي العزيزة: متعك الله بالهناءة، إني أرجوها لك أكثر مما أرجوها لنفسي، إني حين قرأت ما سببته لك سمفونيتنا من الأرق ليالي طوالا، أحسست بأن قلبي يتمزق. ولست أريد بعد الآن إلا أن تكون موسيقاي منبع غبطة لك وسلوى، وأرجو لك من صميم قلبي سعادة وطمأنينة.

المخلص لك

ب . تشيكو فسكي

ودامت صداقة التراسل هذه ثلاثة عشر عاما، ثم انقطعت فجأة، فمنعت نادجدا فن ملك عن تشيكو فسكي معاشه السنوي على غير انتظار في أكتوبر سنة ١٨٩٠ معتذرة عن هذا العمل بعذر كاذب هو العسر المالي، ولعل السبب الصحيح أنها سمعت آخر الأمر "بالداء الوبيل" الذي كان صنيعتها مصابا به، أو لعل موت ابنها ومرضها قد أثرا في نفسها، أو لعل هناك سببا غير هذا وذاك لم تكشف عنه رسائلهما، وعرف تشيكو فسكس ذلك فآلمه أشد الألم، ورحل في اليوم التالي إلى نيويورك في رحلة كانت في ظاهرها ومن الناحية الموسيقية رحلة موفقة، ولكنه وجد قبل أول حفلة أقامها يبكي بمفرده بكاء مرا في الفندق الذي نزل فيه ... وأنشأ في آخر سني حياته سمفونية السادسة، ولما حضرته الوفاة في عام ١٨٩٣ وهو في الثالثة والخمسين من عرمه (وقبل موت نصيرته بأشهر قلائل) سمع يهمس اسم ندجدا ويلومها على فعلتها.

بين جي ده مويسان وماري بشكر تسف

كانت ماري بشكر تسف[١] فتاة روسية موهوبة احتضرت في الرابعة والعشرين من عمرها؛ ولو أنها عاشت لكانت من نابغات الكاتبات الأوربيات. كانت ماري فتاة طيبة القلب، حاضرة البديهة، معتلة الصحة، دائمة التفكير، يعجب كثيرون من القراء برسائلها ويومياتها، وهذه الرسائل واليوميات تكشف عن طبيعتها المعقدة وعن أحوال الطبقات العليا في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، من النواحي الاجتماعية والأدبية والفنية.

وأخذت ماري تكتب يومياتها وهي في الثانية عشرة من عمرها، وبدأت في الوقت نفسه تكتب رسائل حب بأسماء مستعارة للكثيرين من العظماء الذين وقع عليهم اختيارها، ومن بينهم الملك فرنسيس الثاني المخلوع ودوق هملتن، وقد نجحت أيضا بعض النجاح في التصوير والموسيقى، ولكن شهرتها في الوقت الحاضر تقوم على رسائلها التي بعثت بها إلى العظماء من معاصريها.

وكتبت ماري قبيل وفاتها إحدى هذه الرسائل إلى جي ده مويسان[٢]، وكان نجمه وقتئذ قد التمع في سماء الأدب، وكان فوق ذلك قد غزا كثيرا من قلوب المعجبات به من الفتيات والسيدات. ووقعت الرسالة بإمضاء مستعار هو الآنسة هيستنجس[٣]، الاسم الذي اختاره هو من قبل عنوانا لإحدى قصصه التي نشرت في صحيفة الجولوا[٤]، والتي اختار لها فيما بعد عنوان "الآنسة هريت[٥]".

---

(1)Marie Bashkirtseff

(2)Guy de Maupassant

(3)Miss Hastings

(4)Le Gaulois

(5)Miss Harriet

– ٤٦

"... يبعث في آمالا لذيذة في أن أصبح أمينة أسرار روحك الجميلة ..."

سيدي:

إني أقرأ كتبك، ولعل في وسعي أن أقول إني أطرب لقراءتها، ذلك أنك تجد في الطبيعة التي تصورها بإخلاص لا يقل عن إخلاص الإنسان لعقيدته الدينية إلهاما رفيعا ساميا بحق؛ وأنت تؤثر في قرائك بما يسري في كتاباتك من شعور إنساني عميق يخيل إلينا معه أننا نجد صورنا مرسومة في صحف كتبك، فنحبك لأننا نحب أنفسنا، فهل ترى أن هذا ثناء لا معنى له؟ إن رأيت هذا فأرجو أن تغض النظر عن هذا العيب لأن فيه مع ذلك كثيرا من الإخلاص.

وفي وسعك أن تعرف أني أريد أن أحدثك عن أشياء لطيفة عجيبة، ولكني أجد بعض الصعوبة في أن أحدثك عنها كلها مرة واحدة بهذه الطريقة؛ ويزيد في أسفي لهذا العجز أنك قد بلغت من العظمة مبلغا يبعث في آمالا لذيذة في أن أصبح أمينة أسرار روحك الجميلة، لأني أظن على الدوام أن روحك جميلة بحق.

فإذا لم تكن روحك جميلة، وإذا "كانت هذه الأشياء مما لا يروقك"، فإني أولا سيؤسفني هذا من أجلك، وسأنظر إليك بعدئذ نظرتي إلى رجل أديب فحسب، ولا أعود بعدئذ أفكر في هذه المسألة.

ولقد كنت طوال السنة الماضية أتوق إلى الكتابة إليك، بل إني هممت فعلا أن أحقق هذه الرغبة ولكني ... كنت أظن أحيانا أني أبالغ في تقدير مواهبك، وأن لا داعي لتحمل هذه المشقة، ولكني فوجئت من يومين بنبأ في صحيفة الجولوا يقول إن إنسانا قد شرفك برسالة يثني فيها عليك، وإنك بحثت عن عنوان هذا الإنسان الظريف لترد على رسالته، فبعث هذا الغيرة في نفسي على الفور، وبهرتني مواهبك الأدبية من جديد، و — وها هي ذي رسالتي.

والآن أرجو أن تسمح لي بأن أقول لك إني سأخفي عنك شخصيتي على الدوام، بل إني لا أريد حتى أن أراك عن بعد – فقد لا يسرني وجهك – ومن يدري؟ إن كل ما أعرفه عنك الآن في سن الشباب وأنك أعزب، وهما شرطان أساسيان لكل حب حتى الحب عن بعد.

ولكني من واجبي أن أخبرك أني فاتنة ساحرة، وما من شك في أن هذه الفكرة الجميلة ستدفعك دفعا إلى أن ترد على رسالتي، إذ يخيل إلي أني لو كنت رجلا لما رغبت في أن يكون بيني وبين إنجليزية عجوز شمطاء اتصال من نوع ما، ولو كان هذا الاتصال مقصورا على المراسلة، مهما تكن آراء.

الآنسة هيستنجس

محطة بريد مدلين(١)

وأثارت هذه الرسالة في نفس ده مويسان الرغبة الشديدة في معرفة كاتبتها ولذلك أجاب عنها بالرسالة التالية:

٤٧ –

"أي سحر تضفيه الرسائل الخفية على ما بين الناس من صلات"

سيدتي:

لست أشك في أن رسالتي لن تكون هي الرسالة التي كنت تتوقعين صدورها مني، وأحب بادئ ذي بدء أن أشكر لك عطفك وثنائك علي ثم نتحدث بعدئذ كما يجب أن يتحدث العقلاء.

إنك تطلبين أن تكوني أمينة أسراري، فبأي حق تطلبين هذا؟ إني لا أعرفك ولم أفضي إليك – وأنت إنسان لا أعرفه وقد لا يكون عقله ومزاجه وما إليهما منسجمة

---

(1)P. O. Satation of Madeleine

مع ما يتصف به عقلي – بما قد أفضي به سرا أو جهرا إلى صديقاتي من النساء؟ أليس هذا مسلك الإنسان الأبله والصديق غير الوفي؟

وأي سحر تضفيه الرسائل الخفية على ما بين الناس من صلات؟ أليس كل ما في الحب – الحب الطاهر – بين الرجل والمرأة من جمال ينبعث معظمه من سرورهما حين يلتقيان ويتحادثان، وحين يستطيع الإنسان أن يصور لصديقه صورة صاحبه الماثلة بينه وبين الصفحة التي يكتب فيها رسالته؟

وكيف يستطيع الإنسان أن يصور نفسيته ومشاعره الخفية إلى إنسان لا يعرف شيئا عن شكله أو لون شعره، أو ابتسامته أو ملامح وجهه؟

وأنت تشيرين إلى رسالة تلقيتها من وقت غير بعيد. لقد جاءتني هذه الرسالة من رجل يستشيرني في أمر من الأمور، فانظري الفرق، ولنعد الآن إلى الرسائل التي تبعث بها نساء مجهولات، لقد تلقيت من هذه الرسائل في العامين الماضيين حوالي خمسين أو ستين رسالة، فكيف أستطيع أن أختار من بين كاتبات هذا العدد الكبير من النساء من تكون أمينة أسرار روحي الجميلة على حد قولك؟

أما إذا رغبن في أن يكشفن عن حقيقتهن، وأن نتعارف كما يتعارف الناس في المجتمعات المحترمة، فإن روابط الصداقة والثقة تنشأ حينئذ بيننا، وإلا فكيف أترك من أعرفهن من صديقاتي الفاتنات، وأفضل عليهن صديقة قد تكون فاتنة ولكنها غير معروفة لي، أي أنها قد لا توافقين من حيث منظرها أو عقليتها؟ ليس هذا كله من الشهامة في شيء، أليس كذلك؟ وإذا ألقيت بنفسي أمام قدميك فهل تعتقدين أني مخلص في محبتي الروحية لك؟

أرجو يا سيدتي أن لا يسومك منطق رجل عملي أكثر منه شاعرا، وثقي أني الشاكر الوفي.

جي ده موبسان

حاشية: أرجو أن تصفحي عما في رسالتي من شطب فإني لا أستطيع أن أكتب من غير أن أشطبووقتي لا يتسع لإعادة كتابتها.

ودام هذا التراسل زمانا، فكتبت إليه ماري بشكر ردا على هذه الرسالة سخرت فيه من الرسائل الستين التي جاءته من سيدات لا يعرفهن ومما جاء فيها: "إنك لست محبوبا كما كنت أظن، وإني لأرفض أن أكون أنا الحادية والستين لا أكثر" وما لبثت هذه الرسائل أن كشفت عن كثير من أحوالهما، فقد اعترف موبسان في واحدة منها أنه يكتب ليطرد عن نفسه الملل، وحاول عبثا أن يستدر عطف "الآنسة هيستنجس"، وأبت هي أن تعتقد أنه جاد فيما يقول، وادعى في أخرى أنه يظن أن "الآنسة هيستنجس" رجل لا فتاة، وسرعان ما وفاقته هي هذا الظن.

وأخيرا سئمت ماري الأمر كله، وأرادات أن تمتنع عن الكتابة، ولكن مويسان، وقد زاد اهتمامه بالموضوع كله، جدد جهوده للكشف عن حقيقة هذه الكاتبة، غير أنها أبت أن تكشف له عن نفسها.

وكتبت في آخر رسالة لها تقول بصراحة هي إحدى مميزاتها: "إن ما يحيط بك من ظروف على هذه الأرض لا يهمني قط، فهل تهمك ظروفي أنا؟ ولنفرض أن ذوقك قد فسد فلم تجدني فتاة عجيبة؟ فهل تظن أني أحب ذلك منك مهما خلصت نياتي ومقاصدي؟"

وبهذا اختتمت سلسلة المراسلات العجيبة. ومن الأقاصيص الشائعة أن ماري قابلت مويسان قبيل وفاتها، وقد شيدت كنيسة صغيرة في باسي[١] وسميت باسمها، كما سمي به أيضا شارع من شوارع نيس[٢].

---

(1)Passy

(2)Nice

لوي باستير[1] يعلن نجاحه العظيم

في تجارته على الجمرة الخبيثة

[رسالته إلى أبنائه]

"إن العلم سيكد كدا متواصلا لإطالة الحياة، وهو يعمل في ذلك طوعا لقانون الإنسانية العام".

هذا ما قاله لوي باستير الذي عرف كيف يطيل الحياة، وسيظل هذا الرجل العظيم مثلا أعلى للفضيلة الإنسانية من جميع نواحيها. وكيف لا يكون كذلك وقد كان في حياته باحثا قديرا، يعطف على البائسين المعذبين، كما كان قوي الشعور بدينه، صادق الحب لوطنه، نبيلا كريما في حياته، مخلصا لعلمه، وقد أحاطته هذه الصفات كلها بجو من الحب والإجلال منقطع النظير، ولباستير كشوف علمية جمة نذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر: علاج مرض دودة القز، وكلرا الدجاج، والجمرة الخبيثة، وسعور الحيوانات، وأسباب التخمر، ووسائل حفظ الأطعمة من التلف، وقد وضعته هذه الكشوف وغيرها في المكان الأول بين علماء الجراثيم، وظل باستير يواصل أبحاثه رغم ما كان يلقاه من مقاومة شديدة من أصدقائه وأعدائه في جميع العلوم، حتى استطاع أن يشهد ثمرة جهاده المضنى العظيم.

ولما شرع يجري تجاربه ويقوم بأبحاثه لمعرفة سبب مرض الجمرة الخبيثة ووسائل علاجها، وهو المرض الذي كان يقضي في كل عاك على ملايين الضأن والماشية في جميع أنحاء العالم ويسبب خسائر عظيمة للزراع، سخر الناس منه ولم يصدقوا أقواله، وبعد أن قضى في تجاربه هذه عدة شهور كتب الرسالة التالية إلى أبنائه يعلن لهم فيها ما وصل إليه من النتائج في وقاية الماشية.

---

(1)Louise Pasteur

- ٤٨

"وتسود البهجة المعمل"

في الثاني من شهر يونيه سنة ١٨٨١

اليوم يوم الثلاثاء لا أكثر، ومع هذا فأنا أكتب إليكم، وسبب ذلك أنا قد وصلنا الآن إلى نتيجة عظيمة؛ وهذا النبأ قد أعلنته في هذه الساعة برقية من ملون[١].

ذلك أننا لقحنا في يوم الثلاثاء الماضي الحادي والثلاثين من شهر مايو جميع الغنم ما طعم منها قبل وما لم يطعم – بجراثيم حمى الطحال الحادة، ولم يكد يمضي على عملنا هذا حتى الآن ثمان وأربعون ساعة، وتقول البرقية إنه لن تنقضي الساعة الثانية بعد الظهر حتى تكون جميع الغنم التي لم تطعم من قبل قد نفقت، فقد مات منها حتى صباح اليوم ثمانية عشر والباقي منها يحتضر، أما التي طعمت من قبل فكلها سليمة، وجاء في ختام البرقية تلك العبارة: "نجاح يذهب العقل"، ومرسلها هو الجراح البيطري مسيو روسنبول[٢].

ولم يحن الوقت بعد لإصدار حكم قاطع في هذه المسألة، فقد تمرض الغنم المطعمة باللقاح الواقي، ولكن إذا سارت الأمور على أذلالها كان لكم أن تستيقنوا حين أكتب إليكم في يوم الأحد المقبل أن هذه الغنم ستحتفظ بصحتها، وأن نجاحنا سيكون بعدئذ نجاحا مدهشا عظيما، وقد ظهرت لنا باكورة النجاح في يوم الثلاثاء، وذلك أن أثنين من الأغنام الخمسة والعشرين التي لقحت بالطعم الواقي واثنين من الخمسة والعشرين التي لم تلقح به لقحت جميعها بميكروبات قوية، فلما أقبل الزوار جميعا في يوم الثلاثاء ومن بينهم مسيو تسران، ومسيو باتينو حاكم مقاطعة السين

---

(1)Melun

(2)M. Rossignol

والمارن، ومسيو فوشيه ده كري(١) وأعضاء من مجلس الشيوخ وغيرهم، وجدنا أن الخروفين اللذين لم يلقحا بالطعم الواقي قد ماتا، أما اللذان لقحا به فقد ظلا سليمين.

وقلت يومئذ لواحد ممن كانوا حاضرين من الجراحين البيطريين: ألم أقرأ لك مقالا موقعا باسمك تقول فيه بمناسبة كشف ميكروب اللعاب الصغير القوي، ها كم الآن ميكروبا جديدا، وعما قليل ستبلغ عدتها مائة؟". فأجاب من فوره جوابا صريحا: "ولكني رجل تاب وأناب". فقلت له: "هل لي أن أذكرك بما جاء في الإنجيل(٢): أقول لكم إنه هكذا يكون في السماء، فرح بخاطئ واحد يتوب، أكثر مما يكون بتسعة وتسعين صديقا لا يحتاجون إلى التوبة":

وقال جراح بيطري آخر من الحاضرين: "سآتيك برجل آخر هو مسيو كولن(٣)" فأجبته: "لقد أخطأت، إن مسيو كولن يعارض حيا في المعارضة، وهو لا يصدق ما نقول لأنه لا يريد أن يصدق، فعليكم أن تداروه أولا من مرض العصابية وليس هذا في مقدوركم!" إن البهجة تسود المعمل والبيت ولكن أن تعتبطوا يا أولادي.

وقد قال تومس هنري هكسلي(٤) في يوم من الأيام إن القيمة المالية لكشوف باستير العلمية الخاصة بمقاومة الجمرة الخبيثة وكلرا الدجاج تزيد على قيمة الغرامة الحربية الضخمة التي فرضتها ألمانيا بعد الحرب الفرنسية البروسية، على أن باستير لم يقنع بما نال من نصر عظيم وتقدير منقطع النظير، بل أخذ يعمل في علاج مرض الكلب حتى قضى هذا العمل على حياته، ثم أنشئ معهد باستير لتطبيق هذا العلاج ومواصلة البحث.

---

(1)Patinot , Tisserand , Foucher de Careil

(٢) لوقا: الآية رقم ٧ الإصحاح الخامس عشر

(3)M. Colin

(4)Thomas Henry Huxely

وقال باستير يوم افتتاح المعهد في معرض المفاضلة بين العلم والحرب: "إن العلم يجعل لحياة الشخص الواحد قيمة أعظم من جميع الانتصارات الحربية، أما الحرب فتضحي بحياة مئات الآلاف لتحقيق مطامع فرد واحد"

ولما حضرت باستير الوفاة في عام ١٨٩٥ بعد أن جاوز السبعين من عمره التفت إلى طلابه الأوفياء المخلصين وقال لهم: "أين أنتم جميعا؟ ماذا تعملون؟ هيا إلى العمل".

إيفان ترجنيف وهو على فراش الموت يتوسل إلى ليوتو لستوي أن يعود إلى أعماله الأدبية

في عام ١٨٤٥ حدث أمر غريب لنقولا الثاني قيصر الروس، وهو ذلك الرجل الذي بذل غاية جهده ليكسب لنفسه لقب "القيصر الحديدي". ذلك أنه قرأ وصف ما يعانيه جنوده في حصار سبستول، وبلغ من تأثره بهذا الوصف أن أمر بأن يعفي كاتبه الشاب من الخدمة العسكرية في الميدان لأن حياته أثمن من أن تضحي بها روسيا، وهكذا ذهب ليوتو لستوي إلى سان بطرسبرج في إجازة، وفيها قابل إيفان ترجنيف[1] لأول مرة. وكان أولهما في السادسة والعشرين من عمره، وترجنيف يكبره بعشر سنين ويتزعم الأدباء الروس في وقته، وأصبح الرجلان من ذلك الوقت صديقين رغم أنفهما، ولعل الذي فرق بينهما هو تلك السنوات العشر التي تفصل بين سنيهما، وكتب ترجنيف إلى صديق له يقول في هذا: "يؤسفني أني لا أستطيع الأقتراب من تو لستوي أكثر مما اقتربت منه – إن ما بين أفكارنا من تعارض ليقف في سبيل هذا الاقتراب".

والحق أن كل ما كان بينهما من تشابه هو أنهما كانا يستمدان أدبهما من الحياة الروسية، وكان كلاهما ينظر إليها بطبيعة الحال نظرة تخالف نظرة صاحبه، فأما ترجنيف فكان ينظر إلى الحياة الروسية على حقيقتها، لم يخدع نفسه فيها قط، وأما تولستوي فقلما كان ينظر إليها دون أن يخدع فيها؛ ويؤثر عن تولستوي أنه قال عن ترجنيف: "إني كلما تقدمت بي السن قل حبي له".

وفي عام ١٨٦١ شجر النزاع بين تولستوي وترجنيف، ولاح وقتا ما أن لا سبيل إلى فض هذا النزاع إلا أن يتبارز الأدبيان، على أنهما لحسن الحظ لم يتبارزا ولكن الخصام دام بينهما أربعة عشر عاما كاملة. ثم مرض تولستوي وظن أنه لن يشفى من مرضه، فكتب إلى ترجنيف يستسمحه، ورد عليه هذا ردا كريما قال فيه: "يسرني

(1)Ivan Turgenev

أعظم السرور أن أقول إني على استعداد لأن أجدد عهد صداقتنا القديمة، وأن أصافح اليد التي مددتها إلي". وقضي في ذلك العام نفسه عدة أيام مع تولستوي، ووصفه وقتئذ بقوله إنه كان "شديد الصمت"، ولكنه ارتقى كثيرا عن ذي قبل". وكان صلحهما صلحا حقيقيا لا شك فيه، وإن لم يكن بينهما شيء من الحب.

وقضى ترجنيف معظم سني حياته الأخيرة في خارج روسيا، ويرجع بعض السبب في هذا إلى ما لقيته بعض أعماله الأدبية فيها من إعراض، كما يرجع بعضه إلى رغبته في أن يكون قريبا من المغنية العظيمة فيادرو جارشيا(١) التي كان يعبدها عبادة. وفي عام ١٨٨٣ تبدلت الحال غير الحال، وحدث عكس ما حدث في عام ١٨٦١؛ فقد مرض ترجنيف واتجهت أفكاره إلى تولستوي، وكان قد طال انقطاعه عن الأعمال الأدبية، لما كان مصابا به وقتئذ من اضطرابات نفسية، فكتب إليه ترجنيف وهو على فراش المرض الرسالة الآتية:

٤٩ –

"إني جد فخور بأن كنت من معاصريك ..."

[بوجفال في ٢٧ و ٢٨ من شهر يونيه سنة ١٨٨٣]

صديقي الطبيب العزيز ليوف نقولا يفتش:

لم أكتب إليك من زمن طويل لأني كنت ولا أزال في واقع الأمر على فراش الموت، وليس ثمة أمل في أن أستعيد صحتي، بل إن هذا الأمر غير خليق بأن يفكر فيه، وفي الحق أني لم أكتب إليك إلا لأخبرك أني جد فخور بأن كنت من معاصريك، وأن أرجوك رجاء حارا هو آخر ما أرجوك فيه وهو أن تعود يا صديقي إلى أعمالك الأدبية! إن هذه الموهبة التي وهبتها قد جاءتك من مصدر الأشياء جميعها كما تعرف، وكم أكون سعيدا إذا أيقنت أن رجائي هذا سيكون له أثر في نفسك!

---

(1)Pauline Viadrot Garcia

إن سراج حياتي يوشك أن ينطفئ ، بل إن الأطباء أنفسهم لا يعرفون ماذا يسمون مرضي ... فيقولون إنه مرض عصبي معدي نقرسي. وقد عجزت عن المشي والأكل، وامتنع عني النوم. وماذا أستطيع أن أفعله بعد؟ إن مجرد التحدث عن هذا المرض ليضايقني ويقض مضجعي.

أتوسل إليك يا صديقي يا كاتب أرض الروس العظيم أن تستجيب لرجائي.

ومات ترجنيف بعد خمسة أسابيع من ذلك الوقت، واستجاب تولستوي لدعوته وإن لم يستجب بها من فوره، فكتب بعد ذلك روايتي "البعث"[١] "ما هو الفن؟"[٢].

وظهر هذا الكتاب الأخير في عام ١٨٩٨، وما من شك في أن القارئ النزيه لا يسعه بعد قراءته إلا أن يتذكر قول ترجنيف قبل أربعين سنة من ذلك الوقت حين كانت صداقته مع تولستوي توشك أن تنقطع: "لو أن تولستوي لا يتفلسف لأحسن إلى الناس وإلى نفسه".

---

(1)Resurrection

(2)What is Art

ب . ت . بارنم يعرض عملا على القائد يولسيز . س . جرانت

حلت بالقائد يولسيز . س . جرانت[1] في عام ١٨٨٤ ضائقة مالية شديدة وهو في الثانية والستين من عمره بعد سبع سنين من نهاية رياسته الثانية للجمهورية الأمريكية، وذلك أن إفلاس أحد المصارف الأمريكية حمله دينا يبلغ مائتين وخمسين ألف ريال أصبح مدينا بها إلى و . هـ . فيدر بلت[2]. ولم يجد لديه وسيلة لأدائها إلا أن ينزل لدائنه عن جميع أملاكه وأملاك زوجته. ولما سمع بذلك "أكبر رجال المعارض في العالم" الذي يسمى نفسه "أمير المحتالين"، وكان قد قابله من قبل، عرض عليه بنفسه العرض الآتي:

— ٥٠

"... سأعطيك مائة ألف ريال نقدا ..."

نيويورك في ١٢ يناير سنة ١٨٨٥

إلى القائد ي . س . جرانت رئيس جمهورية الولايات المتحدة مرتين .. إلخ

أيها السيد المبجل؛ إن العالم كله يجلك ويعزك، والناس كلهم يرغبون في أن تعيش سعيدا مستريحا من المتاعب والهموم. وهم وإن أعجبوا بشهامتك التي دفعتك إلى أن ترفض المبلغ الكبير الذي عرضه عليك أصدقاؤك من عهد قريب، فإنهم يرغبون في أن يروك وقد استعدت استقلالك المالي من أشرف السبل، وقد قرأنا كلنا عما أهدي إليك بعد انتصاراتك من تذكارات قيمة فريدة في نوعها، وإنا لنرغب جميعا في أن نرى بأعيننا ما حباك به الملوك والأمراء والأفراد في جميع أنحاء العالم من دلائل الحب والإجلال — وتلك رغبة محمودة من غير شك.

---

(1)Ulysses S. Grant

(2)W. H. Vanderbilt

فإذا سمحت لبني جنسك من رجال ونساء أن يروا هذه الشواهد الناطقة بفضلك، فإنك تسدي إليهم بذلك جميلا مخلدا، وتنجو في الوقت نفسه مما أنت فيه من متاعب بأحسن الوسائل وأشرفها؛ ذلك أني أعطيك مائة ألف ريال نقدا ونسبة معينة مما أحصل عليه من الأرباح إذا سمحت لي بأن أعرض هذه الآثار على الجمهور الشاكر لك المقدر لفضلك.

وسأودع لديك فضلا عن هذا صكوكا مالية ترتضيها قيمتها نصف مليون ريال ضمانا لاحتفاظي بها وردها إليك سليمة.

وستعرض هذه الآثار القيمة التي يفخر بها جميع أصدقائك على الملايين من المعجبين بك عرضا يسرك أنت وترضى عنه خير عناصر المجتمع كله، وإذا ذكرت أن آثار واشنجتن ونابليون وفردرك الأكبر وغيرهم من العظماء قد بعثت السرور في قلوب الملايين الذين سمح لهم برؤيتها، فإني لا يخالجني شك في أنك لن تحرم الجماهير من هذه المتعة التي ستعرض عليهم بهذه الطريقة الشريفة المقترحة، وبذلك تغرس فيهم فضائل الشرف والجد والوطنية الحقة التي تمثلها حياتك أصدق تمثيل.

ويشرفني أن أكون صديقك المخلص لك المعجب بفضلك.

ب . ت . بارنم

ورفض جرانت هذا العرض في أدب جم محتجا بأن مستر فندر بلت وعد أن يهدي هذه الآثار إلى أحد متاحف واشنجتن، حيث يستطيع أن يراها كل من يشاء، فرد عليه بارنم بقوله: "هذا صحيح يا سيدي القائد ولكن ملايين الناس الذين لن يزوروا واشنجتن سيأسفون لأني لم أحمل إليهم هذه الآثار التاريخية حيث يستطيعون رؤيتها".

وتحسنت أحوال القائد جرانت المالية إلى حد كبير بعد أن أتم مذكراته الشخصية في ظروف صعبة مجهدة، وهو يقضي أيامه مريضا بالسرطان في حلقه، وقد أتم الصفحة الأخيرة منها قبل موته بأربعة أيام في ويليه سنة ١٨٨٥، بعد ستة شهور من الرسالتين المتبادلتين بينه وبين بارنم.

انطون تشيكوف يؤنب أخاه نقولاي ويصفه بأنه رجل غير مثقف

كان تشكوف[1] يعتقد أن الناس سينسونه بعد خمس سنين أو عشر، وأن كل ما له على الأدب من فضل "أن الطريق الذي مهده سيظل سالما أمينا". ولكن تشكوف لا يزال حتى اليوم عميد كتاب القصص القصيرة، لا ينازعه في هذا المقام إلى مويسان[2]، ولا يزال يحتفظ فضلا عن هذا بمكانة عالية بين كتاب المسرحيات، تشهد بذلك مسرحيته الشهيرة "بستان الكراز"

وقد قال تشكوف عن نفسه إن قصصه كانت تكتب نفسها بنفسها، وإن كل ما كان يفعله هو أن يجلس على مقعده، ويمسك بقلمه في يده، ثم يكتب، وسأله صديق عن الطريقة التي يتبعها في عمله فأمسك بمنفضة الدخان وقال لهذا الصديق إنه سيقرأ في غد قصة اسمها "منفضة الدخان". وكان تولستوي يأسف لأن تشكوف كان طبيبا ويقول عنه إنه لو نسى الطريقة العلمية لكان خيرا مما هو، وتسري في مقالات تشكوف وأقاصيصه كلها روح الفكاهة، وكان يوقع بعضها بأسماء مستعارة غريبة منها "طبيب بلا مرضى"، "أخو أخي"، "رجل بلا طحال". ولا تقل رسائل تشكوف عن قصصه بهجة ومتعة، ومنها الرسالة الآتية التي كتبها إلى أخيه نقولاي ينصحه:

٥١ –

"... حطم زجاجة الفودكا .."

مسكو ١٨٨٦

طالما شكوت إلي من أن الناس "لا يفهمونك"، إن جوت ونيوتن[3] لم يشكوا من

---

(1)Anton Chekhov

(2)Maupassant

(3)Newton , Goethe

ذلك ... ولم تصدر هذه الشكوى إلا من المسيح، ولكنه في شكواه كان يتحدث عن عقيدته لا عن نفسه ... إن الناس يفهمونك حق الفهم، وإذا كنت أنت لم تفهم نفسك فليسوا هم الملومين.

وأؤكد لك تأكيد الأخ والصديق أني أفهمك وأعطف عليك من كل قلبي، وأعرف فضائلك كما أعرف أصابع يدي، وأقدرها وأجلها أعظم إجلال. وإذا شئت أن أبرهن لك على أني أفهمك فإن في وسعي أن أعدد لك تلك الصفات.

إني أظن أنك رقيق القلب إلى حد الضعف، وأنك نبيل بعيد كل البعد عن الأثرة، لا تتردد في أن تقتسم مع غيرك آخر درهم معك، لا تحسد الناس ولا تكرههم، طيب القلب سليم من المكر، رحيم بالناس والحيوان، كثير الثقة، سليم من الحقد والغيظ، سريع النسيان للشر ... قد أنعم الله عليك بنعمة لم ينعم بها على غيرك، ذلك أنك رجل موهوب، وهذه النعمة ترفعك فوق آلاف الآلاف من بني الإنسان، لأن الفنانين في هذه الدنيا لا يزيدون على واحد في كل مليونين، فموهبتك الفنية تميزك من غيرك، ولو أنك كنت ضفدعة أو عنكبوتا لأجلك الناس مع ذلك لأنهم يغتفرون كل شيء للرجل الموهوب:

وليس فيك إلا عيب واحد، هو منشأ كل ما تعانيه من مركز زائف، وشقاء، والتهاب في الأمعاء، ذلك أنك رجل غير مثقف، وأرجو ألا يسوئك هذا فإن الحب أعظم دعامة للصداقة.

... وأنت ترى أن للحياة ظروفها الخاصة، وأن الإنسان إذا أراد أن يعيش مرتاح البال بين المتعلمين، سعيدا بينهم وعلى وئام معهم، فلا بد أن يكون له نصيب من الثقافة، وقد حشرتك مواهبك في زمرتهم، فأصبحت واحدا منهم ولكنك ... أبعدت عنهم، فأنت تارة داخل دائرة المثقفين وتارة أخرى على أطراف هذه الدائرة.

وأنا أرى أن المثقفين يجب أن تتوافر فيهم الشروط الآتية:

١- إنهم يعظمون الشخصية الإنسانية، ولهذا تراهم دائما رحماء، ظرفاء، مؤدبين،

على استعداد لأن يكونوا ليني الجانب مع غيرهم من الناس، لا يتنازعون على التافه من الأمور، إذا عاشروا الناس لم يعدوا ذلك تفضلا منهم، وإذا فارقوهم لم يقولوا لهم "إن أحدا لا يستطيع أن يعيش معكم" يعفون عما يصادفهم من الضوضاء والبرد والطعام غير الشهي والنكات، ولا يتألمون لوجود الغرباء في بيوتهم.

٢- وهم لا يخضون بعطفهم المتسولين والقطط فحسب، وتتفطر قلوبهم مما لا تراه أعينهم ... وهم يقومون الليل يفكرون فيما يقدمونه من عون لغيرهم ..، أو في أداء الرسوم الجامعية لأخوتهم، أو شراء الملابس لأمهاتهم.

٣- وهم لا يعتدون على ملك غيرهم، ويؤدون ما عليهم من ديون.

٤- وهم أوفياء مخلصون يرهبون الكذب كما يرهبون النار، فلا يكذبون حتى في صغائر الأمور، ذلك أن في الكذب تحقيرا للسامع لأنه يضعه في منزلة أخطر من منزلة المتكلم، وهم لا يتصنعون فلا يختلف مسلكهم في الطريق عن مسلكهم في البيت، ولا يتباهون بأنفسهم أمام من هم أقل منهم درجة من رفاقهم، لا يثرثرون ولا يفضون بأسرارهم إلى الناس يرغمونهم على الاستماع إليها دون أن يطلبوها، يصمتون أكثر مما يتحدثون رأفة منهم بآذان غيرهم من الناس.

٥- وهم لا يحقرون أنفسهم ليستثيروا شفقة الناس عليهم، ولا يلعبون على أوتار قلوب غيرهم ليرثوا لحالهم ويحسنوا الظن بهم، ولا يقولون قط: "إنا قد أسيء فهمنا" أو "إنا قد أصبحنا في المنزلة الثانية" لأن هذا كله ليس إلا سعيا وراء الكسب الرخيص، وهو عمل دنئ، مبتذل باطل ...

٦- وهم بعيدون عن الغرور السخيف، لا يبالون بالعظمة الكاذبة التي ينالونها من وراء معرفة عظيم أو مصافحة سكير، أو الشهرة في الحانات أو الإصغاء إلى طرب مشاهد ساقته الصدفة إلى معرض الصور ... وإذا عملوا عملا يستحق أن يجزوا عليه بردهم لا يختالون به كأنهم عملوا ما يستحقون عليه مئات

الدنانير، ولا يفخرون بأنهم يدخلون حيث لا يسمح لغيرهم بالدخول ... إن ذوي المواهب الحقة يحبون أن يبقوا على الدوام بعيدين عن أعين الجماهير، وهم أقل الناس إعلانا عن أنفسهم ... وقد قال كريلوف[1] إن الإناء الفارغ أعلى صوتا من الإناء المليئ:

٧- وإذا كانت لهم موهبة عظموها، وضحوا في سبيلها بالراحة وبالنساء والخمر والكبرياء ... وهم يفخرون بموهبتهم ويتأنقون في أعمالهم ..

٨- وهم ينمون حاسة الجمال في أنفسهم، ولا ينامون بملابس النهار، ولا يطيقون رؤية الشقوق ملائي بالبق في الجدران، أو تنفس الهواء الفاسد، أو المشي على أرض بصق عليها الناس، أو طهي طعامهم على موقد زيت، وهم يحاولون جهدهم أن يكبحوا جماح غريزتهم الجنسية وأن يسموا بها ... وليس الذي يطلبونه من المرأة أن تكون ضجيعتهم ...ولا يطلبون ذلك النوع من الحذق الذي يظهر في القدرة على الكذب المستمر، وإذا كانوا فنانين فإن أهم ما يطلبونه في المرأة هو النضارة والرشاقة والإنسانية والقدرة على الأمومة ...

وهم لا يحتسون الخمر في جميع ساعات النهار والليل، ولا يتشممون الأشياء المخبأة لأنهم ليسوا خنازير ولأنهم يعلمون أنهم ليسوا كذلك، وهم لا يشربون إلا في المناسبات الخاصة على شريطة ألا يكون لديهم عمل .. لأنهم يريدون لأنفسهم عقولا سليمة في أجسام سليمة.

هذا بعض ما يتصف به المثقفون، فإذا أردت أن تكون مثقفا، وألا تكون في منزلة أقل من منزلة من حولك من الناس فليس يكفيك أن تقرأ رواية بكوك يبرز[2] أو تحفظ حديثا من فوست[3] ..

---

(1)Krylov

(2)Pickwick Papers

(3)Faust

إن الذي تحتاجه هو الدأب على العمل بالليل وبالنهار والقراءة المستمرة، والدرس والإرادة القوية ... لا تضيع وقتك سدى لأن كل ساعة من ساعات النهار عظيمة القيمة ..

تعال إلينا وحطم زجاجة الفودكا، ولا تنقطع عن القراءة حتى وأنت نائم ... أقرأ ترجنيف إذا شئت فإنك لم تقرأه.

دع الكبرياء جانبا، فلست طفلا صغيرا ... وستبلغ الثلاثين بعد قليل ... لقد حان الوقت!

إني في انتظارك ... بل كلنا في انتظارك.

ولسنا نعرف هل أفاد أخوه من هذا النصح أو لم يفد منه، ولكن تشكوف كان من غير شك مؤمنا بما يقول، وأصدقاؤه كلهم مجمعون على أنه كان رجلا رؤوفا رحيما، دمث الأخلاق، رقيق الطباع مخلصا، ولما اختير صديقه جوركي(١) عضوا في مجمع العلوم، ثم حالت آراؤه السياسية بينه وبين العضوية استقال تشكوف من هذا المجمع "لأن ضميره لا يرتاح إلى هذا العمل"

وقد شاهد تشكوف قبيل وفاته مسرحيته الشهيرة "بستان الكراز" تمثل بنجاح في مسرح الفن بموسكو، ومن أشهر رواياته الأخرى "الأخوات الثلاث" و"العم فنيا"

وقد مات تشكوف بداء الرئة في ألمانيا ثم نقلت جثته إلى روسيا.

---

(1)Gorki

سير وليم أزلر يرسل تقريرا عن الحياة في الدار الآخرة على لسان ابنه المتوفي

[رسالته إلى زوجته]

كان سير وليم أزلر[1] رجلا طيب القلب، شفيقا، خيرا، ذا فضل كبير على التعليم الطبي وعلى الطب بوجه عام. وكان مرضاه وطلابه وزملاؤه يلقبونه "بالرئيس"؛ وكان هو يحبوهم بعلمه الواسع وفكاهته وطيبة قلبه. ولما أعلنت "مدرسة جون هيكنز الطبية[2]" المؤهلات العلمية التي تجيز الدخول فيها، وكانت مؤهلات عالية في تلك الأيام، قال أزلر لأحد زملائه: "من حسن حظنا يا ولش[3] أننا ندخلها أساتذة لأنه لن يكون في وسعنا قط أن ندخلها طلابا"

وكان أزلر شديد الحب للأطفال، يتبادل الرسائل الكثيرة مع صغار الأولاد والبنات، يضايقهم تارة ويسليهم ويظهر لهم الحب تارة أخرى، وقد تحدث عنه صديق له في حفلة شاي حضرها فقال: إنه كان يصر على أن تقطع الكعكة مربعات من داخلها، وكان يقدم للضيوف أكوابا ملأى بالسكر وليس فيها من الشاي إلا نقطتان أو ثلاث نقط، وكان يؤكد لنا فوق هذا عكس ما تعلمناه طوال حياتنا، وهو أن من واجب الإنسان أن يلعق أصابعه جميعها بعد إصبع إذا أكل شيئا لزجا، وأن الطريقة المثلى الوحيدة للتلذذ بأكل الخبز والمربى أن تملأ الصفحة بالمربى وأن توضع فيها

---

(1)Sir Willam Osler

(2)John Hopkins

(3)Welch

فتات قليلة من الخبز وأن تؤكل كلها بالملعقة! ومن أقواله أيضا إن خير طريقة لأكل الشوكولاتة أن يفتح الإنسان فاه ويغمض عينيه ثم يقذف قطعها في فمه شخص آخر يجلس في الجهة المقابلة له من المائدة"

وفي عام ١٨٩٢ تزوج أزلر بجريس رفير جرس[١] من غير أن يخبر بذلك زملاءه أو أصدقاءه، وزار صديق له مسز جرس فوجد أزلر جالسا معها في الحديقة، وطلب أزلر إلى الصديق أن يتغدى معهما، وبعد الغداء استأذنت مسز جرس قائلة إن عربة في انتظارها، وقال أزلر إنه هو أيضا ذاهب في طريقها، وإنه يريد أن يرافقها، فلم يسع الضيف إلا أن يحييهما وينصرف، ولكنه تلقى بعدئذ برقية جاء فيها:

"إنا نشكر لك كل الشكر أن حضرت مأدبة زفافنا". وكانا سعيدين في حياتهما الزوجية، فقد كان كلاهما شديد الصبر، عذب الفكاهة مخلصا محبا، ولما ولد لهما أول طفل ابتهجا به أعظم ابتهاج، لأنهما كان يحبان الأطفال، ولكن هذا الطفل مات قبل أن يتم الأسبوع الأول من حياته، وبعد هذه الفاجعة بزمن قصير وجدت مسز أزلر رسالة على منضدة زينتها معنونه "إلى أمي العزيزة" ومرسلة من "الجنة" وموقعة بإمضاء "بول رفير أزلر"[٢]. وكان زوجها بطبيعة الحال كاتب هذه الرسالة الغريبة الفكهة المحزنة.

٥٢ —

".. استيقظت في بقعة جميلة خضراء ..."

[فبراير سنة ١٨٩٣]

إذا كنا صالحين، وكنا نجيد الغناء، وإذا ظل آباؤنا في الدنيا يظهرون اهتمامهم بنا بالدعاء لنا في صلواتهم، سمح لنا بأن نكتب مرة كل ثلاثة أشهر أو أربعة، لقد وصلت

---

(1)Grace Revere Gross

(2)Peul Revere Osrel

إلى هنا سالما، ولم ألق إلا مشقة يسيرة جدا، وظللت أجهل كل شيء حتى استيقظت في بقعة جميلة خضراء، فيها عيون وأشجار وآرائك وثيرة وحور عين يعنين بنا، ولو أنك رأيت المئات الذين جاءوا معي في نفس اليوم لسرك هذا، ولكن علي أن أحدثك أولا عن نظامنا الذي لم أهتد إليه إلا بعد عدة أيام، إن الجنة من حيث سكانها صورة طبق الأصل من الأرض، فالذين يأتون من الولايات المتحدة مثلا يذهبون كلهم إلى مكان واحد، فيقيم الجميع الذين يأتون من ميري لاند[١] مثلا في مركز واحد، بل إن الذين يأتون من مدينة واحدة أو بلدة واحدة يخصص لهم مكان وحدهم، وبفضل هذه الطريقة يستطيع الملائكة الموكلون بالحراسة أن يحتفظوا بثبت الأسماء بعناية، كما أن هذه الطريقة تيسر الاتصال بين الأقارب، وهم في الجنة يهتمون بهذا التنظيم كل الاهتمام، ولديهم طريقة لطيفة سهلة يعرف بها القادمون الجدد من فورهم هل لهم صلات بمن في الجنة؟ ولم أدهش قط في وقتي – ونحن في الجنة نقول وقتي ولا نقول حياتي ولا الخلد لأن الحياة والخلد لم يبدأ بعد بالنسبة إلينا – كما دهشت حين جاءتني إليتا[٢] بعد يوم واحد من وصولي وقدمت إلي ريشتين كتب على إحداهما يوليوس قيصر وعلى الأخرى إما أزلر[٣]. فأما الاسم الأول فقد عرفت صاحبه من فوري ... وأما الثاني فلم أعرفه قط، ولكنها قالت لي إن صاحبته كانت أخت أبي الصغرى، وإنها أرسلت إلي لتشعرني بالسعادة والطمأنينة ..

ونحن نختلف عن الملائكة الحقيقيين في أننا لا علم لنا بالمستقبل، ولا نستطيع أن نعرف ما سيحدث لمن هم على الأرض من أحبائنا، وأعظم ما نبتهج به في غير أيام الأعياد الكبرى التي نغني فيها جماعات في أقسامنا في السموات العلى هو أن نرقب الأرواح حين وصولها إلى أقسامنا، وأن نساعد الملائكة على تنظيم هذه الأرواح وتدريبها أحسن تدريب.

---

(1)Maryland

(2)Althea

(3)Emma Osler

ولا تكاد تمضي ساعة في قسم الأطفال حتى يستثير مشاعرنا قدوم أب أو أم أو أخ أو أخت وانضمامه أو انضمامها إلى واحد منا. ومنا ألف يعرف بعضهم بعضا، ولهذا فإنا يسرنا كل السرور أن نشاهد رفاقنا وأصدقاءنا يعنون بأقاربهم ويشعرونهم بأنهم بين أهلهم وذويهم.

وولد لأزلر ابن ثان كان شديد الحب له، وعلمه أن يعجب بما يعجب به هو، وظل طول حياته أخلص أصدقائه، وكان أزلر في الحرب العالمية يعنى بالجرحى في المستشفيات، أما ابنه إدوارد فقد انضم إلى الجيش وسافر إلى فرنسا، ولما قتل حزن عليه والده أشد الحزن وقال: "إن الأقدار لم تسمح لي بأن يلازمني السعد حتى أوارى في قبري، فلا تقولوا عن أحد إنه سعيد حتى يموت ...". وأثرت هذه الفاجعة في أزلر فمات بعدها بعامين مقروح الكبد كسير القلب، ولكن حزنه لم يفقده إنسانيته وحبه وفكاهته.

لفكا ديو هيرن يوازن بين فكرتي الحب عند الشرقيين والغربيين

رسالته إلى بازل هول تشيمبرلن

لما سافر لفكا ديو هيرن[١] إلى اليابان لبس ملابس يابانية، وتجنس بالجنسية اليابانية، وتزوج بامرأة يابانية، واتخذ له اسما يابانيا هو بانومو كيزومي[٢]، واعتنق الديانة البوذية. وغريب أن يكون هذا هو مصير رجل أمه يونانية وأبوه ايرلندي.

ولكن حياته كلها كانت حياة غريبة غامضة، ولد هذا الرجل في عام ١٨٥٠ في جزيرة لوكاديا أو لفكاديا[٣] من جزائر اليونان، ثم انتقل أثناء طفولته إلى إيرلندة حيث تبنته عمته، ثم نراه في ويلز ثم في إحدى كليات اليسوعيين في شمال فرنسا، ثم في درم[٤] في إنجلترا. وعاش بعدئذ فقيرا معدما في لندن، ولما ماتت عمته هاجر إلى أمريكا ونزل في نيويورك، ولكنه لم يجد فيها غير الفقر، ففر منها إلى سنسناتي[٥] وعمل في إحدى الصحف، ولم يبدأ عمله المنتج الحقيقي إلا بعد أن استقر في جزيرة مرتنيك[٦] حيث أرسلته إحدى الجرائد ليكون مراسلا لها. ولما عاد إلى نيويورك في عام ١٨٨٩ استطاع أصدقاؤه أن ينجوه من الموت جوعا بأن أرسلوه إلى اليابان حيث أعانه صديقه بازل هول تشيمبرلن[٧] على أن يوظف مدرسا في مدينة متسو[٨].

وفي اليابان بدأ يحيا حياة مستقرة، فنبذ الإلحاد كما نبذ من قبل المذهب

---

(1)Lafcadio Hearn
(2)Yatumo Koizumi
(3)Lafcadio or Leucadio
(4)Durham
(5)Cincinati
(6)Martinique
(7)Basil Hall Chamberlain
(8)Matsu

الكاثوليكي واعتنق الديانة البوذية، وكتب عن اليابان كتبا وصف فيها حياة أهل البلاد وعاداتهم وتفكيرهم وصفا يفيض عطفا عليهم، ورسائله وكتبه كلها ملأي بالموازنة الممتعة بين الشرق والغرب، ومنها الرسالة الآتية التي بعث بها إلى تشيمبرلن والتي يوازن فيها بين فكرة الحب عند اليابانيين وعند الغربيين:

– ٥٣

".. والياباني يرى أن مجرد ذكر زوجته عيب كبير ..."

في ١٧ إبريل سنة ١٨٩٣

عزيزي تشيمبرلن:

.. لقد وجدت أن ليس من المألوف في هذا البلد أن يزور الإنسان مدير المدرسة، وأنا لم أتحدث إليه مرة واحدة إلى هذا اليوم، ولكن الذي يتضح لي أنه رجل يحب النظام.

فقد أصبحت الأمور بعد مجيئه أكثر دقة مما كانت قبل، لقد ضبطت الساعة التي كانت من قبل تدق الثانية عشرة قبل موعدها بساعة كاملة، ووضعت ألواح كتب عليها بحروف صينية وقواعد محددة دقيقة، ولما اجتمع الطلاب ليستمعوا إلى خطب طويلة لم يكادوا يقفون في الصفوف حتى صرفوا ولم تلق عليهم إلا بضع كلمات مختصرة صريحة.

والمدير الجديد رجل ظريف، يبدو كأنه يهودي وسيم، يسير بخطى واسعة كخطى النعامة، وليتني أعرف ما يكتنفه من غموض، ولكن لم أكتب هذه الرسالة؟ إني أكتبها لأن فكرة طرأت علي محددة بعض التحديد، إن المشكلة اليابانية مشكلة ضخمة، ولذلك لا أراني مخطئا إذا اعتقدت أن من واجبك أن تستمع إلى فكرة طرأت لي عنها لا أزال مستمسكا بها، وقد لاحت لي هذه الفكرة حين أطلعت على الصحيفة الأمريكية التي كنت محررها الأدبي. فهي تأتي إلى ملأي بالأعمدة المعنوية "هذر النساء" "والأزياء الحديثة"

والنساء في الفن ورسالة كلارا بل[1] عن صغر القدمين وما إلى ذلك، وكل هذه الأقوال تصحبها صور تمثل نسوة عجيبة في ملابس عجيبة وما فيها من شعر جديد يدور كله حول الحب واليأس؛ أما القصص فكلها عن العاشقين المتيمين والغواني القسيات القلوب، وتلك كلها أمور تعافها الآن نفسي، ومع هذا فقد كنت أعتقد أن هذه الصحيفة مهذبة إذا قيست إلى غيرها من الصحف، وسواء كان هذا أو لم يكن فإنها مثل لمئات غيرها، وهي مثل يوحي إلى الإنسان بالشيء الكثير.

ويناديني طلابي قائلين: "أي أستاذنا! لم كانت الروايات الإنجليزية كلها تدور حول الحب والزواج؟ إن هذا يبدو لنا غريبا"، وهم حين يقولون "غريبا" إنما يقصدون أنه "بذيء" وأحاول أن أفسر لهم فأقول:

– "أي أبنائي الأعزاء! إن دنيا الغرب ليست كدنيا الشرق، فليس يخاف عليكم أن النظام الذي يقوم عليه المجتمع في الغرب هو الملزم بتكوين الأسرة، وليست الأسرة هي التي تكون الرجل، أما الشيء الذي لا تعرفونه فهو أن الحياة للرجل البادئ المتعلم الذي لا مال له ليست إلا كفاحا رهيبا مريرا –كفاحا لا رأفة فيه ولا رحمة، والزواج الذي يعد في اليابان من أسهل الأمور وأكثرها مجاراة للطبيعة تراه في الغرب من أكثر الأمور صعوبة وأشدها خطورة، ومع هذا فإن الزواج هو المحور الذي تدور عليه حياة الرجل كلها، فإذا لم يكن له زوجة لم يكن له بيت. وهو يسعى للنجاح ليجمع من المال ما يعينه على الزواج، والنجاح في الحياة يؤدي إلى النجاح في الزواج، ولكن العقبات التي يصادفها في طريقه كثيرة في عددها عجيبة في نوعها" ... (وأواصل شرحي قائلا): "ومن أجل هذا تتحدث الروايات الإنجليزية عن الحب والزواج أكثر مما تتحدث عن أي شيء آخر، وذلك لأن الحب والزواج هما كل شيء في حياة الطبقات الإنجليزية الوسطى على الأقل، والطبقات الوسطى تحب هذه الكتب، وتغدق المال على من يجيدون تأليفها، لأنهم يظهرون العطف على آلام المحبين

(1)Clarn Bell

الخيالية – وهذا ما لا تفعلونه أنتم – لأنكم لا تستطيعون فعله – وأظنكم على حق في هذا، كما هم على حق في ذاك".

ومع أنني أعلم أن في تفسيري هذا كثير من التحيز، فإني لا أستطيع أن أدخل فيما عدا هذا من التفاصيل دون أن أجازف بالإساءة إلى سمعتي، أما هذه التفاصيل الأخرى فيمكن الحصول عليها من الصحيفة الأمريكية التي أشرت إليها من قبل، وهي نموذج لطراز معين من الصحف، وفي إنجلترا من أمثالها ما لا يمكن حصره، ولكن الصحف التي لا تجاري في هذا المضمار هي الصحف الفرنسية يفاري، والفيجارو، ويتي جورنال يوررير (الصحيفة المضحكة الصغيرة[١]) وما إليها.

وأي شيء تحدثنا عنه هذه الصحف؟ أظنها تحدثنا عن هذا.. وهو أن المدينة الغربية مغمورة في جو من .. الشهوانية المصطنعة، وأن كل ما يستطاع فهمه من الفنون والآداب يوجه بأجمعه إلى الناحية النسائية الخالدة، وأن مسراتنا كلها – من تمثيليات عادية وغنائية، ومن روائع النحت والتصوير والموسيقى الحديثة – قد وضعت كلها بقصد إثارة الأفكار الجنسية، وليس هذا كل شيء، بل إن التلذذ بهذه الأفكار – الشهوانية – لتظهر في أدق تفاصيل عملهم أو مخترعاتهم – سواء كانت رسما على علبة للسجاير لممثلة أو راقصة في حفلة، أو كانت نقشا على بناء حكومي، أو لعبة طفل، أو مصباحا برنزيا في يد تمثال لحسناء عارية تقف عند أسفل الدرج في قصر من القصور.

وإذا كان المال هو معبود الغربيين فهم إنما يعبدونه لأنه يقربهم من النساء، ولست أنكر أننا في تربية أبنائنا نرمي إلى تأخير وقت البلوغ وما يصحبه من انفعالات نفسية بقر ما نستطيع ، وذلك لكي نوفر للفرد قوة مخزنة، ومن أجل هذا نسلك سبيل الكذب والخدع وإخفاء الحقائق والرياء للوصول إلى غرض شريف؛ ولكن الأطفال إذا أصبحوا رجالا ونساء، وجدوا أنفسهم فجأة وقد أحاط بهم جو الأنوثة الذي لا نهاية له، والذي لا يستطيعون أن ينجوا منه في مستقبل حياتهم، إلا بالفرار

---

(1)Le Petit Journal pour Rire. , Le Figaro , Le Sharivari

إلى بلد أقل مدنية من بلدهم.

ولا حاجة بي إلى التحدث هنا عما ينجم عن هذه الهجرة من الشرور، لأن هذه الهجرة وشرورها من الحوادث العارضة، ولذلك كان الحديث عنها لا يشفي عليلا.

والياباني يرى أن مجرد ذكر اسم زوجته عيب كبير، وأن أقل ما يمكن أن يوصف به المتحدث عن أطفاله أنه من سوء الأدب، وليس معنى هذا أن الياباني مجرد من عاطفة الحب، – فالحب في رأيه لا غبار عليه – ولكنه يظن أن مجرد ذكره يوحي بأمور أخرى – وهي أمور لا غنى عنها للحياة، ولكنها مع ذلك أمور مشئومه، وهو يعرف زوجته بصديقه الأوربي، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه قيل له إن هذا العمل عادة متبعة عند الأوروبيين، وإن كان هو يراها عادة غريبة همجية، وفيما عدا هذا فإن النساء اليابانيات يعشن في عزلة وقد ألفن هذا النوع من الحياة ، ويعتقدن أنهن سيفقدن سعادتهن وظرفهن إذا أكرهن على الخروج منها، والياباني لا يتحدث عن زواجه إلا لنفر قليل من خاصة أصدقائه يدعوهم لحفلة عرسه، وهو أقل من هذا ذكرا لمولد طفله، وذلك لأسباب لا تخفى على أحد، وهو ينظر إلى الرواية الإنجليزية على أنها قطعة من السفه السقيم القبيح، ويرى في المرقصة[1] الباريسية من الآثام أكثر مما كانت تراه فيها الشيمة البروتستنتية المتزمتة .. وهو يعيش في جو هادئ خال من الخداع، والفنانون اليابانيون يصيبون أكبر قسط من النجاح إذا ما حاكوا الطبيعة وأقل قسط منه إذا ما صوروا الإنسان، أما نحن فالأمر لدينا على عكس هذا، ترى أي الظروف أكثر ملاءمة للرقي العقلي في المستقبل، أهي ظروفنا نحن أم ظروفهم؟ (إني أجازف بهذا القول كله). ويبدو لي أن الظروف المحيطة بالتفكير العاطفي في الغرب سقيمة تثير في الإنسان أشد الغيظ، على أني أظن أن هذه الظروف تبعث على الشر دون غيره، بل أعتقد أنها قوة مبدعة بأرقى معاني الإبداع، ولست أنكر أن هذه العملية بطيئة وأنها تصحبها حوادث قبيحة، ولكن نتائجها قد تكون عظيمة، إن عبادة النساء وعبادة الغرائز الجنسية تعمل على إيجاد

(1) Ballet

بعض الفضائل الخلقية وتنميها إلى حد كبير، وكما أن سرور العين بالون قد نشأ من تعودها النظر إلى ما يشع شهوة الطعام، كذلك تنمو المتعة الروحية من الإحساس الغامض بجمال الجسم، وما من شك في أن هذه المتعة الروحية سترفع آخر الأمر من شأن الإنسان وترقق إحساساته، وتقلل من شأن متعته الجسمية ومن أنانية.

نعم إن هذه المتعة وتلك الأنانية هما اللتان لمن ينظر إلى الصحيفة الأمريكية السالفة الذكر مثلا، ولكن هذه النظرة السطحية لا تكشف عن الحقيقة، فكما أن العقول غير المثقفة تحب القوة التي تبعثها فيها الألوان الساذجة الزاهية، ولا تعني مطلقا بالظلال الرقيقة الخفيفة، فكذلك العقول التي لم تنل حظانا كاملا من الثقافة تحتاج إلى دوافع غليظة قوية لتحركها في الاتجاهات العاطفية، واعتقادي أن الاتجاه العام الذي لا بد أن تسير فيه هذه النفوس هو اتجاه نحو الرقة والتعاطف الروحي والكرم الخلقي، وما من شك في أن ثمة قدرا عظيما من هذه الرقة كامنا حتى في أخشن الطباع الغربية لا يظهر إلا وقت اشتداد الخطوب كما تظهر النار من قدح الصوان، ولست أقصد بالرقة مجرد الحب النسائي والميل الجنسي بل أقصد بها شيئا أجل من هذين شأنا وأسمى مكانة نما وتطور من ذلك الحب البدائي وما إليه.

وهذا الشيء هو رقة الشعور وقوة الإدراك والاستعداد الغريزي للأخذ بناصر الضعيف ولست أرى هذا في الشرق – اللهم إلا بين النساء– ألم تقل أنت إن المرأة اليابانية كانت سببا في احتفاظ اللغة القومية بنقائها وجمالها؟ إني أعتقد أنها قد حافظت فوق ذلك على استعداد الشعب كله للتحلي بالصلاح وطيب الأخلاق واختزنته كله في نفسها.

وهنا لابد لي من أن أختم رسالتي المتشائمة.

المخلص على الدوام

لفكا ديو هيرن

حاشية: إن الفكرة الرئيسية التي أريد أن أعرضها هي هذه: إذا أريد فهم اليابان

فهما جيدا وجب أن ننظر إلى المسألة الجنسية نظرة جدية، على أنها عامل في تكوين الفروق النفسانية، وذلك موضوع واسع لا أقدر أنا عليه، ولكن في وسع رجل مثل لوول[1] أن يفيد منه الشيء الكثير، أما أنا فلست أجرؤ على معالجته، ولقد أشار لوول مرة إلى هذا الموضوع ولكنه في اعتقادي ليس من الموضوعات الفرعية التي تكفي فيها الإشارات العارضة.

وكان هيرن رجلا قبيح المنظر قصير القامة، يكاد أن يكون قزما، فقد إحدى عينيه في حادث وقع له في طفولته، وكان قوي الشعور بضآلة جسمه حتى قال مرة وهو يتحسر إنه يسره أن يقيم في اليابان حيث الناس قصار مثله، وكان لسوء الحظ حاد الطبع، شديد التأثر، حييا، وقد كتبت زوجته اليابانية بعد وفاته تقول: "لقد كان يحب اليابان بكل قلبه، ولكن اليابانيين لم يفهموا حبه الخالص لليابان".

---

(1)Lowell

بيير كوري يطلب إلى ماري اسكلو دوفسكا أن تتزوجه

لم يكن اسم بيير كوري[1] من الأسماء المعروفة في فرنسا عام ١٨٩٣، ولكن صاحبه كان ذا شهرة واسعة في سائر أنحاء أوروبا لما قام به من الأبحاث في المغناطيسية وغيرها من فروع علم الطبيعة، وكان إلى هذا قد اخترع جهازا للقياس يعرف "بمقياس كوري" ويفوق في حساسيته سائر ما كان معروفا من الأجهزة، وقد أقر اللورد كلفن[2] نفسه وقتئذ بأن كوري أستاذ عظيم، وكانت الحكومة الفرنسية تدفع له في نظير أعماله العلمية المبتكرة وقيامه بالتدريس لثلاثين من الطلاب مرتبا شهريا قدره ثلاثمائة من فرنكات تلك الأيام؛ وكان لقبه الرسمي هو "رئيس معمل مدرسة الطبيعة والكيمياء في مدينة باريس".

وكان أصدقاؤه الأخصاء القلائل يقولون إن " بيير كوري يصرف كل ما وهب من قوة الجسم والعقل في الأبحاث العلمية ..." وإنه "لا يحب أحدا". وكتب هو نفسه مرة في يومياته: "إن النساء ذوات العبقرية نادرات الوجود".

ثم حدث أن قابل بيير كوري ماري اسكلو دوفسكا[3] .. وهي فتاة أقبلت من وارسو في بولنده لتدرس في السربون، وكانت الأولى بين الناجحين والناجحات في امتحان الطبيعة في العام السابق للقائهما، وكانت وقتئذ تستعد للتقدم لمتحان الرياضيات، "ولم يلبث حديثهما في أول لقائه بها بمنزل صديق أن انتقل إلى حوار علمي ... فكانت ماري تسأل في حياء وإجلال وتستمع إلى آراء بيير ... وأخذ هو بعدئذ يعرض عليها مشروعاته العلمية ويشرح لها ظاهرة التبلور التي كانت تستأثر وقتئذ بكل عنايته، ودهش بيير حين وجد نفسه يتحدث في العمل الذي يحبه إلى

---

(1)Pierre Curie

(2)Lord Kelvin

(3)Marie Sklodovska

امرأة، وأنه وإن كان يعبر عن آرائه بألفاظ علمية وقوانين معقدة، يراها وهي جميلة فاتنة في نضرة الشباب تشغف بحديثه وتفهمه، بل تبحث معه دقائق العلم، وتدلي في تلك الأبحاث بآراء واضحة وتفكير سديد لا يخطئ ... ألا ما أحلى هذا وما أعظمه!".

وأخذت الصداقة التي بدأت وقتئذ وتتوثق أواصرها، ولشد ما كان بيير يعجب بها حين يراها في المعمل، مرتدية معطفها الأبيض، مكبة على أجهزتها في صمت وهدوء، ثم أرسل لها الطبعة الجديدة من أحدث كتاب نشره عن "التناسب في الظواهر الطبيعية، تناسب المجال الكهربائي وتناسب المجال المغناطيسي".

وكانت ماري قبل انتقالها إلى باريس تعمل مربية في أحد البيوت، ولما جاءت إلى باريس كانت تعيش في عليه[1]، وكانت على حد قول ابنتها وكاتبة سيرتها إيف[2] قد أقسمت ألا تحب إنسانا قط، وأبعدت فكرة الزواج من برنامج حياتها، وشادت لنفسها عالما صارما يسيطر عليه حب العلم.

ولما عرض عليها بيير أن تتزوجه رفضت في بادئ الأمر، ولكنه واصل خطبته بعد أن عادت هي إلى بولندة لتقضي فيها عطلة الصيف، ولم ينقطع في هذه الأثناء عن الكتابة إليها، وها هي ذي إحدى الرسائل التي بعث بها إليها في ذلك الوقت:

— ٥٤

"... كل كشف نصل إليه مهما يكن صغيرا يبقى ذخيرة علمية ..."

في ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٤

لا شيء يدخل السرور على نفسي أكثر من تلقي أخبارك، ولقد كان الظن بأن هذه الأخبار ستنقطع عني شهرين كاملين مؤلما لي أشد الألم، ومن أجل ذلك وقعت

---

(١) Garret انظر مقال الدكتور جنسن في مزايا السكنى في علية البيت في كتابنا "مقالات مختارة من الأدب الإنجليزي"

(٢) Eve (حواء)

كلمك القصيرة بردا وسلاما على قلبي.

ولعلك الآن تدخرين قدرا عظيما من الهواء النقي، ولعلك عائدة إلينا في شهر أكتوبر، أما أنا فلست أظن أني سأبرح هذا المكان، فأنا باق في الريف، أفضي النهار كله أمام نافذتي المفتوحة أو في الحديقة.

لقد تواعدنا على أن نكون صديقين وفيين على الأقل .. أليس كذلك؟ ألا ليتك لا تغيرين رأيك! أقول هذا لأني أعتقد أن ليس ثمة وعود ملزمة، فإن هذه الأشياء وأمثالها لا يصرفها الإنسان كما يشاء، وليس أقل من هذا جمالا أن نقضي حياتنا متقاربين نسبح في أحلامنا اللذيذة! أحلامك الوطنية، وأحلامنا الإنسانية، وأحلامنا العلمية؛ وهذا ما لا أكاد أصدقه.

ويقيني أن ليس من بين هذه الأحلام كلها ما هو طبيعي مشروع إلا الأحلام العلمية.

والذي أقصده بقولي هذا أنا عاجزون عن تغيير النظام الاجتماعي، وحتى لو لم نكن عاجزين عن هذا التعبير فإنا لا ندري ماذا نفعل، فإذا خطونا خطوة مهما يكن الاتجاه الذي نخطوها فيه، فإنا لا ندري هل نخطوها في الطريق الصواب أو نعطل بها تطورا كان لا بد منه، فيكون ضررها أكثر من نفعها، أما في العلم فإنا نرجو على الدوام أن نعمل شيئا، لأن الأساس الذي نبني عليه ثابت مكين، ولأن كل كشف نصل إليه مهما يكن صغيرا يبقى ذخيرة علمية.

فلتنتظري الآن ماذا يكون من أمرنا، لقد اتفقنا على أن نكون صديقين وفيين، فإذا غادرت فرنسا بعد عام أصبحت صداقتنا صداقة أفلاطونية محضة، أي صداقة شخصين لن يرى أحدهما الآخر أبد الدهر، أليس خيرا لك إذن أن تبقي معي؟ إني أعرف أن هذا السؤال يغضبك، وأنك لا ترغبين في أن تتحدثي في هذا الشأن مرة أخرى — وفوق هذا فإني أشعر أني غير جدير بك بأي وجه من الوجوه.

ولقد فكرت في أن أستأذنك في أن نتقابل مصادفة في فريبورج[١]، ولكنك لن تقيمي فيها أكثر من يوم واحد – إلا إذا كنت في مخطئا في هذا – وستكونين في ذلك اليوم في ضيافة أصدقائنا آل كوفالسكي[٢].

صديقك المخلص الوفي

بيير كوري

حاشية: كم أكون سعيدا إذا كتبت إلي لتؤكدي أنك تعتزمين العودة في شهر أكتوبر، وإذا بعثت برسائلك إلي مباشرة فإنها تصلني بسرعة!

بيير كوري ١٣ شارع سابلن سو (السين)[٣].

وتعلق إيف كوري على تلك الرسالة وغيرها بقولها: "ألا يكفي الإيحاء بهذه الرسائل لأن يخلد ذكرى من أوحت بها، ويذيع شهرتها في أنحاء العالم؟" ولما عادت ماري إلى معملها في شهر أكتوبر تابع بيير خطبته. وفي ذلك تقول إيف كوري أيضا: "وكان قلبه ينطوي على نفس الإيمان الذي ينطوي عليه قلب زوجته المستقبلة، وهو إيمان يزيد قوة ويزيده طهرا بعده عن كل ما يشينه ... وكان على الدوام مستعدا لأن يضحي بكل ما يسميه الناس سعادة في سبيل الحصول على سعادة أخرى لا يعرفها أحد غيره، أي أنه عرض على ماري صداقة فحسب، بل ذهب إلى أبعد من هذا، فعرض عليها أن يذهب معها إلى بولنده ... ودامت خطبته عشرة أشهر كاملة.

وأخيرا كتبت ماري في شهر يوليه من عام ١٨٩٥ إلى صديقة لها تقول: حين تصلك هذه الرسالة تكون صديقتك قد غيرت اسمها، فأنا أوشك على أن أتزوج الرجل الذي حدثتك عنه في وارسو في العام الماضي، إني شديدة الأسف لاضطراري أن أبقى في باريس، ولكن ما حيلتي في هذا؟ لقد أوثقت الأقدار صلاتنا، ولسنا نطيق

---

(1)Fribourg

(2)Kovalski

(3)Rue des Sablons Sceaux (Seine(

التفكير في الافتراق.

لم أكتب إليك من قبل لأن رأيي لم يستقر على هذا كله إلا من وقت قريب، فقد بقيت أتردد عاما كاملا، ولم أستطع أن أقطع في الأمر برأي، وأخيرا رضيت بالإقامة هنا فإذا وصلتك رسالتي هذه فاكتبي إلي "السيدة كوري مدرسة الطبيعة والكيمياء ٤٢ شارع لوموند[١]".

وهكذا سيكون اسمي بعد الآن، وزوجي مدرس في تلك المدرسة، وسأجيئ به في العام المقبل إلى بولنده ليعرف بلادي، ولن يفوتني أن أعرفه بمن أخترتها لي أختا صغيرة عزيزة، وسأطلب إليها أن تحبه ...

وأحبت إحدى صديقاتها أن تهديها في يوم زفافها ثوب عرس، فطلبت إليها أن تتفضل بإهدائها ثوبا "لائقا بعملها أدكن اللون تستطيع لبسه في المعمل". وقضت هي وزوجها شهر العسل يطوفان على دراجتين في الريف، ويرتادان الحراج مشيا على الأقدام.

وهكذا اختتمت رواية زواج ماري وبيير كوري، وقد لخصت إيف كوري حياتهما أجمل تلخيص في العبارة الآتية:

كانت امرأة من أمة مظلومة؛ وكانت فقيرة؛ وكانت جميلة. غادرت بولنده وطنها الأصلي استجابة لدعوة قوية لتدريس العلم في باريس، وعاشت فيها عدة سنين وحيدة فقيرة، وفيها قابلت رجلا تتفق عبقريته مع عبقريتها، فتزوجت به وسعدا بهذا الزواج سعادة منقطعة النظير، واستطاعا بجهودهما المضنية المستميتة أن يكشفا عنصرا سحريا عجيبا هو عنصر الراديوم، وهو كشف لم يؤد إلى نشأة علم جديد وفلسفة جديدة فحسب، بل إنه فوق ذلك قد مكن بني الإنسان من علاج مرض من أخطر الأمراض.

---

(1)Rue Lhomond

وقد يكون هذا هو أنسب موضع نذكر فيه قول أينشتين المأثور. "إن ماري كوري هي المرأة الوحيدة التي لم تفسدها الشهرة دون سائر المشهورين والمشهورات من بني الإنسان"

ولما قتل بيير كوري تحت عجلات إحدى المركبات في عام ١٩٠٦ عينت زوجته أستاذة في جامعة السربون في المحل الذي خلا بوفاته، وبدأت محاضراتها من النقطة التي وقف عندها بالضبط؛ ثم زارت أمريكا في عام ١٩٢١ فقدم لها الرئيس ورن جماليل هاردنج[١] بيده نائبا عن نساء أمريكا جراما من الراديوم لا يقل ثمنه عن مائة وعشرين ألف ريال.

وتوفيت في عام ١٩٣٤ من أثر داء زادت حدته تجاربها على الراديوم.

---

(1)Warren Gamaliel Harding

من إميل زولا إلى رئيس الجمهورية الفرنسية يطلب إليه أن يرد على الناس إيمانهم بالعدالة الإنسانية

يصف أناول فرانس[١] إميل زولا[٢] بأنه أكبر قوة دافعة في ضمير الإنسانية، وسترى في هذه الرسالة التي كانت نقطة الانقلاب في قضية دريفوس كيف استحق إميل زولا هذا الوصف:

في عام ١٨٩٤ اتهم الكابتن ألفرد دريفوس[٣]، وهو ضابط نابه من ضباط المدفعية الفرنسية، كريم الخلق وابن صانع يهودي، اتهم بأنه باع إلى الاعداء وثائق هامة ذات قيمة حربية خطيرة، وأيدت التهمة بخطاب قيل أنه بعث به إلى موظف ألماني وصودر قبل أن يصل إلى المرسل إليه، وحوكم الضابط الشاب وأيدت التهمة بأدلة مزورة، وحكم بإدانته، فجرد من رتبته وشرفه العسكري، وحكم عليه بالسجن في جزيرة الشيطان[٤] بالقرب من جيانا الفرنسية[٥]. وجرد دريفوس من رتبته في احتفال عام، ونزعت شاراته العسكرية وأزراره، وكسر سيفه، وبينما كان الجمهور الصاخب المهتاج يطالب "بقتل الخائن" وقف دريفوس رابط الجأش وخاطب الضباط والجمهور قائلا: "إني برئ، وستعرفون الحقائق يوما ما؛ لتحيا فرنسا".

وقاسى دريفوس الأمرين في جزيرة الشيطان الموحشة المنعزلة، وكلف ستة من الحراس بمراقبته ليلا ونهارا، وعذب عذابا أليما في الجسم والعقل، ولما ثبت بعد ست سنوات من هذا الحكم أن الخطاب المزعوم مزور، وأن كاتبه رجل من أسافل الناس

---

(1)Anatole France

(2)Emile Zola

(3)Alfred Dreyfus

(4)Devil's Island

(5)French Guiana

يدعى إسترهازي[1]، وقفت القيادة العليا الفرنسية في طريق العدالة، وأبت أن تنقض الحكم لئلا تفقد سمعتها في نظر الأمة، وفي ذلك الوقت أخذ الأحرار في جميع أنحاء أوروبا بوجه عام وفرنسا بوجه خاص يعنون بهذه القضية، وانقسمت الأمة الفرنسية بين مؤيد لإعادة النظر وممانع فيها، وأثارت القضية من أول الأمر اهتمام إميل زولا، وكان وقتئذ في عنفوان مجده الأدبي، ذائع الصيت في جميع أنحاء العالم بفضل ما كتبه من الروايات الخالدة أمثال نانا[2] وجرمنال[3]، يهابه الناس ويخشون قلمه، ويجلونه أعظم إجلال لما اشتهر به من عداء شديد للظلم والرياء.

وفي شهر يناير من عام ١٨٩٨ تطوع للدفاع بقلمه عن قضية الحق والعدالة، وثارت ثائرته وغضب غضبه مضرية حين حكم ببراءة إسترهازي بعد محاكمة صورية.

وقدم الأحرار الفرنسيون لزولا ما جمعوه من الحقائق المتصلة بالقضية، فاعتمد عليها ووجه الخطاب المفتوح التالي إلى فليكس فور[4] رئيس الجمهورية الفرنسية في جريدة لورور "الفجر"[5] إحدى جرائد الأحرار في ذلك الوقت، وتعد هذه الرسالة من أشد الرسائل التي كتبت في التاريخ كله، وقد قضى يوما كاملا في كتابتها، وكان وهو يكتبها "يلهث من الغضب ومن خوفه ألا يكون أول من كتب مثلها". ولما نشرت كان لها أعظم الأثر في البلاد، وكتب جورج كلمنصو[6] وكان وقتئذ شابا صحفيا متطرفا – عنوانها الشهير:

---

(1)Esterhazy

(2)Nana

(3)Germinal

(4)Felix Faure

(5)L'Aurore

(6)George Clemenceau

— ٥٥

"إني أتهم ..."(1)

[يناير سنة ١٨٩٨]

يا جناب الرئيس:

أرجو أن تسمح لي أن أصرح لك نظير ما أسديت إلي في سابق الأيام من جميل بشدة خوفي على ما نلت بحق من مجد وسؤدد، وأن أخبرك أن سجل أعمالك الذي ظل حتى الآن أبيض ناصعا، يهدده في هذه الأيام عار ينكس الأبصار، ولا يمحى أبد الدهر.

لقد نجوت من أشنع التهم فلم تصب منها بسوء، ولقد أسرت جميع القلوب، وهأنت ذا تنعم الآن بمجد الاحتفالات الوطنية ... وتستعد لرياسة المعرض العام الذي ستتحتم به جهود مائة عام من العمل، ومن الجهاد في سبيل الحق والحرية، ولكن أية وصمة سيوصم بها اسمك — ولقد كدت أقول عهدك — من جراء هذه القضية اللعينة قضية دريفوس، لقد جرأت محكمة عسكرية من زمن قريب على أن تخضع لأمر صدر إليها فبرأت رجلا يدعى إسترهازي، وكان عملها هذا في واقع الأمر لطمة للعدالة ما أشدها. وقد قضي الأمر وتسربت فرنسا بهذا العار، وسيقول التاريخ إن هذه الجريمة الاجتماعية قد ارتكبت في أيام إدارتك.

لقد جرأوا على ارتكاب الإثم، ومن أجل هذا سأجرؤ أنا أيضا على قول الحق لأني عاهدت نفسي على قوله، إذا كان القضاء في أدبى أن يقوله، وكان من حقه أن يفعل، وسأقوله كاملا لا أجامل فيه ولا أخفف من وقعه. ذلك أن الواجب يقتضيني أن أتكلم لكي لا أكون شريكا في الجريمة، ولكي لا ينغص علي أحلامي شبح ذلك المخلوق البريء وهو يكفر بأشد أنواع العذاب عن جريمة لم يرتكبها قط.

---

(1) J'accuse

وسأجهر لك أنت يا جناب الرئيس بهذا الحق، وأجهر به بكل ما لدي من قوة تبعثها في الرجل الشريف وتورثه على الظلم، ولست أشك في أنك تجهل هذه الجريمة، فهي إذن لم تمس شرفك، ومن ذا الذي أشكو إليه إذن أولئك السفلة الأراذل المجرمين بحق، إذا لم أشكهم إليك، وأنت أكبر المهيمنين على شئون البلاد؟ ...

إني أتهم الكولونيل دو ياتى ده شام[١] بأنه هو الأداة الشيطانية التي استخدمت في ارتكاب الغلطة القضائية، وسأحمل نفسي على الاعتقاد بأن ذلك كان على غير علم منه، ولكنه كان خلال الثلاث سنين الماضية يدافع عن عمله المشؤم بأسخف الوسائل وأبعثها على الاشمئزاز.

واتهم القائد مرسبيه[٢] بأنه اشترك في ارتكاب أشنع جريمة اقترفت في التاريخ كله، وأكبر الظن أنه فعل ما فعل لخيال في عقله.

واتهم القائد بيلو[٣] بأنه كان يملك الأدلة القاطعة على براءة دريفوس، ولكنه أخفى هذه الأدلة وارتكب جريمة الخيانة العظمى ضد العدالة والإنسانية، مدفوعا إلى ذلك بأسباب سياسية، وبالرغبة في ستر جريمة هيئة أركان الحرب العامة.

واتهم القائدين بوادفر[٤] وجنز[٥] باشتراكهما في هذه الجريمة نفسها، فأما أولهما فكان مدفوعا في ارتكابها بأحقاد دينية، أما ثانيهما فقد فعل ما فعل انتصارا لزملائه.

واتهم القائد ده بلييه[٦] والميجر رفري[٧] بالتزوير في التحقيق، أقصد أن تحقيقهما كان أبعد ما يكون عن النزاهة، وإن التقرير الذي يتضمن هذا التحقيق لهو

---

(1)Colonel du paty de Sham

(2)General Mercier

(3)General Billot

(4)General Boisdeffre

(5)General Gonce

(6)General de Pell eux

(7)Major Ravary

الوقاحة المجسمة في أبشع مظاهرها.

واتهم خبراء الخطوط الثلاثة: بلوم، وفارينار، وجوار[١] بأنهم وضعوا تقارير كاذبة مزورة، إلا إذا أثبت الفحص الطبي أنهم تعوزهم قوة الإبصار والقدرة على التمييز.

واتهم وزارة الحربية بأنها دبرت حملة دنيئة في الصحف وبخاصة في جريدتي لكير "الضياء"، والإكو[٢] "الصدا"، لتضليل الرأي العام ولستر جرائمها.

وأخيرا أتهم المحكمة العسكرية الأولى بأنها اعتدت على جميع الحقوق البشرية بحكمها على سجين بناء على أدلة بقيت سرا مخفيا عنه فلم يطلع عليها؛ وأتهم المحكمة العسكرية الثانية بأنها سترت هذه المخالفة القانونية بأمر أصدرته، وبأنها ارتكبت جريمة قضائية إذ برأت رجلا مذنبا رغم كامل علمها بجريمته.

ولست أجهل أني حين أتهم هؤلاء كلهم بما اتهمهم به أعرض نفسي للعقاب بمقتضى المادتين ٣٠ و٣١ من قوانين جرائم القذف الصادرة في ٢٩ يوليه سنة ١٨٨١، وهما المادتان اللتان تنصان على عقاب من يطعن في الناس، ولكني أعرض نفسي باختياري لهذا العقاب.

أما الذين أتهمهم فإني لا أعرفهم، ولم أرهم قط، ولست أشعر نحوهم بشيء من الكراهية أو الحقد، وليسوا جميعا بالنسبة لي إلا مجرد كائنات ورموز للإجرام الاجتماعي، وليس العمل الذي أضطلع به هنا إلا خطوة ثورية يقصد بها التعجيل بانفجار بركان الحق والعدالة.

وكل الذي أهدف إليه هو أن أزيح الستار عن هذه المأساة باسم الإنسانية التي أوذيت وطال صبرها، والتي ترى أن السعادة من حقها، وليس احتجاجي الملتهب إلا صرخة صادرة من أعماق قلبي، فليكن لديهم من الشجاعة ما يكفي لإرسالي إلى محكمة الاستئناف لتحقق معي في ضوء النهار الساطع.

---

(1)Gouarp, Varinard, Belhomme

(2)L'Echo , L'éclair

وإني لمنتظر

وأرجو يا جناب الرئيس أن تقبل عظيم إجلالي،،

إميل زولا

وسيق زولا على أثر نشر هذا الخطاب إلى المحكمة بتهمة القذف الجنائي، وكانت البلاد وقتئذ تغلي كالمرجل، وقامت المظاهرات والاضطرابات في كل مكان، وتعرض زولا وزملاؤه المدافعون عنه، وكانوا كلهم من الأحرار النابهين، لأشد أنواع الأذى من اعتداء الرعاع عليهم.

وحرم على زولا وعلى المدافعين عنه أن يقدموا إلى المحكمة في أثناء الإجراءات الهزلية الهوجاء أيه حقائق تتصل بقضية دريفوس نفسها، وأدين زولا بطبيعة الحال، وحكم عليه بالسجن سنة وبغرامة قدرها ثلاث آلاف فرنك، ولكنه استطاع بمساعدة أصدقائه الأحرار أن يفر من سجنه وأن يهرب إلى إنجلترا.

وحدث في أثناء إقامة زولا في منفاه أن أعترف اللفتننت كولونل هنري[١] أحد كبار المتآمرين بأنه زور الوثائق التي قضت بإدانة دريفوس، ثم انتحر بعد هذا الاعتراف، وأقر إسترهازي نفسه بما كان له من يد في هذه المؤامرة.

وفي عام ١٨٩٩ استدعى دريفوس وهو معتل الصحة من جزيرة الشيطان بعد ست سنين من الحكم عليه، وصدر عنه "عفو عن جريمة الخيانة"، ولكنه لم يصدر عنه عفو شامل إلا في ٢١ يوليه سنة ١٩٠٦، حين أعيد إلى الخدمة في الجيش، وبرئ من جميع التهم، وأعيدت إليه شاراته العسكرية في نفس المكان الذي جرد فيه منها قبل ذلك باثني عشرة سنة.

وعاد زولا بعدئذ ظافرا إلى فرنسا.

---

(1)Lieutenant Colonet Henry

وتطوع دريفوس للخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى، وعين فيها ضابطا في المدفعية، وأظهر شجاعة فائقة في الدفاع عن باريس أولا، وفي الجبهة الغربية ثانيا، ثم صار أخيرا ضابطا في فرقة الشرف، وتوفي في يوليه سنة ١٩٣٥ في الخامسة والسبعين من عمره.

ويقول ولتر لتلفيلد[١] وهو من الذين يوثق بأقوالهم في هذا الموضوع إن دريفوس "ظل إلى آخر أيامه يعتقد أنه لم يكن إلا ضحية خطأ قضائي شنيع، ولكنه خطأ من السهل الوقوع فيه، وإن معظم الشهود الذين جيء بهم ليشهدوا عليه وجميع القضاة الذين أدانوه قد أخطأوا غير أنهم كانوا أشرافا ... لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا أشرافا ولا مخطئين، فقد كانوا على بكرة أبيهم يعلمون أن دريفوس بريء، أو أنهم كان في وسعهم على الأقل أن يصلوا إلى الحقيقة لو أنهم أرادوا أن يصلوا إليها، لقد كان دريفوس هو الضحية التي اختاروها لينفذوا فيها جريمة دنيئة يقصد بها القضاء على الجمهورية الفرنسية ... ومما هو جدير بالذكر أن دريفوس منع لابوري[٢] أحد المدافعين عنه من إلقاء خطبة تكشف الستار عن المتآمرين وعن جرمهم الشنيع، ولم يكن الدافع له إلى ذلك العمل خوفه من إغضاب القضاة وإثارتهم عليه، بل كان ذلك الدافع هو حرصه على ألا تضيع الثقة بقيادة الجيش الفرنسي، وعلى ألا يعرض على أنظار الألمان ما كانت عليه القيادة الفرنسية وقتئذ من انحلال وضعف معنوي ومادي، والحق أن هذا الرجل كان ذا شخصية عجيبة غامضة لا يستطاع سبر أغوارها ..."

أما زولا نفسه فإنه لم ير في حياته الرجل الذي دافع عن حريته دفاع الأبطال وضحى من أجله بكل شيء، ومات كاتب "إني أتهم" في عام ١٩٠٢ في الثانية والستين من عمره.

(1)Walter Littlefield

(2)Labori

هنري بوانكاريه[1] وماري كوري يوصيان جامعة زيورخ[2] بأن تعين أينشتين أستاذا فيها

يحدث في بعض الأحيان أن يكون الدليل على عبقرية إنسان ما هو قدرته على أن يكشف مخايل العبقرية في غيره من الناس، وحسب هنري بوانكاريه وماري كوري دليلا على عبقريتهما أنهما تنبأ بما سيكون لأينشتين من شأن علمي في المستقبل القريب، ذلك أن ألبرت أينشتين[3] حين طلع على العالم في عام ١٩٠٥ "بالنظرية الخاصة في النسبية" وهو في السادسة والعشرين من عمره "دعا غيره من العلماء لينوا على الأساس الذي وضعه" وكان أينشتين وقتئذ شابا مغمورا يؤدي عملا عاديا رتيبا في مكتب الرخص بسويسرا، حتى إذا انقضت ساعات العمل الرسمية صرف وقته وجهده في دراسة الضوء ، فبدل النظريات العلمية من أساسها "ولم يكن لديه من الأجهزة العملية وقتئذ إلا قلم وإضبارة من الورق"

ولم تسترع هذه النظرية وقتئذ إلا أنظار عدد قليل من العلماء والمفكرين، وكان من بينهم العالم الكبير ماكس بلانك[4] مكتشف نظرية الكم[5]، فبعث إلى أينشتين برسالة يثني فيها على جهوده ويصف النظرية الخاصة في النسبية بأنها "انقلاب خطير في التفكير البشري".

وبعد مضي ست سنين من ذلك الوقت كان أينشتين رغم شهرته العالمية الآخذة في الانتشار لا يزال يبحث عن وظيفة دائمة في إحدى الجامعات. وفي هذا الوقت (عام ١٩١١) تقدم لمعونته اثنان من جلة العلماء في ميدانه الخاص، ميدان العلوم

---

(1)Henri Poin are

(2)Zurich

(3)Albert Einstein

(4)Max Panlk

(5)The Qeuantum Thepry

الطبيعية والرياضية، هما هنري بوانكاريه وماري كوري، وبعثا بالرسالة التالية التي تدل على عبقرية وبعد نظر منقطعي النظير، وقد كتب بروانكاريه الرسالة بيده ثم وقعها هو وماري وأرسلاهما إلى "معهد الاتحاد الفني في زيورخ":

— ٥٦

"سيكشف المستقبل عن أدلة جديدة متتالية على مواهب الهر أينشتين"

[١٩١١]

الهر أينشتين من أعظم من رأينا من أصحاب العقول المبدعة، وهو بالرغم من صغر سنه يشغل مكانا ممتازا بين أكابر علماء وقته، وأعظم ما ندهش له من صفاته هو السهولة التي يكيف بها نفسه لقبول الآراء الجديدة، وكثرة النتائج التي يستخلصها من هذه الآراء.

فهو إذا واجهته نظرية طبيعية لا يتشبث بما لديه من أفكار ثابتة قديمة، بل يدرك من فوره كل ما يمكن تصوره من الاحتمالات، وسرعان ما تتحول هذه الاحتمالات إلى ظواهر جديدة مرتجاه، وقد تحققها الخبرة والتجربة الواقعية يوما ما ... وسيكشف المستقبل عن أدلة جديدة متتالية على مواهب الهر أينشتين، وما من شك في أن الجامعة التي تفوز بضمه إليها سيشرفها اتصالها بهذا الأستاذ الناشئ.

هنري بوانكاريه

ماري كوري

وطبيعي أن يكون لهذه التزكية البليغة القيمة أعظم الأثر لدى المعهد، فضم إليه أينشتين في عام ١٩١٢، وظل فيه حتى عام ١٩١٤ حين عين مديرا لقسم الطبيعة في معهد القيصر ولهلم ببرلين، وبعد عام واحد من ذلك الوقت نشر نظريته العامة في النسبية ولما يتجاوز السادسة والثلاثين، وأثارت هذه النظرية اهتمام العلماء على الفور، ولكن جمهرة الناس بقيت لا تعلم عنها شيئا حتى عام ١٩١٩، إذ حققت

اللوحات الشمسية التي صورت خسوف ذلك العام صحة آراء أينشتين، فذاع صيته في جميع الأوساط العلمية، وكان الفضل في ذلك لجهود كارفان أندا[١] محرر جريدة نيويورك تيمس[٢]، وهو لحسن الحظ من كبار العلماء في الفلك والرياضيات.

(١١ – رسائل)

وجدير بنا أن نذكر أن ما أثنى به أينشتين على ماري كوري وهو قوله: "إن الشهرة لا يمكن أن تفسدها" ينطبق عليه هو كل الانطباق، فقد طبقت شهرته العلمية الخافقين ونال جائزة نوبل[٣] في الطبيعة في عام **١٩٢١**، ولما غادر ألمانيا النازية في عام **١٩٣٣** عين رئيسا لقسم الرياضيات في معهد الدراسات العليا بمدينة برنستن[٤] في نيوجيرسي[٥] بالولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هذه الشهرة العلمية لم تغير شيئا من أخلاقه.

---

(1)Carr Van Anda

(2)New York Times

(3)Noble Prize

(4)The Institute for Advanced Study at Princeton

(5)New Jersey

الكابتن ربرت فلكن لسكت يقول للشعب البريطاني إن "هذه المذكرات الساذجة وأجسامنا الميتة ستقص القصة كاملة"

سيظل اسم ربرت فلكن لسكت[١]، الضابط البحري في الأسطول البريطاني وأحد رواد القطب الجنوبي، من أعظم الأسماء في سجل الرواد الأبطال والشهداء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل العلم، ولد ربرت لسكت في عام ١٨٦٨، وانضم إلى رجال البحرية البريطانية وهو لا يزال غلاما، وارتقى فيها بسرعة فائقة؛ ولما بلغ الحادية والثلاثين من عمره نظم البعثة التي ذهبت لكشف القطب الجنوبي وسافر فعلا في عام ١٩٠٢، ودامت هذه الرحلة الأولى ثلاث سنين، ولم يفلح هذه المرة في الوصول إلى غرضه ولكنه حصل فيها على معلومات علمية نافعة وتجارب عظيمة القيمة.

وبدأ رحلته الثانية إلى القطب الجنوبي في عام ١٩١٠، ووصل في هذه الرحلة إلى الأراضي الجنوبية الواسعة المكوة بالجليد الدائم التي تحيط بها الجبال وتعصف عليها الرياح الشديدة، والتي لا يقل سمك جليدها في بعض الأماكن عن ألفي قدم.

وبعد عامين من بداية الرحلة، أي في الثامن عشر من يناير سنة ١٩١٢، وصل ومعه أربعة من رفاقه وهم ولسن، وبورز، وأوتس، وإيفانر[٢] إلى القطب الجنوبي، ولكنهم وجدوا أن أمندسن[٣] النرويجي قد سبقهم إليه بخمسة وثلاثين يوما، ذلك أن البحار النرويجي أخفى عن الناس غرضه الحقيقي، وأعلن أنه ذاهب إلى القطب الشمالي؛ ووصل إلى القطب الجنوبي فعلا في الرابع عشر من شهر ديسمبر سنة

(1)Captain Robert Falcon Scott

(2)Wilson, Bowers, Qates, Evans

(3)Amundsen

١٩١١. فلما ذهب اسكت إلى هناك في التاريخ السالف الذكر وجد خيمة أمندسن لا تزال مكشوفة غير مغطاة بالثلوج.

وأثر ذلك السبق في نفس اسكت ،بطبيعة الحال، واتخذ هو ورفاقه سبيلهم راجعين إلى إنجلترا تحدوهم فكرة أنهم وصلوا في رحلتهم إلى أبعد مما كان يتوقعه أكثر الناس تفاؤلا في بداية الرحلة، ولكنهم لقوا حتفهم في أثناء أوبتهم؛ وقاسوا قبل موتهم ألوانا من العذاب صبروا عليها صبر الأبطال، فقد نفذت مؤونتهم، وتجمدت من البرد أطرافهم، وعاشوا في جو انخفضت حرارته إلى أربعين تحت الصفر، وجملة القول أن موتهم كان مأساة من أشد المآسي في التاريخ.

وكتب اسكت في مذكراته في اليوم الثالث من شهر مارس يقول: "نسأل الله العون، إننا لا نستطيع الاستمرار على بذل هذا الجهد، هذا ما لا شك فيه، إننا ونحن مجتمعون لا تفارقنا البشاشة، ولكن الله وحده يعلم حقيقة ما ينطوي عليه قلب كل منا"، وكان إيفانز أول من قضى نحبه منهم.

وكتب بعد أسبوع من ذلك يقول: "قد نستطيع مع العناية الشديدة أن نجد لنا مخرجا ضيقا مما نحن فيه، ولا أستطيع أن أرجو أكثر من هذا"

وكتب في الشهر السادس عشر من شهر مارس "... ما من شك في أن النهاية ليست بعيدة"، وفي اليوم التالي خرج أوتس عامدا وسط عاصفة ثلجية شديدة "ليموت بدل أن يكون كلا على رفاقه". وكانت آخر كلماته: "إني خارج وقد أغيب بعض الوقت"، وكان في الليلة السابقة قد نام وهو يأمل ألا يصحو من نومه لكنه صحا في الصباح.

وكان آخر ما كتبه اسكت في مذكراته قوله في اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس بعد أسبوعين من صراع مرير مع البرد القارس والعواصف الثلجية: "يؤسفني كل الأسف أني عاجز عن مواصلة الكتابة. ر . اسكت". ويلي ذلك هذه العبارة المحزنة: "أستحلفكم بالله أن تعنوا بأهلنا".

وبعد ثمانية شهور من ذلك الوقت عثرت بعثة أرسلت للبحث عن اسكت على جثته وجثتي اثنين من رفاقه على بعد خمسة عشر ميلا من أقرب مستودع للمؤن، وكان ثلاثتهم داخل الأكياس التي يلبسونها وهم نائمون، وكانوا مدفونين في الثلج إلى نصفهم، وإلى جانبهم كل ما كتبوه من وصف علمي لرحلتهم إلى الأقاليم القطبية الجنوبية، وعدة رسائل كتبوها إلى أصدقائهم، ورسالة من اسكت نفسه إلى الشعب البريطاني ، وهي رسالة تفيض نبلا وشجاعة.

وكان مع هذا كله مذكرة كتبها اسكت إلى صديقه سير جيمس م . برى[1] يقول فيها: "إنا نجاهد الآن في مكان نلاقي فيه أشد الصعاب ... ونشهد الناس على أنه لا يزال في مقدور الإنجليز أن يموتوا شجعانا، وهم يكافحون إلى آخر لحظة من حياتهم ... ولست أخشى عاقبة أمرنا بحال من الأحوال، ولكن الذي يحزنني أن أحرم من كثير من أسباب السرور المتواضع الذي أعددته للمستقبل في أثناء رحلتنا الطويلة، لعلي لم أبرهن على أني من كبار الرواد، ولكنا قمنا برحلة لم يقم بها غيرنا، وكدنا نظفر بنجاح عظيم". وها هي ذي رسالة الوداع التي كتبها كابتن اسكت إلى بني وطنه:

– ٥٧

"لا يزال في مقدور الإنجليز أن يموتوا شجعانا ..."

[رسالة إلى الشعب البريطاني]

ليس سبب هذه الكارثة خطأ ارتكبناه في التنظيم، ولكن سببها ما لازمنا من سوء الطالع في اقتحام الأخطار التي كان لا بد من اقتحامها:

١– إن ما فقدناه من أمهار النقل في مارس من عام ١٩١١ قد اضطرني إلى أن أبدأ رحلتي بعد الوقت الذي حددته لبدايتها، كما اضطرني إلى إنقاص كمية المواد التي كنت أريد نقلها

(1)Sir James M. Barri

٢– لقد عاق سيرنا أثناء عودتنا سوء الأحوال الجوية وبخاصة العاصفة الطويلة الأمد التي هبت علينا عند خط ٨٣° من خطوط العرض الجنوبية.

٣– البطء الذي اضطرنا إليه الثلج اللين في الأجزاء الجنوبية من أنهار الجليد.

ولقد كافحنا هذه الأحداث القاسية وتغلبنا عليها، ولكنها أثرت فيما كان لدينا من المؤن.

لقد كان كل ما أعددناه من طعام ولباس وأدوات في بسيط الجليد الداخلي، وفي المسافة الطويلة التي تبعد عن القطب نحو سبعمائة ميل، وافيا بالغرض إلى أبعد حد؛ فاستطعنا بذلك أن نختار هذه المسافة في الذهاب والعودة، وكان في وسع فرقة الطليعة أن تعود إلى رأس النهر الجليدي على أحسن حال لولا عجز الرجل الذي كنا نظنه آخر من يعجز، فقد كنا نعتقد أن إدجر إيفانز أقوى رجال البعثة.

وليس من الصعب اجتياز نهر بيرد مور الجليدي[١] في الجو الصحو، ولكننا لم يصادفنا في أثناء عودتنا يوم واحد ذو جو صحو من أوله إلى آخره، وأقلق ذلك بالنا، وزاد القلق مرض رفيقنا.

وقد سبق القول إننا صادفنا عاصفة جليدية هوجاء، وقد أصيب إدجر إيفانز بارتجاج في المخ ، ثم مات ميتة طبيعية ولكنها ميتة اضطربت لها أعصابنا، وزاد هذا الاضطراب شدة أن فصل الشتاء حل متقدما عن المعتاد.

ولكن هذه الأمور السابقة الذكر كانت كلها تافهة إذا قيست إلى ما بوغتنا به عند الحاجز الجليدي. ويجدر بي هنا أن أؤكد مرة أخرى أن النظام الذي وضعناه لعودتنا كان نظاما محكما وافيا بالغرض من جميع الوجوه، وأن إنسانا في العالم كله ليس في مقدوره أن يظن أننا سنلقى ما لاقيناه في هذا الوقت من السنة من انخفاض في الحرارة ومن عقبات في سطح الأرض.

---

(1)Beardmore Glacier

ذلك أن الحرارة في أعلى المرتفعات قد انخفضت إلى – ٢٠°، – ٣٠ عند خطي ٨٥°، ٨٦° من خطوط العرض الجنوبية، أما فوق الحاجز[1] نفسه عند خط ٨٠ من خطوط العرض – وهو ينخفض عن المكان السابق بعشرة آلاف قدم – فقد كانت درجة الحرارة على الدوام تقريبا – ٣٠ في النهار، – ٤٧ في الليل. وكانت الرياح تهب بقوة في وجهنا أثناء سيرنا طوال النهار، ومما لا جدال فيه أن هذه الأحوال تحدث فجأة، ولهذا فإن هلاكنا يرجع من غير شك إلى ما فوجئنا به من جو قاس لا يمكن معرفة أسبابه على وجه التحقيق، ولست أظن أن إنسانا مر به شهر من الشهور كالذي مر بنا في هذه الرحلة، وكان في وسعنا أن نخرج من هذه المحنة سالمين رغم هذا الجو القارس لولا مرض زميل آخر من زملائنا هو الكابتن أوتس ولولا نقص ما كان في مستودعاتنا من وقود نقصا لا أعرف له سببا، ولولا العاصفة التي هبت علينا على بعد أحد عشر ميلا من المستودع الذي كنا نرجو أن نحصل منه على آخر ما تحتاجه من مؤن.

وما من شك في أن هذه الكارثة الأخيرة كانت أعظم ما أصابنا من الكوارث في رحلتنا؛ ذلك أننا أصبحنا على بعد أحد عشر ميلا من معسكرنا القديم – معسكر الطن الواحدة[2] – وكان فيه من الوقود ما نستطيع به إعداد وجبة واحدة من الطعام، ومن الأغذية ما يكفينا يومين كاملين.

وظلت العاصفة الهوجاء تهب من حولنا أربعة أيام كاملة عجزنا في إثنائها عن مغادرة خيمتنا، ونحن الآن ضعاف والكتابة صعبة، ولكنني لست آسفا على قيامي بهذه الرحلة التي أثبتت أن في مقدور الإنجليز أن يتحملوا الصعاب، وأن يعين بعضهم بعضا، وأن يلاقوا الموت بصبر واطمئنان شأنهم في جميع عهودهم السابقة، لقد عرضنا أنفسنا للأخطار وكنا نعلم أننا معرضون لها؛ ولقد عاكستنا الظروف، ومن أجل هذا لا نجد ما يدعو إلى الشكوى، ولكننا نخضع لإرادة الله ولا نزال مصممين على أن

(1)The Barrier

(2)The one Ton Camp

نبذل كل ما نستطيع بذله من الجهود إلى آخر رمق من حياتنا. وإذا كنا قد رضينا بأن نضحي بحياتنا في هذا العمل العظيم، وهو عمل تشرف به بلادنا، فإني أهيب ببني وطني أن يرعوا من نعولهم وأن يعنوا بهم خير عناية.

ولو مد الله في حياتنا لاستطعت أن أقص على الناس ما اتصف به رفاقي من صلابة وجلد وشجاعة نادرة يهتز لها طربا قلب كل إنجليزي؛ وهذه المذكرات الساذجة وأجسامنا الميتة ستقص القصة كاملة، ولكني لا يخالجني شك في أن بلدا له من الثراء ما لبلدنا سيعني العناية الواجبة بمن كنا نعولهم.

ر . اسكت

ودفن الكابتن اسكت ورفاقه تحت الخيمة التي وجدت فيها أجسامهم في سهل يغطيه الجليد بعد أن قطعوا نصف الطريق عائدين من القطب الجنوبي.

ولم يذهب نداؤه الأخير إلى الشعب البريطاني صرخة في واد، فما كاد محافظ لندن يدعو إلى الاكتتاب لأسر الموتى حتى تجمع لديه نصف مليون ريال، خصص جزء منه لإعداد الرحلات الذاهبة إلى الأقاليم القطبية الشمالية والجنوبية ووضع تحت تصرف "معهد اسكت للأبحاث القطبية[١]" في كمبردج، ويوجد تمثال نصفي للكابتن اسكت من صنع أرملته بين الآثار التي خلفها أبطال من طراز اسكت وأمندسن وشكلتن[٢]. وكتبت على واجهة المعهد السالف الذكر بأحرف لاتينية ضخمة لا يقل ارتفاعها عن ثلاث أقدام "ذهب يبحث عن أسرار القطب فعرف أسرار الله".

(1)The Scott Polar Research Institute

(2)Shackleton

تيودور روزفلت يضع منهجا صارما للولايات المتحدة

[رسالة إلى مسز وليم برون ملوني]

لم يكن تيودور روزفلت[١] في يوم من الأيام يعني بالأمور السياسية وحدها. فقد ارتاد مجاهل الغابات الأفريقية، وأقاليم البرازيل الاستوائية، ورسم خريطة لنهر سمي فيما بعد نهر تيودور "ريو تيودور"[٢]، وكتب تاريخا لحرب عام ١٨١٢ ولمدينة نيويورك، واشتغل بالصحافة، ودعا لإصلاح نظام الموظفين المدنيين، ونظم القوات الأمريكية في الحرب الإسبانية الأمريكية وحاول أن يعمل هذا العمل نفسه في الحرب العالمية الأولى.

وكان روزفلت من أشد الناقدين لسياسة التردد التي سار عليها الرئيس ولسن، لأنه كان يعتقد أن الولايات المتحدة ستشتبك حتما في الحرب العالمية الأولى يوما من الأيام؛ ولهذا أخذ يدعو للاستعداد لذلك اليوم، ولما أغرق الألمان السفينة لوزيتانيا[٣] أخذ يندد بالألمان ويدعو مواطنيه للثأر منهم، ولم يكن يعتقد أن هناك خطة وسطا بل كان الأمر لديه إما صوابا وإما خطأ، خيرا أو شرا، أسود أو أبيض.

وكان روزفلت قد طاف بأوروبا وزار ألمانيا في عام ١٩٠٩ – ١٩١٠، ولما عاد بعد رحلته قال إنها البلد الوحيد في أوروبا الذي شعر فيه "بأن كل رجل وكل امرأة وكل طفل عدوى طبيعي – أي عدو بلادي". ولما رأى الخطر الألماني يتهدد أمريكا في بداية الحرب العالمية الأوى عاد إلى ذاكرته ما كان يشعر به من حقد على الألمان في أثناء رحلته، فكتب رسالته التالية إلى مسز وليم برون ملوني[٤] الكاتبة المشهورة

(1)Theodore Roosevelt

(2)Rio Teodore

(3)Lusitania

(4)Mrs William Brown Melony

يصف لها ما تحتاج إليه أمريكا في ذلك الوقت حتى تكون متأهبة لساعة الخطر:

٥٨ –

".. يمنعنا كبرياؤنا أن نظلم الناس أو نرضى بالظلم ..."

في ٥ إبريل سنة ١٩١٦

عزيزتي مسز ملوني:

إن أمريكا في حاجة إلى أشياء كثيرة ليت العناية الإلهية تمن بها عليها! وإليك بعض هذه الأشياء:

١– أن يقبض على كل داعية للسلم محترف متردد يحول كبرياؤه بينه وبين الحرب دفاعا عن قضية الوطن إذا كانت عادلة، وينفى إلى تلك الأصقاع النائية ... التي لم تدخل فيها بعد روح الشهامة والرجولة.

٢– أن يكون لكل شاب مهذب أسرة وعمل، وأن يدرب تدريبا عسكريا يمكنه من أن يبعد خطر الحرب عن هذه البلاد، ويشعر كل شعب عسكري خلا قلبه من الرحمة بما يتعرض له من الخطر إذا هاجمنا.

٣– أن يكون لكل فتى أم صالحة عاقلة، وأن يكون لكل امرأة صالحة طفل تحمله بين ذراعيها.

٤– أن نكون كلنا شعبا قويا محبا لوطنه، نبيلا فخورا، يمنعنا كبرياؤنا أن نظلم الناس أو نرضى بالظلم ...

أسعد الله أوقاتك

صديقك المخلص على الدوام

تيودور روزفلت

ولما دخلت الولايات المتحدة الحرب عرض روزفلت على الأمة خدمته وخدمة أولاده الأربعة، وطلب أن يتولى بنفسه قيادة إحدى الفرق في الجيش، غير أن صحته أخذت في الضعف بعد عودته من البرازيل، فاضطره ذلك إلى أن يدخل المستشفى وأن تجرى له عملية جراحية، ولهذا رفضت الحكومة خدماته العسكرية، ولما مات ابنه كونتن[1] في الحرب برح به الحزن وزاد من حماسته للقضية الأمريكية. ومن ذلك الوقت أخذ الحزب الجمهوري يعده أجدر أعضائه بتولي رياسة الجمهورية في عام ١٩٢٠، ولكن المنية عاجلته فتوفي نائم في ٦ يناير سنة ١٩١٩.

---

(1)Quentin

ليون تروتسكي يحذر رفيقا اشتراكيا

من الحوادث الرهيبة المقبلة

كتبت هذه الرسالة قبل اشتعال نار الثورة الروسية بسنة واحدة، وفيها يتنبأ أحد زعيمي هذه الثورة وواضعي خططها بالطريق التي ستسلكها لتصل بها إلى مقاصدها، وهي إلى هذا شرح واضح للنظرية الاشتراكية في الحرب والسلم، والآراء الثورية التي كانت مبعث هذه الأزمة التاريخية العظيمة ونتيجة من نتائجها.

وقد ولد كاتبها ليون تروتسكي[١] في عام ١٨٧٧، وقبضت عليه السلطات الروسية أول مرة لنشاطه الثوري وهو في سن الحادية والعشرين، لأن الثورة "كانت أباه وأمه" ونفي إلى سيبريا ولكنه فر إلى إنجلترا وفيها التقى بلينين[٢].

واستطاع أن يعود إلى روسيا في عام ١٩٠٥، واختير على أثر عودته رئيسا لسفيت بطرسبرج، وأخذ ينشر نظرية "الثورة العامة الدائمة" لأنه كان يعتقد أن الثورة لا تنجح إذا قامت في بلد واحد، وقبض عليه مرة ثانية ولكنه فر إلى ويانه، وظل طول حياته زعيما ثوريا نشيطا ينشر مبادئه حيثما حل، وكان إلى هذا جنديا قديرا وسياسيا محنكا ورفيقا للينين، ثم صار في منفاه الأخير مؤرخا لحوادث الثورة التي أشعل نارها وخاض غمارها.

والرسالة التالية قريبة العهد بالحوادث التي تصفها، وفيها ترى الماضي والمستقبل يصطرعان شأنها في ذلك شأن "تاريخ الثورة الروسية" الذي كتبه بنفسه.

وقد بعث تروتسكي بهذه الرسالة إلى رفيق اشتراكي قديم من أبناء فرنسا يدعى

---

(1)Leon Trotsky

(2)Lenin

جول جود[١] وذلك حين أخرج هو من فرنسا بأمر الوزارة الائتلافية القومية التي قامت فيها أثناء الحرب، والتي اشترك فيها جود وتخلى عن مبادئه المتطرفة القديمة، وكتبت الرسالة في باريس قبيل الوقت الذي اعتزم فيه أن يغادرها إلى سويسرا. غير أن الحكومة السويسرية رفضت آخر الأمر أن تسمح له بدخول بلادها، فاستبدل بها إسبانيا.

ولم تكن "الأيام العشرة التي زلزلت أركان العالم" فيما بعد غير بعيدة، وها هو ذا الرجل الذي أعان لينين على إدارة أعمال الثورة في خلال هذه الأيام المفعمة بالحوادث يبسط مبادئه وعقيدته إلى زميل ثوري قديم في رسالة من أقوى الرسائل، وكان تروتسكي يشعر أن جول قد خان زميلا قديما، وخان المبادئ الاشتراكية الأساسية، ونكث عهده، وأساء إلى سمعته، فكتب إليه يقول:

٥٩ –

"إنا متوقعها ونتعجلها ونتأهب لها"

باريس في ١١ أكتوبر سنة ١٩١٦

إلى المسيو جول جود وزير الدولة

أرى من واجبي، قبل أن أغادر أرض فرنسا في حراسة رجل من رجال الشرطة يمثل الحريات التي تقوم أنت في الوزارة القومية على حمايتها ورعايتها، أن أعبر لك عن بعض آراء قليلة أكبر الظن أنها لن تكون ذات فائدة لك، ولكنها ستكون على الأقل ذات فائدة ضدك، إن زميلك وزير الحربية حين طردني من فرنسا لم ير من اللائق به أن يبين الأسباب التي من أجلها حرم نشر صحيفة ناشي سلوفو (كلمتا)[٢] الروسية التي كنت أحد محرريها، والتي ظلت عامين كاملين تقاسي الأمرين من عنت الرقابة

---

(1)Jules Guesde

(2)Nashe Slovo

القاسية التي تعمل تحت إمرة هذا الوزير نفسه.

على أنني لا أخفي عنك أني لا أرى في أسباب طردي من فرنسا سرا يخفي علي، لقد شعرتم بالحاجة إلى اتخاذ إجراءات صارمة إزاء أحد رجال الاشتراكية الدولية، أي بإزاء رجل من الذين لا يرضون أن يدفعوا عن الحرب الاستعمارية أو أن يكونوا عبيدا لها طائعين.

ومع أن أسباب هذا العمل لم تعلن إلي، وهي تخصني دون غيري، وهي موجهة إلي، فإن المسيو بريان أعلنها إلى النواب وإلى الصحفيين.

فقد قيل إن جماعة من الجنود الروس تمردوا في مرسيليا في شهر أغسطس الماضي وقتلوا ضابطهم، وقيل إن التحقيق أثبت أن عددا من هؤلاء الجند قد ضبطت معهم نسخ من جريدة ناشي سلوفو. وسواء صح هذا أو لم يصح فإنه هو الذي يقوله المسيو بريان(١) في حديث له مع النائب لنجيه(٢) ومع مسيو ليج(٣) رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب، وهو الذي أذاع هذا الحديث على الصحفيين الروس المنتمين إلى طبقة الملاك.

على أن المسيو بريان يجروء على أن يلقي تبعة قتل هذا الضابط على ناشي سلوفو وحرريها من أرض الجمهورية، لأن الصحيفة الاشتراكية التي تأبى أن تذيع الأوهام والأكاذيب قد تسمم عقول الجنود الروس على حد قول المسيو رنودل(٤) المأثور وتقودهم إلى الطريق الخطر طريق التفكير."

لكن مسيو بريان لسوء حظه بني آراءه على خطأ تاريخي فاضح، ذلك أن

---

(1)M. Briand

(2)Longuet

(3)M. Leygues

(4)M. Renaudel

جستاف هيرفيه[1] كتب من عام واحد، وكان لا يزال وقتئذ عضوا في اللجنة الإدارية الدائمة لحزبكم، يقول إنه إذا أخرج مالفي[2] من أرض فرنسا أولئك اللاجئين الروس ذوي الأفكار الثورية الدولية فإنه – أي هيرفيه نفسه – يؤكد أن الرأي العام الذي يسيطر هو عليه يقبل هذا العمل من غير معارضة. وما من شك في أن هيرفيه قد نزل عليه هذا الوحي في حجرة من حجر الوزراء، وفي آخر شهر يوليه نطق هيرفيه نفسه بصفة شبه رسمية بأني يجب أن أطرد من فرنسا.

وحدث حوالي هذا الوقت نفسه – أي قبل أن يقتل الضابط في مرسيليا – أن الأستاذ دركهيم[3] رئيس لجنة اللاجئين الروس المعين من قبل الحكومة – أبلغ أحد ممثلي هؤلاء اللاجئين أن ناشي سلوفو سوف تعطل، وأن محرريها سوف يخرجون من البلاد (أنظر ناشي سلوفو عدد ٣٠ يوليه سنة ١٩١٦)

إذن فقد كان كل شيء معدا من قبل بما في ذلك الرأي العام الذي يسيطر عليه المسيو هيرفيه. ولم يكونوا ينتظرون إلا حجة يتذرعون بها ليضربوا الضربة الأخيرة، وسرعان ما وجدوا هذه الحجة: فقد أقدم الجنود الروس سيئو الحظ في الوقت المناسب على قتل ضابطهم – وكانوا في ذلك يعملون لمصلحة بعض الناس.

وهذا الاتفاق الموفق يدعوني إلى أن أفترض فرضا قد يسئ إلى مركزكم الجديد المتواضع في الوزارة. ذلك أن الصحفيين الروس الذين عنوا ببحث حادث مرسيليا عناية خاصة قد أثبتوا بالدليل القاطع أن أحد المحرضين السياسيين كانت له يد فعالة في هذا الحادث، شأنه في ذلك شأن جميع الحوادث المماثلة له تقريبا.

وليس من العسير أن نعرف الغرض الذي يبغيه هذا المحرض من عمله هذا، أو بالأحرى غرض الأوغاد المأجورين بالمال الوفير الذين دفعوه إلى هذا العمل، لقد كانوا

---

(1) Gustave Herve

(2) Malvy

(3) Durkheim

في حاجة إلى عمل عدواني من نوع ما يرتكبه الجنود الروس ليبرروا به من جهة الحكم السياط الذي لا يزال بغيضا بعض الشيء لولاة الأمور الفرنسيين، وليكون من جهة أخرى حجة يستندون عليها في إجراءاتهم حيال اللاجئين الروس، الذين يتخذون كرم الفرنسيين وسيلة لإفساد ضمائر الجنود الروس في إبان الحرب – على حد قولهم.

وليس يصعب علينا أن نقر بأن مدبري هذه المؤامرة لم يكونوا هم أنفسهم يعتقدون أنها ستصل إلى الحد الذي وصلت إليه، أن هذا كان هو الغرض الذي يهدفون إليه، وأكبر الظن أنهم كانوا يرجون أن يصلوا إلى نتائج أعظم من التي وصلوا إليها بتضحيات أقل من التي ضحوا بها، ولكن هذا العمل وأمثاله ينطوي دائما على عنصر من عناصر الخطر يحيق بالقائمين به. على أن الضحية في هذه المرة لم تكن ذاك المحرض السياسي نفسه، بل كانت الضابط كروس[1] والذين قتبوه. وحتى الصحفيون الروس الوطنيون من المعادين لناشي سلوفو لم يترددوا في الجهر بأنهم لا يستبعدون أن يكون هذا المحرض السياسي نفسه قد أعطى الجنود الروس نسخا من صحيفة ناشي سلوفو في الوقت المناسب.

وكل الذي أطلبه إليك أيها الوزير أن تحاول إجراء تحقيق في المسألة يسير في هذا الطريق الذي رسمته مستعينا على ذلك بمسيو مالفي، ستقول إنك لا ترى فائدة من هذا التحقيق ولست أخفي عنك أنني أنا أيضا لا أرى فائدة فيه، وإذا شئت أن أكون صريحا معك قلت لك إن سبب هذا هو أن المحرضين المأجورين لهم من القيمة في أعمال "الدفاع الوطني" المزعوم ما للوزراء الاشتراكيين إن لم يكونوا أكبر قيمة منهم.

وقد بقي عليك أنت يا جول جود بعد أن توليت أمور السياسة الخارجية في الجمهورية الثالثة، وأخذت على عاتقك تبعة الحلف الفرنسي الروسي وما يترتب عليه من عواقب، وأطماع القيصر الاستعمارية وكل ما تهدف إله الحرب من أغراض وما

(1)Karuse

تستعين به من وسائل – أقول قد بقى عليك بعد هذا كله أن نقبل، مع الفصائل الرمزية من الجنود الروس، الأعمال الرمزية التي يقوم بها الدساسون المأجورون من عمال جلالة القيصر.

لقد تفضل سمبات[1] أقرب زملائك إليك فأشار للصحفيين الروس في بداية الحرب، حين كانت الوعود تبذل بسخاء ذات اليمين وذات الشمال، إلى ما سيكون للديقراطيات المتحالفة من تأثير حسن في نظام الحكم في روسيا، وكانت هذه الحجة فضلا عن ذلك أقوى الحجج التي استعان بها الاشتراكيون الحكوميون في فرنسا وبلجيكا على الدوام للتوفيق بين القيصر والثوريين، ولكنها لم تجدهم نفعا.

غير أن التعاون الحزبي الذي لم تنقطع أسبابه ستة وعشرين شهرا، والاتصال الدائم طوال هذه المدة بين كبار القواد العسكريين ورجال السياسة والنواب، وزيارات فيفاني[2] وتومس[3] إلى ساركو سيلو[4]، وقصارى القول إن ستة وعشرين شهرا من "تأثير" الديمقراطيات الغربية في القيصرية الروسية لم تفلح إلا في تثبيت دعائم أكثر أنواع الرجعية غطرسة واستبداد في بلادنا، ولم يخفف من استبدادها إلا الفوضى الضاربة أطنابها في جميع فروع الإدارة؛ وأفلحت في الوقت نفسه في تبديل نظام الحكم في إنجلترا وفرنسا حتى أصبحتا ولا فرق في ذلك بينهما وبين الروسيا، وليست وعود سمبات كما نرى بأكثر قيمة من فحمه، وليس أدل على حكم الإرهاب الذي يسيطر عليه رجال الشرطة والعسكريون على جانبي القناة الإنجليزية من الضربة التي أصابت حق اللاجئين السياسيين في البلدين.

وخير من يمثل روح هذه الحرب ومقدار انطباقها على الحق والعدالة والمبادئ الأخلاقية العالية، وما يسيطر عليها من شهوات فردية وطائفية – أقول إن خير من يمثل

---

(1)Sembat

(2)Viviani

(3)Thomas

(4)Tsarkoe Selo

روح هذه الحرب رجلان أولهما لويد جورج جلاد دبلن الاستعماري الصميم الذي له خلق كخلق القس السكير؛ وثانيهما أرستيد بريان، وأنا أحيلك باجول جود على مقالاتك التي كتبتها في الأيام الخالية، إذا شئت أن تعرف أخلاقه، وهل ثمة أجدر من مسيو استرمر[1]، هذا الألماني الروسي الصميم الذي شق طريقه في الحياة بتملق رجال الدين والتذلل إلى رجال البلاط الحمقى المتعصبين، بان يكون شريكا لمستر لويد جورج ومسيو بريان؟ لعمري إنه لثالوث فذ لم أر له مثيلا قط، وما من شك في أن التاريخ لم يكن يستطيع أن يجود بزملاء ورؤساء لجود الوزير خير من هؤلاء.

وهل في مقدار اشتراكي شريف ألا يقف في وجهك ويقاتلك؟ لقد قلبت الحزب الاشتراكي إلى جوقة طيعة تردد نغمات اللصوص الرأسماليين بعد أن حسر المجتمع الرأسمالي – الذي كنت أنت يا جول جود ألد أعدائه – عن لثامة وكشف عن حقيقة أمره، وقد عجزت أنت يا جول جود عن أن تفيد من الحوادث التي تتابعت على العالم وأشاعت فيه الخراب والدمار، والتي طالما تنبأنا نحن بنتائجها، أو من الدماء التي أريقت والعذاب والآلام التي قاستها الإنسانية، ومن الجرائم التي ارتكبت، ومما اقترفته الحكومات من اوزار، وما انتهبته من أموال، عجزت عن ان تفيد من هذا كله إلا عبرة واحدة لقتها للطبقة العاملة الأجيرة من الفرنسيين، وهي أن غليوم الثاني[2] وفرانزجوزف[3] مجرمان لم يرعيا حرمة القانون الدولي وقواعده كما يرعاها نيقولا الثاني[4] ويوانكاريه[5].

ونشأ جيل جديد من الشبان يبلغ الملايين عدا، أيقظت ضمائرهم لأول مرة كوارث الحرب وأهوالها، ولكنهم لا يعرفون من أسباب هذه المجزرة التي يخوض غمارها

---

(1)M. Sturmer

(2)William II

(٣) Franz Joseph إمبراطور النمسا وقتئذ

(٤) Nicholas II قيصر الروسيا

(5)Poincare

العالم القديم إلا ما ينبئهم به الكتاب الأزرق الذي أصدره دلكاسيه[١] ويوانكاريه وبريان.

وأما أنت يا زعيم العمال القديم فتخررا كما أمام هذا الأنجيل المنزل للشعوب، وتنبذ كل ما تعلمته معلمته في مدرسة الصراع بين الطبقات.

وقد وجدت الاشتراكية الفرنسية صاحبة الماضي المجيد ذي الأعمال التي تجل عن الحصر، وذات التاريخ الحافل بالمقاتلين والشهداء – وجدت هذه الاشتراكية من بينها آخر المر رنودل[٢] يترجم في أشد عصور التاريخ هؤلاء ما حواه الكتاب الأزرق من آراء سامية إلى لغة صحافة هي والكتاب الأزرق سواء.

أجل لقد وجدت اشتركية بابوف[٣]، وسانت سيمون[٤]، وفروييه[٥] وبلانكي[٦]، وجول جود – نعم جول جود أيضا – وجدت هذه الاشتراكية آخر الأمر فيها رجلا كألبرت تومس[٧] يتشاور مع رومانوف في أضمن الوسائل للاستيلاء على الأستانة، ووجدت رجلا مثل مارسل سمبات[٨] يطأ بقدميه دون حياء أو مبالاة أنقاض المدنية الفرنسية وخرباتها، ووجدت جول جود – نعم وجدته هو أيضا – يسير في ركاب بريان الظافر.

وكنت أنت تعتقد، وكنت تأمل، أن العمال الفرنسيين الذين استنزفت دماؤهم في هذه الحرب الطاحنة التي ليس لها معنى ولا يرجى منها خير، تدفعهم إليها جريمة

---

(1)Delcasse

(2)Renaudel

(3)Babeuf

(4)Saint Simon

(5)Pourier

(6)Blanqui

(7)Albert Thomas

(8)Marcel Sembat

الطبقات الحاكمة – كنت تعتقد وكنت تأمل أن هؤلاء العمال سيظلون هادئين قانعين راضيين عن هذا الائتلاف الشائن بين الاشتراكية الرأسمالية وألد أعداء الطبقات العاملة، لقد أخطأت في اعتقادك وخاب رجاؤك، فقد نهضت المعارضة، وها هي ذي تلك المعارضة الثورية تتقدم خطوة خطوة وتثبت أقدامها كل يوم في وجه الأحكام العرفية وجنون القومية التي تحتفظ على الدوام بطابعها الرأسمالي مهما تكن صورتها، سواء كانت ملكية أو جمهورية متطرفة أو اشتراكية.

وعاشت ناشئ سلوفو الصحفية التي كتمت أنفاسها وتنفست في جو الاشتراكية الفرنسية المستيقظة، ذلك أنها بعد أن انتزعتها من أرض روسيا ثورة معارضة انتصرت بفضل بيوت المال الفرنسية – التي تخدمها الآن يا جول جود – جاءت إلى هذه البلاد وكان لها فضل ترديد صوت الشعبة الفرنسية من الدولة الجديدة، التي بدأت ترفه رأسها بعد فظائع الحرب الطاحنة وويلاتها – مهما يكن هذا الصوت ضعيفا بسبب القيود التي فرضتها عليها الرقابة.

ومن دواعي فخرنا أننا نحن "الأجانب غير المرغوب فيهم" الذين ربطنا مصيرنا بمصير المعارضة الفرنسية، قد تلقينا أولى الضربات التي كالتها حكومتك – حكومتك يا جول جود – لهذه المعارضة ومن يتصلون بها.

وإنا ليشرفنا نحن ومونات[١]، ومرهيم[٢]، وسومونو[٣]، ورزمر[٤] وبوردرن[٥] لوريو[٦]، وجلبو[٧] وكثيرين غيرهم ان نتهم جميعا بأنا من الموالين اللألمان، فلقد ظلت

---

(1)Monatte

(2)Merrheim

(3)Soumoneau

(4)Rosmer

(5)Bourderon

(6)Loriot

(7)Guilbeaux

صحيفة "باريس" الأسبوعية، التي يصدرها صديقك بلخانوف[1] الذي قاسمك حظك من المجد كما يقاسمك الآن حظك من السقوط، أسابيع متتالية تشي بنا إلى شرطة مستر ملفي وتتهمنا بأنا نعمل لحساب هيئة أركان الحرب الألمانية العامة، ولقد كنت في وقت من الأوقات تعلم قيمة هذه التهم وأمثالها، لأنك أنت نفسك قد نلت ذلك الشرف الرفيع بأن كنت هدف سهامها، اما الآن فإنك راض عن أعمال مسيو مالفي ومؤيدها، تقبل أن تلخص لحكومة الدفاع القومي التقريرات التي تحويها قماطرة، ولو أنك اطلعت على ملفاتي السياسية لوجدت فيها حكما حديثا بالسجن صادرا علي من محكمة ألمانية في أثناء هذه الحرب، لأني هاجمت السلطة الشرعية وازدريتها في نشرتي "الحرب والولية".

لكنني مازلت أعتقد أن من حقي أن أؤكد أننا نحن الثوريين الدوليين أعداء للرجعية الألمانية وأشد خطرا عليها من حكومات الحلفاء كلها مجتمعة، حتى إذا غضضنا النظر عن هذا العمل الوحشي الذي يجب أن يكون له بعض الأثر حتى في عقول المسيو ملفي ومن على شاكلته من رجال الشرطة.

ذلك أن عداء هذه الحكومات ليس في حقيقة أمره إلا خلافا بسيطا بين متنافسين، اما كراهيتنا الثورية للطبقة الحاكمة الأمانية فهي كراهية أبدية باقية على مر السنين.

وليس ببعيد أن يجتمع التنافس الاستعماري بين الإخوان أعداء اليوم؛ فإذا ما قدر للخطط التي وضعها الحلفاء للقضاء على ألمانيا ان تنجح، فإن إنجلترا وفرنسا ستمدان أيديهما بعد عشر سنين إلى دولة آل هوهنزلرن لتستعينا بها على حمايتها من قوة روسيا الهائلة.

وسنرى رئيسا للوزارة الفرنسية، يشغل المكان الذي يشغله بوانكاريه، يتبادل برقيات التهنئة مع غليوم أو خليفته، ورئيسا للوزارة البريطانية من أمثال لويد جورج

(1)Plekhanov

يرفع عقيرته بلغة القساوسة والمصارعين يسب الروسيا ويتهمها بأنها حصن الهمجية والعسكرية الحصين.

وسوف يتقبل ألبرت تومس حين يصبح سفير فرنسا لدى قيصر الألمان طاقات الزهر تقدمها إليه نساء البلاط في بنسدام كما تقبلها منذ قليل من دوقة ساركوسيلو[١].

وستزداد خطب هذه الأيام ومقالاتها السخيفة حماسة على حماستها، ولن يحتاج مسيو رنودل إلى أكثر من أن يغير ما في مقالاته من أسماء، وهو عمل لا تعجز عنه مواهبه.

أما نحن فسنبقى كما كنا في الماضي وكما نحن الآن ألد أعداء الطبقة الألمانية الحاكمة، لأن كرهنا للرجعية الألمانية لا يقل عن كرهنا الثوري الذي تنطوي عليه قلوبنا للقيصرية الروسية أو البلووقراطية الفرنسية. وأنت وأتباعك من الصحفيين حين تجرؤون على أن تنظموا عقود المدح لليبنخت[٢]، ومهرنج[٣]، ولكمبرج[٤]، وزنكين[٥] لأنهم ألد أعداء آل هوهنزلرن، لا تستطيعون أن تكروا أنهم يعتنقون مبادئنا، وأنهم رفقاؤنا في السلاح، فنحن وهم أحلاف وأعداء لكم ولسادتكم، تجمعنا وحدة الكفاح الثوري التي لا تنفصم عراها أبد الدهر.

ولعلك تعزي نفسك باعتقادك أننا قليلو العدد، لكننا في واقع الأمر أكثر عددا مما يظن رجال الشرطة على اختلاف طبقاتهم، إن أولئك الموظفين قد عميت بصائرهم فهم لا يشعرون بروح الثورة التي تتأجج نيرانها في كل قلب معذب، والتي تنتشر في جميع أنحاء فرنسا وفي طول أوروبا وعرضها، وفي كل ضاحية يسكنها العمال، وفي كل

---

(1)Tsarkoe Selo

(2)Liebknecht

(3)Mehring

(4)Luxemburg

(5)Zetkin

قرية من قرى الريف، وفي كل خندق في ميدان القنال.

لقد ألقيت لويز سومنو[1] في سجن من سجونك فهل تظن أنك أضعفت بعملك هذا جهود المستئين التي تبذلها نساء هذه البلاد؟ وفي وسعك أن تقبض على المئات من أتباع زمروالد[2] بعد أن أمرت صحافتك أن ترميهم بأشنع السباب التي يمدها بها رجال الشرطة، ولكن هل في مقدورك أن ترد الأزواج إلى زوجاتهم، والأبناء إلى أمهاتهم، والآباء إلى أبنائهم؟ وهل في طاقتك أن ترد القوة والصحة إلى الضعفاء والمرض؟ وهل تستطيع أن ترد إلى المخدوعين الذين وهنت نفوسهم ما فقدوه من ثقة في أولئك الذين غرروا بهم؟

ألا فأخرج يا جول جود من سيارتك العسكرية، وأترك القفص الذي سجنتك فيه الدولة الرأسمالية، وانظر حولك لعل الأقدار تشفق لآخر مرة على شيخوختك البائسة، وتسمعك الزمجرة الصامتة زمجرة الحوادث الرهيبة المقبلة، إنا نتوقعها، ونتعجلها ونتأهب لها! وستحل بفرنسا الكوارث الرهيبة الملهمة إذا لم يتأر العمال للمجازر التي قضيت عليهم، وإذا لم نثأر نحن لهؤلاء العمال بثورة لن يكون لك فيها مكان لا انت ولا أتباعك يا جول جود.

سأغادر فرنسا بعد أن طردتني منها وأنا عظيم الثقة بانتصارنا، وأنا أبعث فوق رأسك تحياتي الأخوية للعمال الفرنسيين الذين أخذوا يستيقظون ويتنبهون إلى مصيرهم العظيم، ولتحيا فرنسا الاشتراكية دونك ورغم إرادتك.

ليون تروتسكي

وكان من سخريات التاريخ أن عاد ليون تروتسكي إلى فرنسا بعد عشرين سنة من ذلك الوقت؛ عاد إليها هذه المرة طريدا منفيا من اتحاد جمهوريات السوفيت

---

(١) لويز سومنو زعيمة الشعبة النسائية من الاشتراكية الفرنسية، سجنت بسبب نشاطها المضاد للحرب، وانضمت إلى الحزب الشيوعي بعد تأليفه، وأخرجت منه في عام ١٩٢٥ لمناصرتها لتروتسكي.

(2)Zimmerwald

الاشتراكية التي عمل على إنشاءها في أثناء الحوادث الرهيبة التي وقعت بعد كتابة الرسالة السالفة الذكر.

ووصل تروتسكي إلى روسيا في عام ١٩١٧، بعد تجوال طويل في أرض كثيرة كان في أثنائها طريدا منفيا من بلاده، وكان وصوله إليها في الوقت الذي أخذت فيه الجماهير الروسية تستعد "للسيطرة على مصائرها" كما يقول هو نفسه، وهو الذي نظم ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ وقادها، وأصبح بعد فوزها مندوب الشعب للشئون الخارجية، ثم صار بعد معاهدة برست – لتوفسك[١] مندوبا للشئون الحربية، وهو الذي تولى قيادة الجيش الأحمر للدفاع عن البلاد ورد القوى المضادة للثورة، وحارب في أربع عشرة جبهة، وفي خط قتال طوله سبعة آلاف ميل.

وخذل تروتسكي في مجالس السوفيت بعد أن مات لينين في عام ١٩٢٣، ثم طرده استالين من الحزب الشيوعي ونفاه إلى التركستان في عام ١٩٢٧.

وحينئذ عاد الرجل إلى تجواله من جديد، فوجد نفسه في الآستانة في عام ١٩٢٩ يكتب تاريخ الثورة الروسية، وبعد أربع سنين من ذلك الوقت ألغي أمر نفيه من فرنسا وهو الأمر الذي يندد به في رسالته السابقة لجول جود فقضى زمنا قصيرا في بربيزون[٢] قرب باريس لم يكن فيه مطمئنا آمنا على نفسه.

ثم أعاد التاريخ نفسه، فتلقى فلدمير بوتمكين[٣] أوامر من استالين بأن يبلغ الحكومة الفرنسية "أن الصداقة الجديدة بين باريس وموسكو" تحتم عليها أن تخرج تروتسكي من بلادها، واتهمت الحكومة الروسية تروتسكي، وكان وقتئذ يستجم في فرنسا، بأانه هو الذي دبر قتل كيروف[٤]، وأنه يتآمر على حكومة استالين، ورد

---

(1)Brest Litovsk

(2)Barbizou

(3)Vladimir Potemkin

(4)Kirov

تروتسكي على ذلك بأن اتهم استالين بأنه خان مبادئ الثورة الروسية، واضطر تروتسكي أن يبدأ طوافه من جديد.

فنجده في عام ١٩٣٦ يقيم في النرويج، ثم يخرج منها بعد قليل، ثم يلجأ إلى المكسيك في السنة التي تليها حتى إذا كان شهر أغسطس من عام ١٩٤٠ اغتاله جاك مرنار فان دن درشد[1] أحد أتباعه .. وكان تروتسكي وهو على فراش الموت يعتقد أن استالين هو الذي دبر أمر قتله، وكانت آخر كلماته التي أسرها إلى أمين سره "أرجو أن تنبئ أصدقائي أني لا يخالجني شك في انتصار الدولية الرابعة؛ فإلى الأمام!"

---

(1)Jacques Mornard van den Dreschd

زوجة القيصر نقولا الثاني تؤكد له قبيل الثورة إن الأمور كلها تسير على ما يجب

يستطيع الإنسان أن يستمع بين سطور هذه الرسالة إلى جلجلة الحوادث المنذرة بإنهيار الملكية الروسية. ويقول بعض المؤرخين إى الإمبراطورية الروسية لم تسقط لأن نار الثورة شبت فيها، بل إن الثورة قد شبت لأن الإمبراطورية سقطت، وكان سبب سقوط آل رومانوف هو آل رومانوف أنفسهم، ذلك أن هؤلاء القياصرة كانوا يظنون أن في وسعهم أن يصرفوا سدس العالم المأهول كما يصرفون ضيعة من الضياع، وان يحكموا مائة وسبعين مليونا من بني الإنسان من حجرة استقبال السيدات.

وقد كتبت قيصرة الروسيا الرسالة التالية في أثناء الحرب الأوروبية الأولى، وكان صاحب الجلالة الإمبراطورية قيصر روسيا وقتئذ في مركز القيادة العام يتشاور مع كبار القواد والأشراف.

وكان شائعة قيام الثورة في قصر الإمبراطور يتردد صداها في جو البلاد، ولكن القيصرة كانت تتردى في حمأة الفجور مع راسبوتين[1] الذي تسميه في هذه الرسالة "صديقنا العزيز" وهي لا تدرك أن الملكية الروسية ستلفظ آخر أنفاسها بعد ثلاثة أشهر من كتابتها.

وكانت الأسرة المالكة وقتئذ تنعم بدخل لا يقل عن ألف ألف ريال في الشهر، وتملك من الأراضي ما قيمته خمسون مليون ريال، وتملك فوق هذا كله من الياقوت والؤلؤ وغيرهما من الجواهر ما يقدر بثمانين مليون ريال.

ويقول تروتسكي في كتابه تاريخ الثورة الروسية إن "الطبقات الحاكمة كانت تريد أن تنقذ أنفسها من الثورة بالتخلص من القيصر وبطانته .. كانت تريد هذا ولكنها لم

(1)Rasputin

تكن تجرؤ على العمل له .. وكانت الطبقات المالكة ملكية ضخمة بحكم مصالحها وعاداتها

وجبنها، وكانت تريد ملكية بغير راسبوتين، ولكن الملكية تجيب هذه الطبقات بقولها: "خذوني ومالكا معي .."

ولما طولب القيصر بتأليف وزارة حسنة السمعة أرسلت إليه القيصرة في مركز القيادة العام تفاحة من يد راسبوتين، وألحت عليه أن يأكلها "ليقوى بأكلها إراداته .." وقالت له: "كن بطرس الأكبر وإيفان الرهيب وبول الإمبراطور[1] وحطمهم كلهم تحت نعليك".

ويقول تروتسكي إن هذا كله كان يحدث "والحرب العوان قائمة، والطبقات الممتازة تنتهب ملذات الحياة انتهابا"، ويضيف إلى ذلك أن القيصرة التي كان زوجها يخضع لها في جميع الأمور كانت في ذلك الوقت تفشي للأعداء أسرار الروسيا الحربية، ولعلها كانت تأتمر على رؤوس زعماء الدول المتحالفة.

ومما هو جدير بالذكر أن القيصرة كانت قبل زواجها هي الأميرة ألكس أميرة هس دارمستاء[2] وأنها حفيدة الملكة فيكتوريا، وكانت الطبقات الحاكمة غير متحمسة لثورة القصر لاعتقادها أن الدواء قد يكون أرخم عاقبة من الداء.

وفي وسعنا بعد هذه المقدمة أن ندرك حق الإدراك ما ترمي إليه هذه الرسالة التي كتبتها القيصرة إلى القيصر، والتي عثر عليها البلاشفة في صندوق أسود في سجن الأسرة الإمبراطورية وهم يفحصون عن سجلات آل رومانوف بعد الثورة الكبرى.

---

(1) **Peter the Great, Ivan the Terrible , Emperor Paul**

(2) **Princess Alex of Hesse – Darmstadt**

– ٦٠

"... أنت السيد ..."

زار سكوجي سيلو[1] في الرابع من ديسمبر سنة ١٩١٦

"... يا أعز الناس علي ..."

تحياتي إليك يا حبيبي!

يؤلمني أشد الألم أن أفارقك – ويتضاعف هذا الألم بعد الأوقات العصيبة التي كنا نعيش فيها ونحارب في خلالها – ولكن الله مصدر الحب والرحمة قد أراد أن تتبدل الأمور إلى خير مما كانت، فما عليك إلا أن تصبر قليلا وأن تكون شديد الإيمان بصلوات "صديقنا" ومعونته، وستستقيم الأمور كلها وتنصلح الأحوال، وإني لا يخالجني شك في أن حكمك وبلاد الروسيا مقبلان على أيام عظيمة سعيدة، فتشجع ولا تقنط، ولا تسمح لأحاديث الناس أو رسائلهم بان تفت في عضدك، ولا تعبأ بها ودعها تمر كما تمر السخافات ولا تعلق بذاكرتك.

وأظهر للناس جميعا أنك أنت السيد – فيطيعوا أمرك – فلقد مضى عهد التسامح واللين، وأقبل الآن حكم العزيمة والسلطان، فليرغموا على الخضوع لك والاستماع إلى أمرك، والعمل بما تريد ومع من تريد، يجب أن يتعلموا الطاعة فهم الآن لا يعرفون معنى هذا اللفظ، لأنك أفسدتهم بعطفك عليهم وعفوك الشامل عن ذنوبهم.

أتعرف لم يكرهونني؟ إنهم يكرهونني لأنهم يعلمون أنني قوية العزيمة، متى اقتنعت بأني على حق (وباركة فوق ذلك جرجري[2]) لا أتحول عنه قط، وهذا ما لا يطيقونه، ولكن هؤلاء هم أشرار الناس.

---

(1)Tearkojie Selo

(2)Gregory

وهل تذكر قول مستر فلبس[١] حين أعطاني الصورة ذات الناقوس؟ ولما كنت أنت ظريفا شديد الثقة دمث الأخلاق فقد كنت أنا ناقوسك، فلا يستطيع الخبيثون أن يقتربوا مني، ومن واجبي أن أحذرك منهم، إن الذين يخافونني لا يستطيعون أن ينظروا إلى وجهي ... والذين يريدون الشر لا يحبونني، أما الصالحون المخلصون لك، الأشراف الأطهار، فهم الذين يحبونني – ومن هؤلاء رجال العسكرية وطبقات الشعب الساذجة.

أما القساوسة فمنهم الصالح والطالح، وليس يخفى علي شيء من أمرهم، وهم لذلك لا يضرونني كما كانوا يفعلون وأنا صغيرة السن، فإذا ما سولت لإنسان نفسه أن يكتب إليك أو إلي رسالة قذرة وجب عليك أن تعاقبه.

وصديقنا العزيز لا ينقطع عن الدعاء لك، وما من شك في أن وجود رجل من رجال الله الصالحين إلى جانب الإنسان يثبت قلبه ويقوي عزيمته، ويبث فيه روح الإيمان والأمل اللذين يحتاجهما أشد الاحتياج. ومن الناس من لا يستطيعون أن يدركوا كنه هدوئك ولذلك يظنون انك جاهل بالأمور، ويحاولون أن يوهنوا قواك ويرهبوك ويؤلموك، ولكنهم سوف يملون هذه الأعمال.

وإذا كتبت إليك أمنا العزيزة فاذكر أن آل متشل[٢] من ورائها – فلا تصدق ما تقوله ولا تعبأ به – وأحمد الله على أنها بعيدة عنك، وإن كان المحبون لا تعوزهم وسائل للكتابة وإيذاء الناس، ولكن الأمور كلها آخذة في التحسن، وأحلام صديقنا تبشر بالخير، توجه يا عزيزي إلى عذراء موغليف[٣] وانشد السلام والقوة هناك .. وخذ الطفل معك حيث الهدوء الشامل، وضع عندها شموعك حتى يرى الناس أنك ملك مسيحي، ودع الحياء والخجل – فإن هذه الأفعال نفسها تساعد غيرك من الناس.

---

(1)Mr. Philipps

(2)Michels

(3)Moghilev

إني لا أستطيع أن أتصور ما ستكون عليه الليالي التي أقضيها وحيدة، لقد كان عزائي أني سوف أضمك بين ذراعي، وقد خفف ذلك آلام روحي وقلبي، وحاولت أن أصب في عناقي حبي الخالد كله ودعواتي وإيماني وقوتي، ألا ما أكثر إعزازي لك يا زوجي وما أحبك إلى قلبي، بارك الله فيك وفي طفلي العزيز، إني أغمرك بقبلاتي؛ وإذا شعرت بشيء من الانقباض فاذهب إلى حجرة الطفل وأجلس هناك قليلا في سكون مع من حوله من الناس الظرفاء، قبل الطفل اللطيف تحس بالنشوة والطمأنينة، غني أبعث إليك بحبي كله يا شمس حياتي المشرقة.

– نم هادئا؛ إن قلبي وروحي معك، ودعواتي تحيط بك، والله والعذراء لن يتخليا عنك،

زوجتك المخلصة الوافية أبد الدهر

أون

وكتبت القيصرة إلى زوجها بعد تسعة أيام من ذلك الوقت رسالة أخرى دعته فيها "ملاكي الأعز" وتشكر له أن بعث إليها ببطاقة من مركز القيادة، وأكدت له في هذه الرسالة أن الأمور أحسن حالا وأكثر هدوءا مما كانت، وأضافت إلى ذلك قولها: "وكل ما تحتاج إليه هو يدك القوية – وما أكثر ما قال لي الناس من زمن بعيد – إن الروسيا تحب أن تشعر بالسوط – هذه هي طبيعة الروس ... ألا ليتني أستطيع أن أصب إرادتي في عروقك، إن العذراء من فوقك تباركك، ولا تنس المعجزة – حلم صديقنا".

وختمت رسالتها بقولها أنها مشغولة بكتابة بطاقات التهنئة بعيد الميلاد.

ورد القيصر عليها بقوله إنه تسلم رسائلها وشكر لها تعنيفها الشديد له ووقع هذا الرد

"زوجك المسكين الصغير الضعيف الإرادة"

وبعد ثلاثة أيام من هذا التاريخ أي في ليلة ١٦ – ١٧ من ديسمبر قتل راسبوتين عيلة بأن دس له سيتور البوتاسيوم في النبيذ، وأطلق الرصاص على قلبه، وبعد بضعة أسابيع "هوت الأسرة الملكة كما تهوى الفاكهة الفاسدة" فقد تمردت الجيوش الروسية بعد حرب طاحنة دامت ثلاث سنين، وثار الشعب يطلب الخبز والأرض، ويستولي عليهما عنوة، ونزل القيصر عن العرش وسجن هو وأسرته في اليوم السابع عشر من مارس سنة ١٩١٧، وفي ١٦ يولية سنة ١٩١٨ قتلوا جميعا رميا بالرصاص عند سفوح جبال أورال، وكان مقتلهم ختام تاريخ تلك الأسرة التي خرج منها بطرس الأكبر وفلادمير[١] وإيفان الرهيب وكاترين الثانية واسكندر الأول.

(1)Vladimir

رابندرنات[1] طاغور يؤكد إيمانه بعظمة الإنسان الخلقية ويثني على المهاتما غاندي

[رسالة إلى تسارلس فرير أندروز]

أهم ما يشتهر به طاغور هو شعره، وهو شعر غير خليق بأن يرفع من شأن قائله، وهو الذي نال به جائزة نوبل في الأدب، لكن طاغور فضلا عن هذا موسيقى بارع له أكثر من ثلاثة آلاف مقطوعة غنائية، ولما بلغ الثامنة والستين من عمره غزا ميدانا آخر من ميادين الفن وهو ميدان التصوير، وعرضت صورة في برلين ونيويورك وباريس ومسكو.

وليست رسائله أقل هدوءا أو جمالا أو خيالا أو فلسفة من شعره، وقد جاء إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أثناء طوافه حول العالم، وأخذ وهو فيها يتبادل الرسائل مع تشارلس فرير أندروز[2] أحد مراسلي الصحف وأصدقاء الهند، ونائب رئيس معهد طاغور في سلتنيكتان[3] . ولما أبلغه أندروز ما أحرزه صديقهما وزعيمهما المهاتما غاندي من نجاح في إيقاظ الشعور الوطني بين الهنود، وعن كثرة من اعتنقوا برنامجه القاضي بعدم التعاون مع السلطات الإنجليزية رد عليه طاغور بالرسالة التالية:—

— ٦١

"نحن أبناء الشرق الأدنياء الجياع رثي الثياب ..."

تشكاجو في ٢ مارس سنة ١٩٢١

في رسالتك الأخيرة أنباء سارة عن الطلبة الهنود في كلكتا، وأرجو أن تزداد هذه

---

(1)Rabindranath Tagore

(2)Charles Freer Andrews

(3)Santinlkltan

الروح التي وصفتها في هذه الرسالة روح التضحية والرغبة في مقاساة الآلام قوة على قوتها، لأن النجاح في هذا يعد غاية في ذاته، فهو الحرية الحقة وليس ثمة في رأيي شيء أعظم قيمة من الإيمان المنزه عن الغرض بالمثل العليا وبعظمة الإنسان الخلقية، لا أستثني من ذلك الثورة القومية أو الاستقلال.

إن للغرب إيمانا لا يتزعزع بالقوة المادية والرخاء المادي، إن للغرب إيمانا لا يتزعزع بالقوة المادية والرخاء المادي، ولهذا فإن وحشيته تزداد دويا كلما دوت ضيحة السلم ونزع السلاح، فتراها تصر بأسنانها وتضرب بذيلها من شدة الضجر والغيظ، فهي أشبه بسمكة آذاها قوة التيار فأعدت عدتها لأن تطير في الهواء، وما من شك في أن هذه الفكرة رائعة جميلة، ولكنها فكرة لا تستطيع السمكة أن تحققها، وعلينا نحن الهنود أن نكشف للعالم عن تلك الحقيقة التي لا تجعل نزع السلاح مستطاعا فحسب بل يجعل منه أيضا قوة.

إن القوم العزل من السلاح هم الذين سيثبتون للعالم أن القوة الخلقية أعظم من القوة الوحشية، ولقد نبذت الحياة في أعلى درجات تصورها عبثها الباهظ من الدروع الطبيعية، وقدرا كبيرا مما كان يثقلها من اللحم، وبذلك أصبح للإنسان الغلبة على عالم الحيوان، ولا بد من يوم يثبت فيه رجل الروح الضئيل الجسم الأعزل الذي لا يملك أساطيل هوائية أو بوارج حربية أن "الأرض سيرثها الوادعون".

ومن طبيعة الأشياء أن يقوم المهاتما غاندي الضئيل الجسم الذي تعوزه جميع مصادر القوة المادية فيثير قوة الوادعين العظيمة التي ظلت طوال الوقت كامنة في قلوب أهل الهند البائسين المتقصين، إن الهند قد اختارت قوة الروح لا قوة العضل حليفا لها يعينها على تحقيق أمانيها، وسيكون في مقدور الهند أن تنتشل تاريخ الإنسان من وهدة الكفاح المادي المنحطة إلى ذروة الخلق الرفيع.

وهل تعلم ما هو السواراج؟ أنه مايا[1]؛ إنه أشبه الأشياء بالضباب الذي لا

(١) "السوارج": الاستقلال الذاتي. ومايا: السراب أو الخداع.

يلبث أن يتبدد إذا طلعت عليه الشمس الدافئة ولا يبقى له أثر يلوث بهاء الخلود، ومهما خدعنا أنفسنا بجمال اللفظ الذي أخذناه عن الغرب فليس السواراج هدفنا الذي نرمي إليه، ذلك أن كفاحنا كفاح روحي، غايته هي الإنسان نفسه، فنحن نهدف إلى تحرير الإنسان من الشباك التي حاكها حول نفسه، أي من نظم الأنانية القومية، نريد أن نقنع الفراشة البشرية أن حرية السماء أعظم قدرا من ملاذ الشرنقة، فإذا استطعنا ان نتحدى الأقوياء المسلحين الأثرياء، وأن نكشف للعالم عن قوة الروح الخالدة، فسوف تنمحي تلك القلعة الحصينة قلعة الجسم الضخم الجبار وتتطاير هباء، وإذا انمحت وجد الإنسان السواراج

نحن أبناء الشرق الأدنياء الجياع الرثي الثياب سنحقق للإنسانية جميعها حريتها، إنك لا تجد في لغتنا لفظا يقابل لفظ "الأمة" وإذا ما استعرنا هذا اللفظ من غيرنا لم نجده ملائما لنا، ومن أجل هذا سنتخذ الغرابان[1] حلفا لنا، ولن ننال من النصر غير النصر نفسه، وسيكون نصرا لعالم الله، لقد شاهدت الغرب وعرفته، ولست أحسده على موائده الدنسة التي يولغ فيها كل لحظة، والتي تزيده تورما وانتفاخا واحمرارا وهذيانا خطيرا، ليس من شيمتنا هذا التهتك وتلك الخلاعة الجنونية التي تقوم قيامتها في منتصف الليل، وسط المشاعل الموقدة، بل الذي يتفق مع طبيعتنا هو اليقظة في ضياء الصباح الهادئ الصافي.

ومع أن مهنداس كرمنشاند غاندي[2] قد زج في السجن مرارا عقابا له على سياسته العدائية للبريطانيين، ومع أن الحكم البريطاني في الهند ليس أفضل كثيرا مما كان عليه من قبل دعوته، ومع أن الهند لم تنل قبل الحرب الأخيرة شيئا من حريتها واستقلالها، فإن غاندي لم يتردد عن مد يد المعونة لبريطانيا في الحرب العالمية الثانية، كما لم يتردد في ذلك طاغور نفسه، وظل طاغور على ولائه لبريطانيا حتى توفي في عام ١٩٤١.

---

(١) العنصر القدسي في الإنسان

(2)Mohandas Karamanc hand Gandhi

عهد لينين وهو على فراش الموت إلى الحزب الشيوعي

هذا الخطاب التاريخي منقول بنصه عن كتاب "بعد أن مات لينين[١]" تأليف ماكس إيستمان[٢] مترجم كتاب "تاريخ الثورة الفرنسية[٣]" لتروتسكي وقد مهد له بالمقدمة الآتية:

"في يوم عيد الميلاد من عام **١٩٢٢**[٤] كان لينين على فراش الموت معقود اللسان، فكتب رسالة يتنبأ فيها بالنزاع المحتوم بين تروتسكي واستالين، ويحلل أخلاق الرجلين، ويوصي بما يجب على الحزب الشيوعي أن يعمله لتجنب انقسامه على نفسه، وليس ثمة ما يدل على حكمة لينين وبعد نظره أكثر مما تدل عليه هذه الرسالة القصيرة التي يسمونها عهد لينين إلى حزبه، وقد أخفى استالين وأشياعه هذه الرسالة لأن كاتبها ينقده نقدا شديدا، ويوصي بعزله من الأمانة العامة للحزب وهي المركز الذي يضع في يده سلطة قوية، ولقد نقلت بضع فقرات من هذه الرسالة في عام **١٩٢٥** في كتابي (بعد موت لينين) ولكني نقلتها على مسؤوليتي الخاصة، غير أن الصحف الشيوعية الرسمية ومنها صحيفة البوليتبورو[٥] التي تصدر في موسكو أنكرت ما جاء بها، وفي **١٨** أكتوبر من عام **١٩٢٦** حين كان حزب المعارضة في الروسيا يبذل أقصى جهوده لتنفيذ وصية لينين وعزل استالين من الأمانة العامة، نشرت النص الكامل للعهد في صحيفة نيويورك تيمز، واستعنت بما جاءني به نشرها من المال في

---

(1)Since Lenin Died

(2)Max Eastman

(3)History of the Russian Rveolution

(٤) سبب اختلاف هذا التاريخ عن التاريخ المدون في أول الرسالة أن ثانيهما يعتمد على التقويم الروسي وأولهما يعتمد على التقويم الجريجوري.

(5)Politburo

الدعوة إلى المبادئ البلشفية، وهذا النص كامل دقيق يعتمد عليه كل الاعتماد"

وقد ولد نيقولاي لينين (واسمه الأصلي فلاديمير إليش إليانوف[1]) في عام ١٨٧٠ من أسرة متوسطة الحال ذات ثقافة عالية. وكانت زوجته كريسكايا[2] ابنة نبيل أخنى عليه الدهر، ولما أتم لينين دراسة القانون نفي إلى سيبيريا لطعنه في ولاة الأمور الروس، وجاء إلى إنجلترا ثم إلى سويسرا بعد ثورة عام ١٩١٥ القصيرة الأجل، واشتغل في البلدين بإذاعة تعاليم كارل ماركس التي كانت أساس الثورة الروسية والتي عاد إلى روسيا في عام ١٩١٧ ليعمل على إذاعتها بين أهلها.

أما جوزف استالين (واسمه الأصلي جوزف ثيسار يوفتش دزوجثفيلي[3]) فقد ولد في تفليس في عام ١٨٧٩ وكان أبوه إسكافيا، وأصبح في السابعة عشرة من عمره من أكبر الدعاة الثوريين، ذا سلطة واسعة في مجالس البلاشفة، ثم عين أمين السر العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي في عام ١٩١٧، وخلف لينين بعد موته سنة ١٩٢٤ في رياسة اتحاد جمهوريات السوفييت الاشتراكية.

– ٦٢

".. إن ... في القضاء على الدولة هو أن ينقسم الحزب على نفسه ..."

إن الذي أقصده بثبات اللجنة المركزية – ذلك الثبات الذي ذكرته من قبل – هو ما يستطاع عمله لمنع انقسام الحزب على نفسه، ولست أشك في أن الحارس الأبيض في رواية رسكايا مزل[4] (وأظنه س . ا . ألدنبرج[5]) كان على حق حين ذكر في روايته التي ندد فيها بروسيا السوفيتيه أن أمله في القضاء على الدولة هو أن

) (1)Vladimir llich Ulyanov) Nicolal lenin

(2)Krupskaya

) (3)Joseph Vissarionovitch Dzuganhvili) Joseph Stalin

(4)Ruskaya Mysl

(5)S. E. Oldenburg

ينقسم الحزب على نفسه، وأن أمله في انقسام الحزب هو أن يختلف أعضاؤه فيما بينهم اختلافا شديدا.

والحق أن حزبنا يستند إلى طائفتين، ومن أجل هذا فإن تزعزعه من الأمور الجائزة، وإذا لم تفق هاتان الطائفتان فيما بينهما كان سقوطه أمرا محتوما. وإذا حدث هذا الاختلاف فلا فائدة من اتخاذ أيه إجراءات لمنع انهيار الحزب أو البحث في الوسائل التي يستطاع بها تدعيم اللجنة المركزية. وفي هذه الحال يكون كل إجراء يتخذ لمنع هذا الانقسام إجراء عقيما لا يجدي نفيعا. ولكني أعتقد أن هذا إذ وقع سيكون في المستقبل البعيد، وأنه حادث بعيد الاحتمال فلا يجدر بنا أن نتحدث عنه الآن.

وإنما الذي أفكر فيه هو الاستقرار الذي يضمن عدم انقسام الحزب على نفسه في المستقبل القريب، وسأتحدث هنا عن بعض الأمور ذات الصفة الشخصية المحضة.

إني أظن أن أساس الاستقرار من هذه الوجهة هو العلاقة بين أعضاء اللجنة المركزية، وبخاصة بين ستالين وتروتسكي.

وفي رأي أن العلاقة بينهما هي التي يكمن فيها معظم الخطر الذي يهدد بذلك الانقسام، وهو انقسام يستطاع تجنبه، وأرى أن الوسيلة إلى ذلك هي زيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية إلى خمسين أو مائة.

لقد استحوذ الرفيق ستالين بعد أن صار أمينا للسر العام على سلطة واسعة، ولست واثقا من أنه يعرف على الدوام كيف يستخدم هذه السلطة بالحذر الواجب عليه، أما الرفيق تروتسكي فيمتاز بكفاياته الفذة التي برهن عليها أثناء نزاعه مع اللجنة المركزية في مسألة مندوب الشعب لطرق الاتصال، وما من شك في أنه أقدر رجل في اللجنة المركزية القائمة الآن، وأنه يمتاز فوق ذلك بإسرافه في الثقة بنفسه وبميله إلى الجري وراء الجانب الإداري المحض من شئون الحكم.

وهاتان الصفتان اللتان يتصف بهما أقدر زعيمين في اللجنة المركزية الحالية قد تؤديان من غير قصد منهما إلى انشقاق فيها، فإذا لم يعمل حزبنا على منع هذا

الانشقاق فقد يؤخذ به على غرة.

ولست أريد أن أعدد هنا الصفات الشخصية التي يتصف بها سائر أعضاء الحزب وحسبي أن أذكركم بأن الحادث الذي وقع في شهر أكتوبر، حادث زينوفيف[١]، وكمنيف[٢] لم يكن بطبيعة الحال حادثا عارضا وقع مصادفة، غير أنه يجب ألا يتخذ وسيلة للنيل منهما شخصيا كما يجب ألا تتخذ صفات تروتسكي السالفة الذكر وسيلة لاتهامه بالخروج على المبادئ البلشفية.

أما من حيث أعضاء اللجنة المركزية من الشبان فيجدر بي أن أقول بضع كلمات عن برخازين[٣] وبياتا كوفت[٤]. فهما في رأيي أعظم الأعضاء صغار السن قوة، ويجب عند النظر إليهما أن نذكر ما يأتي:

ليس بوخارين أقدر الرجال النظريين في الحزب وأنفعهم له فحسب، ولكنه فضلا عن هذا يعد بحق أحب الأعضاء إلى الحزب كله، غير أن آراءه النظرية لا يمكن أن تعد بحق منطبقة على الآراء المركسية كل الانطباق، ذلك أنه يعمد قليلا إلى التصنع والتحذلق (وهو لم يتعلم قط طرق الجدل ولم تتح له فرصة فهمها على الوجه الصحيح)

أما بيتا خوف فهو رجل يمتاز بالكفاية وقوة الإرادة، ولكنه منهمك في الشئون الإدارية، والجانب الإداري المحض في الأمور، وهو من أجل ذلك لا يمكن الركون إليه في المسائل السياسية.

ولا حاجة إلى القول بأن ما قلته عن هذين الرجلين لا ينطبق عليهما إلا في وقتنا الحاضر، ولست أعني مطلقا أن هذين الرجلين العاملين القديرين المخلصين لن تتاح

---

(1)Zinoviev

(2)Kamenev

(3)Bukharin

(4)Piatakof

لهما فرصة يكملان فيها علمهما ويصححان فيها اقتصارهما على ناحية واحدة من الأمور.

في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢.

حاشية: ستالين رجل جاف في معاملاته فوق ما يجب، وهذا العيب مما يستطاع تحمله في العلاقات القائمة بيننا نحن الشيوعيين، ولكنه إذا اتصف به من يشغل منصب أمين السر العام للحزب أصبح مما لا يستطاع تحمله بحال من الأحوال، ولهذا أقترح على الرفاق أن يبحثوا عن وسيلة يبعدون بها ستالين عن هذا المركز ويستبدلون به رجلا آخر له ما لستالين من الصفات الممتازة ولا يختلف عنه إلا في أن له منها قدر أكبر مما لستالين وأقصد بذلك أن يكون الأمين الجديد أشد من ستالين صبرا، وأعظم ولاء وأرق حاشية، وأكثر رعاية للرفاق وأقل منه ميلا مع الهوى إلخ، وقد تبدو هذه الأمور تافهة لا قيمة لها ولكني أعتقد أنها إذا نظر إليها من حيث منع الانشقاق في الحزب ومن حيث العلاقة بين ستالين وتروتسكي وهي العلاقة التي تكلمت عليها من قبل – إذا نظر إليها من هاتين الناحيتين بدت أنها ليست من الأمور التافهة، أو أنها من الأمور التافهة التي قد يكون لها شأن حاسم فيما بعد.

في ٤ يوليه سنة ١٩٢٣

ويقول ماكس إيستمن في تعليقه على هذه الرسالة:

"إن هذا الإنذار الأخير الذي وجهه لينين إلى حزبه ليؤثر في النفس تأثيرا يزداد على مر الأيام، وقد تبين فيما بعد أنه كان ينطوي على جانب عظيم من بعد النظر وأنه كان مع ذلك عديم النفع، فها نحن أولاء نراه وهو على فراش الموت يحاول منع ستالين من أن يحطم آماله ويستحوذ على السلطة كلها، وقد كان صادق النظر، فقد نفي ستالين تروتسكي أقدر أعضاء اللجنة التنفيذية. وقتل كل من رأى لينين أنهم جديرون بالذكر في رسالته، ولم يكتف بهذا بل قتل أو سجن أو نفى جميع زعماء البلاشفة وكل من كان يعتمد عليهم لينين من الزملاء حتى لم يبق منهم أحد، ثم أقام

على أنقاض مشروع لينين الذي كان يرمي إلي إنشاء جمهورية للعمال والفلاحين دولة دكتاتورية، وليس هذا إلا اسما جديدا للاستبداد".

وقد ظهر حديثا كتاب لستالين في أمريكا يسمى كفاح ستالين وردت فيه عبارة قالها هو لكامنيف:

"ليس ثمة شيء في العلم أحلى من ... أن يختار الإنسان فريسته وأن يحكم وضع خططه، وأن ينتقم أشد انتقام، ثم يأوي بعد ذلك إلى فراشه[1] ..."

---

(1)Stalin's Kampf

من أخطاء القضاء

تلك قضية أخطأ فيها القضاة فحكموا بالإعدام على رجلين لم تثبت إدانتهما بالدليل القاطع، ونفذ فيهما حكم الإعدام، ولم يستطع الرأي العام إنقاذهما.

وتفصيل ذلك أنه في الخامس عشر من إبريل عام ١٩٢٠ هاجم رجلان أو ثلاثة رجال في برينتري الجنوبية من أعمال ولاية مساشوستس[١] موظفين في أحد مصانع الأحذية كانا يحملان مبلغا كبيرا من المال، وأصاباهما بجراح بليغة. واستولى اللصان على المال وهربا به في سيارة، وقبض رجال الشرطة على رجلين مهاجرين مغمورين أحدهما سماك متجول، والثاني صانع أحذية، يدعى أحدهما برتولوميو فنزتي[٢] والآخر نيقولا سكو[٣]. وسرعان ما أصبح اسماها رمزا لضحايا القضاء الأعمى أو الخاطئ.

وظل الرجلان سبع سنين يقاسيان عذاب السجن، والمحامون عنهما يكافحون كفاحا شديدا لإنقاذهما؛ وأخذ الأحرار في العالم كله، وقد روعهم حكم القضاة على الرجلين من غير أدلة أو بأدلة مزورة، يعملون كل ما يمكن عمله لإطلاق سراحهما.

وفي ٢١ أغسطس من عام ١٩٢٧ كتب فنزيي الرسالة التالية إلى دانتي[٤] ابن صديقه سكو، وكان فنزتي هذا ذا آراء فوضوية، وكانت هذه الآراء مما أساء إلى مركزه في القضية وأبعد عنه عطف القضاة.

---

(1)South Braintree, Massachuselts

(2)Bartolomeo Vanzetti

(3)Nicola Sacco

(4)Dante Saocco

— ٦٣

"... سبع سنين وأربعة أشهر وسبعة عشر يوما قضيناها في ظلم وعذاب لا يمكن وصفه ..."

في ١١ أغسطس سنة ١٩٢٧ من دار الموت في سجن مساشوستس الحكومي.

عزيزي دانتي:

لا يزال لدي بعض الأمل، وسنجاهد إلى آخر لحظة من حياتنا لنثبت حقنا في أن نعيش وأن نكون أحرارا ؛ ولكن جميع قوى الدولة والمال والرجعية تقاومنا أشد مقاومة لأنا من ذوي الآراء الحرة أو من الفوضويين.

ولن أطيل عليك في هذا الموضوع لأنك لا تزال حدثا لا تستطيع أن تفهم هذه الأمور وغيرها مما كنت أود أن أفضي إليك به، ولكنك إذا وفقت في حياتك، سوف تكبر وتفهم قضيتي وقضية أبيك، ومبادئي ومبادئ أبيك التي من أجلها سيقضي على حياتنا بعد قليل.

وسأقول لك الآن إن كل ما أعرفه عن أبيك يثبت أنه غير مجرم، وأنه من أكثر من عرفتهم من الناس شجاعة، وستعرف في يوم من الأيام ما أوشك أن أخبرك به، وهو أن أباك قد ضحى بكل ما هو عزيز على القلب والنفس، وبكل ما هو مقدس لديهما لينال حظه من الحرية، وليتمتع الناس جميعا بالعدالة، وستفتخر في ذلك اليوم بأبيك، وإذا كان لك من الشجاعة نصيب موفور فستحل مكانه في الصراع القائم بين الطغيان والحرية، وستوفق لتطهير اسمينا ودمائنا.

وإذا كان مقدر علينا أن نموت الآن فستعرف حين تستطيع أن تفهم هذه المأساة كاملة مقدار ما كان عليه أبوك من طيبة القلب، وما أوتي من الشجاعة، وكيف كانت شجاعتنا نحن الأثنين في هذه السنين الثماني، سنى الحزن والكرب والألم المبرح والعذاب.

وستكون من الآن رغم حداثتك طيبا شجاعا مع أمك، ومع إينيس[1] ومع سوزي[2] – ألا ما أشجعك وما أطيب قلبك يا سوزي – وستبذل جهدك في مواساتهن ومساعدتهن.

وأحب أيضا أن تذكرني على أني زميل وصديق لأبيك ولأمك، ولإينيس ولسوزي ولك؛ وثق أني لم أكن قط مجرما، ولا لصا ولا سفاكا للدماء، وأن كل ما فعلته أنني كافحت كفاحا متواضعا للقضاء على الجرائم التي يرتكبها بنو الإنسان، وعملت على أن يتمتع الناس جميعا بالحرية.

وأعلم يا دانتي أن كل من يقول غير ذلك عني وعن أبيك كاذب يسوئ سمعة رجلين ميتين كانا في حياتهما من أشجع الناس، وأعلم وأذكر يا دانتي أني لو كنت أنا وأبوك من الجبناء المنافقين الذين يتاجرون بعقيدتهم لما أعدمنا، وأننا لو كنا كذلك لما رأوا في الأدلة التي اصطنعوها ما يكفي للحكم علينا، فهي أدلة لا تكفي لإدانة كلب أو إعدام عقرب سامة مميتة، ولو كنا من هذا الصنف الذي ذكرت وقدمنا الأدلة التي استندنا إليها لإعادة النظر في قضيتنا لما ترددوا في هذا، ولو كنا ممن قتلوا أمهاتهم أو من أعتدوا الإجرام.

أذكر يا دانتي أذكر هذه الأشياء على الدوام! لسنا مجرمين. لقد أدانونا بناء على أدلة مصطنعة، وحرمونا من إعادة النظر في قضيتنا، وإذا ما أعدمونا بعد سبع سنين أو أربعة أشهر وسبعة عشر يوما قضيناها في ظلم وعذاب لا يمكن وصفه، فقد فعلوا ذلك لأسباب التي ذكرتها لك، ولأنا كنا نناصر الفقراء ونقاوم استغلال الإنسان وظلمه لأخيه الإنسان.

وستجد في وثائق قضيتنا – وهي الوثائق التي ستجمعها أنت وغيرك وتحتفظون

---

(1) Ines

(٢) Susie وكانت سوزي صديقة وفية لزوجة سكو وكانت هي وأولادها يعيشون معها في آخر أدوار القضية.

بها – ما يثبت لك أن أباك وأمك وإينيس وأسرتي وأنا قد ضحي بنا من أجل الرجعية البلوتوقراطية الأمريكية والدولة التي تؤيدها.

وسيأتي اليوم الذي تدرك فيه ما ينطقني بهذه الألفاظ المروعة، وستدركه وقتئذ كاملا غير منقوص، وستجلنا في ذلك الوقت وتفخر بنا.

والآن يا دانتي أوصيك بأن تكون شجاعا طيبا على الدوام وأعانقك.

حاشية: لقد تركت في هذه الساعة لأمك نسخة أمريكية من الكتاب المقدس، فهي تحب أن تقرأ هذا الكتاب، وستعطيك إياه حين تكبر وتستطيع فهم ما فيه، احتفظ به تذكارا مني فإنه سيكون إلى هذا شاهدا دائما على ما كانت تحبونا به مسز جرترود ونسلو[1] من رعاية وكرم، أستودعك الله يا دانتي.

بار ثولوميو

وأعدم سكو وفنزيي في اليوم التالي على الكرسي الكهربائي، ولما جلس سكو على هذا الكرسي صاح باللغة الإيطالية: "لتحيا الفوضوية" وودع باللغة الإنجليزية زوجته وابنته وأمه وأصدقاؤه. وأعلن فنزيي أنه برئ وأنكر الجريمة، واعترف ببعض الذنوب، وكان آخر ما نطق به: "أحب أن أسامح بعض الناس وأعفو عما يفعلونه بي الآن".

وقد نشرت تفاصيل هذه القضية ووثائقها في ستة مجلدات ضخمة، وقام على نشرها طائفة من المحامين والقضاة والمؤرخين العدول، وكلهم مجمعون على أن الأدلة التي حكم بمقتضاها على سكو وفنزيي لا تكفي لإدانتهما، وأن القاضي وبستر تاير[2] رجل متحيز تحيزا شنيعا مفسدا للعدالة، وأن اللجنة التي عينت لبحث القضية لم تقم بواجبها على الوجه الأكمل، ويعتقد معظم من درسوا هذه القضية أن الجريمة التي اتهم بها الرجلان وأدينا بها وأعدما من أجلها قد ارتكبها في الحقيقة بعض رجال العصابات الأمريكية التي تعيث في البلاد فسادا.

---

(1)Mrs. Gertrude Winslow

(2)Jadger Webster Thayer

٥ . ل منكن يقول لأحد الفلاسفة إن الله قد أحسن إليه كل الإحسان

[رسالته إلى ول دوران]

يطلق على هـ . ل منكن اسم حكيم بلتيمور، وهو محرر وصحفي ومؤلف وناقد وكاتب رسائل مكثر من كتابتها، ولد هنري ل . منكن[١] في بلتيمور في عام ١٨٨٠ واشترك من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٢٣ في تحرير صحيفة سمارت ست[٢] ثم أنشأ في العام التالي هو وزميل له جريدة ذي أمريكان ميركري[٣]، وظل يشرف وحده عليها حتى عام ١٩٣٣، وهو أيضا من هواة الموسيقى.

وقد كتب منكن الرسالة التالية في عام ١٩٣٣ ردا على سؤال وجهه إليه ول دوران[٤] مؤلف "قصة الفلسفة" كما وجهه إلى غيره من الكتاب يسألهم فيه عن معنى الحياة في رأيه.

– ٦٤

"... البطالة مؤلمة للكائن الحي"

تسألني بالاختصار عما أناله من متعة في الحياة ولم أدأب فيها على العمل؟ وردي على سؤالك هو أني أدأب على العمل كما تدأب الدجاجة على البيض؛ ذلك أن في كل كائن حي دافعا خفيا ولكنه دافع قوي يحفزه إلى العمل بجد، إن الحياة تتطلب من الكائن الحي أن يحيا، والبطالة مؤلمة للكائن الحي السليم شديدة الخطر

---

(1)Henry L. Mencken

(2)Smart Set

(3)The American Mercury

(4)Will Durant

عليه إلا إذا كانت وسيلة للاستجمام بين فترات النشاط القوي – بل إن البطالة في واقع الأمر تكاد تكون مستحيلة – والتعطل الحق لا يستطيعة إلا المحتضر.

أما الصورة التي يتخذها نشاط إنسان ما فالذي يعينها بطبيعة الحال هو الجهاز الذي جاء به إلى هذا العالم، ومعنى هذا أن الوراثة هي التي تعينه، فأنا لا أبيض كما تبيض الدجاجة لأني لم أعط جهازا للبيض، ولهذا السبب عينه لا أنتخب عضوا في مجلس الأمة الأمريكية، ولا أعزف على الكمان، ولا أدرس علم ما وراء الطبيعة في كلية من الكليات، ولا أعمل في مصنع من مصانع الصلب، بل الذي أعمله هو أسهل الأشياء إلي، وفد حدث أني ولدت ذا ولع شديد لا يشبع بالآراء والأفكار، ومن أجل هذا أحب أن أقلبها في عقلي، ولقد كان من قبيل المصادفة أيضا أني وهبت من يوم مولدي قدرة أكثر من أوساط الناس على التعبير عن هذه الآراء، ومن أجل هذا كنت كاتبا ومحررا أي متجرا في هذه الآراء ومخترعا لها.

وليس في هذا كله شيء من الإرادة الواعية، فالذي أفعله من تصاريف الأقدار المجهولة التي لا يعرف الناس أسرارها، وليس لي يد في اختياره، وحالتي أنا نفسي شاهد على صدقي، فقد أحببت في حداثة سني أن أكون كيميائيا، وكان يدفعني إلى ذلك ما كنت أحس به من رغبة قوية وإن لم تكن جامحة في الإلمام بالحقائق المحددة، أما والدي المسكين فقد حاول أن يهيئني لأن أكون من رجال الأعمال، وكانت نفسي تتوق في بعض الأوقات –كما تتوق نفس كل من كان مثلي رقيق الحال – إلى جمع المال بأحد الأساليب الهينة، ولكني رغم هذا كله أصبحت كاتبا وسأظل كاتبا طوال حياتي كما تظل البقرة تدر اللبن طوال حياتها حتى لو كانت مصلحتها هي أن تدر الخمر.

وأنا أسعد حظا من أكثر الناس، لأني استطعت من حداثة سني أن أحيا حياة طيبة بالعمل فيما كنت أريد أن أعمل فيه – أي فيما كنت أعمل فيه– راغبا مسرورا من غير أجر لو طلب إلي ذلك، ولست أعتقد أن في الناس كثيرين غيري وقد وارتاهم الحظ كما وأتاني؛ فما أكثر من يضطرون إلى العمل لكسب قوتهم في أشياء لا

يسرهم أن يعملوا فيها. أما أنا فقد كانت حياتي سارة إلى حد كبير وإن كان قد أصابني ما يصيب الناس عادة من أحزان، وذلك أني كنت حتى في هذه الأحزان نفسها أستمتع بتلك المتعة التي لا يخلو منها كل نشاط حر طليق. فقد كنت أعمل في أغلب الأوقات ما كنت أريد عمله، ولم أكن أعنى إلا قليلا بما عساه أن يكون لهذا العمل من أثر في غيري من الناس، فأنا لم أكتب ولم أنشر لأرضي بذلك غيري من الناس، بل فعلت ذلك كله لأرضي نفسي، كما تدر البقرة اللبن لترضي نفسها لا لتفيد اللبان، ويسرني أن أفكر في أن معظم آرائي كان صحيحا، وإن كان ذلك لا يهمني في واقع الأمر. وسواء علي أقبل العالم كتاباتي أم رفضها فقد استمتعت أنا نفسي بإخراجها.

ويأتي بعد العمل المرغوب فيه من حيث هو طريق للسعادة ما يسميه هكسلي بالعواطف المنزلية – أي صلات الإنسان اليومية بأفراد أسرته وأصدقائه، لقد شهد منزلي أحزانا مريرة ،ولكنه لم يشهد منازعات حادة خطيرة ولم يذق للفقر طعما، لقد كنت جد سعيد في حياتي مع والدتي وأختي وأنا جد سعيد مع زوجتي، ومعظم من أتصل بهم من الناس أصدقاء لي من قديم الزمان، عرفت بعضهم من ثلاثين عاما أو أكثر من ثلاثين، وقلما تتوثق صداقتي مع من لم تدم معرفتي له عشر سنين، وأنا أسر من صحبة هؤلاء وأفزع إليهم حين أفرغ كمن عملي، وأنا شديد الرغبة في لقائهم، وأنا وأياهم متفقون في أذواقنا العامة، ننظر جميعنا إلى العالم نظرة شديدة التقارب، وكثيرون منهم مولعون بالموسيقى كما أولع بها أنا، فقد حصلت منها في الحياة على لذة لا تعادلها لذتي من أي شيء آخر خارج عني، ويزداد حبي إياها عاما بعد عام.

[ويلي هذا بحث في الدين وبعض عقائده لا نرى ضرورة لإثباته]

ولو اتسعت لنا هذه الصفحات لأثبتنا فيها رسالة أخرى لمنكن يصف فيها ولعه الشديد بالموسيقى.وقد نشر بعد هذه الرسالة التي وجهها إلى ول دوران رسالة أخرى هي دراسة فلسفية في الحق والباطل سجل فيها تاريخ الاثني عشر عاما الأولى من حياته وحنينه إلى هذه السنين، وسمى هذه الأيام "الأيام السعيدة".

ليون فختفنجر يبعث برسالة إلى ساكن بيته الذي اغتصبه النازيون

[خطاب مفتوح إلى المستر س]

ولد ليون فختفنجر[1] في عام ١٨٨٤ وهو كاتب روائي وشاعر وفيلسوف.

وبينا كان هذا الأديب الكبير في زيارة لأمريكا في شهر مارس من عام **١٩٣٣** صادر النازيون بيته، وأتلفوا مكتبته ثم أعطوا المنزل إلى أحد أعضاء الحزب النازي البارزين، فلما سمع بالخبر كتب الرسالة التالية إلى ساكن هذا البيت:

– ٦٥

"ستسكن في بيوت لم تشيدها"

سيدي العزيز:

لست أعرف اسمك ولا الطريقة التي امتلكت بها بيتي، وكل الذي أعرفه أن رجال الشرطة في الريخ الثالث صادروا من عامين أملاكي الثابتة والمنقولة وأسلموها إلى الشركة المساهمة التي أنشأها الريخ لمصادرة أملاك المعارضين السياسيين (ورئيس مجلس إدارة هذه الشركة هو الوزير جورنج[2]) وعرفت هذا من رسالة بعث بها إلي أصحاب الرهون، وقالوا فيها إن قوانين الريخ الثالث الخاصة بمصادرة أملاك المعارضين السياسيين لا شأن لها إلا بما يتبقى لأصحابها من أثمان هذه الأملاك بعد أداء ما عليها، ومع أن قيمة بيتي ورصيدي في المصرف – وقد صودر هذا الرصيد أيضا – تزيد كثيرا على قيمة الرهن، فإني سأضطر إلى أن أستمر على أداء فوائده، وما تفرضه ألمانيا علي من ضرائب، وذلك مما أكسبه من أموال في خارج ألمانيا. على

(1)Lion Feutchtwanger

(2)Goering

أنه مهما يكن من هذا الأمر فإنك أنت يا مستر س تحتل منزلي، بينا يرى القضاة الألمان أن من واجبي أن أؤدي أنا ما عليه من الضرائب.

وما رأيك في منزلي يا مستر س؟ هل أعجبتك السكنى فيه؟ وهل أصيبت الطنافس ذات اللون الفضي – الرمادي التي في الحجر العليا بسوء حين كان رجال الشرطة ينبهون البيت؟

لقد فر رئيس الخدم وقتئذ في هذه الحجر العليا إذ بدا له أن أولئك الرجال قد اعتزموا أن يصبوا عليه جام غضبهم ما دمت أنا بعيد عنهم في أمريكا، إن تلك الطنافس سريعة العطب وإن يكن لونها الأحمر قويا لا يسهل استئصاله، ولم يكن الذين وضعوا ألواح المطاط في الدهاليز يظنون أن أولئك الرجال سيطئونها بأحذيتهم الثقيلة.

وهل لاحت لك فكرة عن الغرض الذي من أجله أنشأت شرفة تكاد تكون مغلقة على سطح الدار؟ لقد كنت أنا وفرو فختفنجر[1] نستخدمها في تمارين الصباح الرياضية فلعلك تحرص على ألا يتجمد الماء في الميازيب ...

ولست أدري في أي الأغراض استخدمت الحجرتين اللتين كانتا تضمان مكتبتي، لقد قيل لي يا مستر س إن الكتب ليست من الأشياء المرغوب فيها كثيرا في الدولة التي يعيش في كنفها، وإن من يظهر شيئا من الاهتمام بها يعرض نفسه للمتاعب، لقد قرأت أنا مثلا كتاب زعيمكم وحكمت وأنا صادق في حكمي أن المائة والأربعين ألف كلمة التي يحتويها ليست إلا مائة وأربعين ألف جريمة ارتكبت في حق وروح اللغة الألمانية، وكانت نتيجة حكمي هذا هي وجودك أنت الآن في منزلي.

وإني لأعجب أحيانا في أي الأغراض تستخدم خزائن الكتب في ظل الريخ الثالث!

---

(1)Frau Feuchtwanger

فإذا بدا لك أن تزيلها من مواضعها فاحذر أن تتلف الجدران في أثناء عملك هذا ...

وهناك مسألة أخرى أذكرها لك عرضا. هل لا يزال الشارع الذي به بيتنا يسمى مهلر ستراس[1]؟ هل غفل سادة دولتكم عن أن جستاف مهلر[2] الذي سمي الشارع باسمه كان يهوديا، أو هل لفت رتشرد استروس[3] نظرهم إلى هذه الحقيقة؟

وماذا فعلت بمسرح الحيوانات البرية الذي كان قائما عند إحدى نوافذ حجرة مكتبي؟ هل قتلت كل سلاحفي وكل ضبابي لأن صاحبها "أجنبي"؟ وهل أصيبت أحواض أزهاري وحدائقي الصخرية بتلف كبير حين كان رجال الشرطة يطاردون خادمي المنهوك القوى، ويطلقون النار عليه وهو يعدو في الحديقة متجها إلى الغابات التي وراءها؟

ألا يخيل إليك في بعض الأحيان أن سكناك في منزلي أمر غريب؟ إن زعيمك لا يعد عادة صديقا للآداب اليهودية، أليس من أغرب الأشياء إذن أن يكون مولعا بكتاب العهد القديم إلى هذا الحد؟ لقد سمعته بأذني يردد بحماسة شديدة هذه العبارة: "العين بالعين والسن بالسن". ولعله كان يعني بهذه العبارة أن "النقد الأدبي يجزى عليه بمصادرة الملك".

ولقد استطاع الآن على يديكم أن يحقق إحدى نبوءات العهد القديم وهي "ستسكن بيوتا لم تشيدها"

أطيب التمنيات إلى بيتي.

ليون فختفنجر

---

(1)Mahlerstrasse

(2)Gustav Mahler

(3)Richard Strauss

حاشية: لعلك تظن أن قولي إن زعيمكم لا يحسن الكتابة باللغة الألمانية يبرره وجودك الآن في منزلي؟

ولسنا نعرف أن مستر س قد رد على رسالة فختفنجر. وقد نشر هذا الكاتب في عام ١٩٣٤ رواية سماها The Oppermanns اشتهرت في أنحاء العالم كله لما وجهه فيها من التهم للحكم الهتلري، ثم خرج المؤلف بعد كتابتها من ألمانيا إلى فرنسا، وكتب وهو في منفاه روايته الأخيرة The Paris Gazette ويقال أنه فر في عام ١٩٤٠ إلى البرتغال لما غزا الألمان فرنسا.

تومس مان يتهم النظام الهتلري بجرائمه السرية والعلنية

رسالته إلى عميد كلية الفلسفة بجماعة بن

هذا ما يقوله أكبر أدباء العصر الحاضر عن الحكم النازي في رسالة من أقوى الرسائل وأشدها حماسة.لقد ظل تومس مان في بدء قيام النازية هادئا لم يضطرب كثيرا بإرعاد أدولف هتلر وإبراقه، وبقى حتى عام ١٩٣٠ يعتقد أن هتلر سيختفي في القريب العاجل من مسرح السياسة العالمية.

ولما أوشكت الموجة الأولى من التعصب النازي أن تبتلع ألمانيا لم يستطع هذا الرجل الهادئ الرزين أن يكظم غيظه فثارت ثائرته، ولما استولى النازيون على أزمة الحكم في عام ١٩٣٣ ندد بحكمهم مرة أخرى. وفي عام ١٩٣٧ بينما كان تومس مان يعيش في مدينة زيورخ[١] بسويسرا شبه منفي من بلاده إذ تلقى رسالة من عميد كلية الفلسفة في جامعة فردك وليم[٢] في بن[٣] هذا نصها:

إلى الهر تومس مان الكاتب: بناء على طلب مدير جامعة بن أبلغك أن كلية الفلسفة ترى نفسها مضطرة إلى أن تمحو اسمك من سجل دكاترة الشرف بها بعد أن فقدت حقوقك الوطنية: وقد ألغى الآن حقك في التمتع بهذا اللقب حسب نص المادة الثامنة من النظم الخاصة بمنح الدرجات الجامعية:

(التوقيع غير واضح)

العميد

---

(1)Thomas Mann

(2)Zurich

(3)The Philosophical Faculty of Fredruck William University

فلما تلقى تومس مان هذه الرسالة الجافة لم يوجه الرد إلى عميد الكلية وحده، بل وجهه أيضا إلى الشعب الألماني بأجمعه:

– ٦٦

"اللهم أعن بلدنا المظلم المدنس ..."

إلى عميد كلية الفلسفة في جامعة بن:

تلقيت رسالتك المحزنة التي وجهتها إلي في التاسع عشر من ديسمبر، فاسمح لي أن أبعث إليك بالرد التالي:

إن على الجامعات الألمانية قسطا كبيرا من تبعة المحن المحاضرة، وهي التبعة الثقيلة التي تحملتها طائعة حينما أساءت فهم واجبها في تلك الساعة الحاسمة من تاريخها، وسمحت لتربتها بأن تغذي القوى الغاشمة التي أشاعت الفساد في ألمانيا من النواحي الخلقية والسياسية والاقتصادية.

وهذه التبعة الخطيرة قد أفسدت علي من زمن بعيد ما كنت أجده من الغبطة فيما نلته من ألقاب الشرف العلمية، وحالت بيني وبين الانتفاع بها بأي وجه من الوجوه، هذا إلى أني أتمتع في هذه الأيام بدرجة دكتور فخري في الآداب منحتني إياها جامعة هارفارد[1] من زمن قريب.

ولست أرى بدا من أن أشرح لك الأسباب التي من أجلها منحت هذه الدرجة. إن براءتها تحوي جملة هذا نصها مترجما عن اللاتينية:

"نحن مدير الجامعة والزملاء المجتمعين في جلسة رسمية قد منحنا بموافقة مجلس الجامعة الموقر درجة دكتور فخري في الآداب لتومس مان المؤلف الذائع الصيت الذي أوضح حقيقة الحياة للكثيرين من مواطنينا، والذي احتفظ مع عدد جد قليل من معاصريه بما للثقافة الألمانية من كرامة ومكانة عالية، ومنحناه كل ما تخوله هذه

---

(1)Harvard University

الدرجة من حقوق ومزايا".

هذه هي الألفاظ التي يعبر بها الرجال الأحرار المستنيرين وراء المحيط عن رأيهم في، وهي عبارات تناقض كل المناقضة الآراء السائدة بين الألمان في هذه الأيام، وهل في وسعي أن أقول أيضا إنها ليست مقصورة على تلك البلاد، ولم يكن يدور بخلدي أن أفخر بهذه العبارات التي نقلتها هنا، أما الآن وفي هذا المكان فإنه يجوز لي بل يجب علي أن أذكرها وأعيد ذكرها.

وإذا كنت يا جناب العميد قد علقت صورة من الرسالة التي بعثت بها إلي على لوحة الإعلانات في الجامعة (لأني أجهل الإجراءات التي يطلبها عملكم هذا)، فإني يسرني أن يحظى ردي بهذا الشرف نفسه، ولعل عضوا من أعضاء الجامعة، ولعل طالبا أو أستاذا فيها، ينتابه خوف مفاجئ، أو يسري في نفسه شعور قوي بخطر داهم، إذا قرأ هذه الوثيقة التي يرى فيها وهو في عزلته المشينة وجهله الفاضح المفروضين عليه بصيصا من عالم الحرية الفكرية الذي لا يزال قائما في خارج بلاده.

ولقد كان في وسعي أن أكتفي بهذا القدر، ولكن يخيل إلي في هذه الساعة أنه يحسن بي، أو على الأقل يجوز لي، أن أوضح لكم أمورا أخرى، لقد سكت حين أذيع على الناس حرماني من حقوق المدنية، وإن كنت قد طلب إلي أكثر من مرة ألا أسكت على هذا الحرمان؛ ولكني أرى أن تجريدي من الألقاب العلمية ظرف مناسب أقول فيه كلمة قصيرة عن نفسي؛ ورجائي إليك يا جناب العميد (ولم أحظ بشرف معرفة اسمك) ألا تعد نفسك أكثر من شخص ساقته الظروف لتلقي رسالة لم توجه قط إليه بصفته الشخصية.

لقد عشت أربع سنين منفيا من بلادي نفيا لا أستطيع أن اسميه اختياريا، لأني لو بقيت في ألمانيا هذه السنين الأربع أو عدت إليها في إثنائها لما كنت حيا في هذا اليوم، وقد ظللت طوال هذه السنين الأربع في عناء معن من جراء حظي العاثر الذي ساقني إلى هذه الحالة التي ظلت على الدوام تقض مضجعي، إني لم يدر قط في

خلدي، بل لم يكن في وسع إنسان أن يتنبأ لي قط وأنا في مهدي، أني سأقضي سنى حياتي طريدا من بلادي، منتزعة مني أملاكي، محروما من حماية القانون، لا أرى بدا من الاحتجاج السياسي على مواطني.

ولقد كنت أشعر من بدء حياتي الفكرية بأن مزاجي يتفق ومزاج أمتي، وكنت راضيا عن تقاليدها الفكرية، سعيدا أعظم السعادة بذينك الرضا والاتفاق، ويقيني أنني أجدر بأن أكون ممثلا لهذه التقاليد من أن أكون شهيدها، وأني أقدر على أن أضيف شيئا قليلا إلى بهجة العالم مني على بذر الشقاق والبغضاء فيه، وإذن فلا بد أن خطأ شنيعا من نوع ما هو الذي جعل حياتي تسير في هذا الطريق الملتوي الذي لا يلائم طبيعتي، ولقد حاولت أن أقف في وجه هذا الخطأ الشنيع، وبذلك في ذلك ما لدي من جهد قليل ، وكانت نتيجة عمل هذا تلك الحالة التي أعانيها والتي لا أرى مفرا من أن أحاول التوفيق بينها وبين طبيعتي وإن كانت لا تتفق معها في شيء.

وما من شك في أني أثرت غضب أولئك الطغاة ببقائي في خارج البلاد، وبإظهار اشمئزازي من أعمالهم، وهو اشمئزاز لم يكن في مقدوري أن أكتبه، ولكني لم أقف في وجه هذا الخطأ في الأربع السنين الأخيرة دون غيرها؛ لقد كنت أحس هذا الإحساس نفسه قبل ذلك بزمن طويل، يدفعني إلى هذا أني رأيت – قبل أن يرى مواطني البائسون في هذه الأيام – عاقبة هذا كله وعرفت أي صنف من الناس سيخرج لنا منه، فلما وقعت ألمانيا في قبضة تلك الأيدي، فكرت في أن أمسك لساني، واعتقدت أن ما بذلته من تضحية يجعل من حقي أن أصمت، وأن هذا الصمت سيمكنني من الاحتفاظ بشيء عزيز على محبب إلى قلبي – وهو الاتصال بجمهور الشعب في داخل ألمانيا، وقلت في نفسي أن كتبي قد وضعت للألمان قبل غيرهم من الشعوب، أما العالم الخارجي وعطفه علي فلم يكن في نظري أكثر من مصادفة سعيدة، لقد كانت هذه الكتب ثمرة اتصال وثيق بين مؤلف وأمته، تغذيه ويغذيها، وهي تستمد ما فيها من ظروف عملت أنا نفسي على إيجادها في ألمانيا، وهذه الصلة وأمثالها صلات دقيقة ذات خطر عظيم يجب ألا تعمل السياسة على قطعها هذا

القطع العنيف، وقد يكون في داخل ألمانيا رجال كمت أفواههم فلا يستطيعون النطق، ولا يطيقون سكوت من كان مثلي طليقا غير مقيد، ولكني كنت أرجو أن تكون الكثرة الغالبة من الشعب الألماني ممن يدركون سبب هذا التحفظ، بل لعلها كانت تشكره لي.

ذلك ما كنت أظنه، ولكني لم أستطع تحقيق هذه الظنون. فلم يكن في وسعي أن أعيش أو أعمل – بل كدت أختنق – إذا لم أنفس عن كربي من حين إلى حين، وأطهر قلبي – إذا صح أن أعبر عن إحساسي هذا التعبير – بالجهر باشمئزازي مما يحدث في

داخل بلادي – ما كان يقال فيها من ألفاظ محتقرة مرذوله، وما يعمل فيها من أعمال أجدر من هذه الألفاظ بالاحتقار، وكان من جراء ذلك أن ربط العالم الخارجي اسمي إن خطأ وإن صوابا يصوره للبلاد الألمانية يبها ويجلها، وأحسست بصوت داخلي يقض مضجعي ويناديني أن الواجب يقتضيني دون غيري أن أحول دون هذا الخطر المنذر بتشويه هذه الصورة المحببة المبجلة، وقد أفسد هذا الصوت جميع الأخيلة الحرة المبدعة التي كان يسرني ويسعدني أن أسلم لها عنان تفكيري، لقد صوتا مدويا لا يستطيع أن يقاومه من أعطى القدرة على الجهر بما في ضميره، ومن اعتاد أن يفرغ ما في قلبه على قلمه، ومن كان اعمله كله هو "الكلمة" المطهرة المنجية.

إن في "الكلمة" لسرا عظيما رهيبا، وإن ما تقتضيننا من واجب نحوها ونحو طهارتها لهو من الواجبات المقدسة الروحية، وليست قيمتها مقصورة على ما فيها من جمال فني بل تشمل أيضا ما فيها من معنى روحي جليل، ففيها تتمثل التبعة بأكمل معانيها، تبعة المرء نحو الإنسانية بأكملها، وتبعته نحو أبناء وطنه، وواجبه في أن يحتفظ بصورتها طاهرة أمام أنظار الإنسانية، في الكلمة تنطوي وحدة الإنسانية ووحدة المشكلة البشرية، تلك المشكلة التي لا تسمح للمرء في هذه الأيام على الأخص بأن يفصل الأمور الذهنية والفنية عن الأمور السياسية والاجتماعية، وأن يعتزل العالم في داخل برجه العاجي برج "الثقافة" المحضة.

إن هذه الوحدة الحقة لتشمل الإنسانية نفسها؛ وكل من يحاول أن يفصل من هذه الوحدة جزءا من الحياة البشرية، ويقطع الصلة بينه وبين سائر الأجزاء – وأقصد بهذا الجزء السياسة أي الدولة – إنما يعتدي على الانسانية كلها اعتداء إجراميا.

وهل يسع المؤلف الألماني الذي أوتي القدرة على التعبير، وما تلقيه عليه هذه القدرة من تبعات، والذي تتمثل وطنيته مهما يكن فيها من سذاجة في اعتقاده أن كل ما يحدث في ألمانيا يؤثر في العالم كله أثرا أدبيا لا يقف مداه عن حد ؟ هل يسع هذا المؤلف أن يلزم الصمت، والصمت المطلق، وهو يرى ما يحدث كل يوم في بلادنا من شرور، وما يرتكب فيها كل يوم من اعتداء شنيع على الأجسام والأرواح والعقول، وعلى الحق والصدق، وعلى الأفراد وعلى الإنسانية جمعاء؟ وهل يليق به أن يسكت وهو يرى الخطر الداهم يحدق بالقارة كلها من جراء هذا النظام المتلف للأرواح الذي يسود بلادنا، وقد عميت بصائر القائمين عليه فلم يفطنوا إلى تلك الساعة الرهيبة، ساعة الخطر التي دقت اليوم في العالم؟ إن هذا السكوت لم يكن مستطاعا، ولهذا نطقت مرغما بما نطقت به وصدرت عني تلك الألفاظ والحركات المريبة التي أدت إلى تلك النتيجة المحزنة، وهي حرماني من حقوقي الوطنية، وإن مجرد العلم بأقدار أولئك الناس الذين شاءت الظروف أن تكون في يدهم القدرة على حرماني مما هو حق لكل ألماني .. أقول إن مجرد العلم بأقدار أولئك الناس يكفي وحده لإظهار عملهم هذا في أبشع صوره، يا عجبا كل العجب! إنهم يقولون إني لوثت شرف الدولة الألمانية حين اعترفت بأني أعارضهم! لقد كان لهم من صفقة الوجه ما يجيز لهم أن يخلطوا بين أنفسهم وبين ألمانيا! على حين أنه قد لا يمضي إلا قليل من الوقت حتى يكون من أوجب الواجبات على الشعب الألماني ألا يخلط بينه وبينهم.

وأي مأزق جروا إليه ألمانيا في أقل من أربع سنين. لقد خربوها، وامتصوا دماءها جسما وروحا ليصنعوا الأسلحة التي يهددون بها العالم كله، فأثاروا بعملهم هذا العالم كله عليها، وحالوا بينه وبين واجبه السلمي الحق، حتى أصبح وليس فيه من يحبها ومن لا يخافها ويمقتها، وأصبحت من الخراب الاقتصادي قاب قوسين أو أدنى، على

حين نرى "أعداءها" يمدون أيديهم إليها في خوف وهلع لينتشلوا من هذه الهوة السحيقة ذلك العضو الهام من أعضاء أسرة الأمم المستقلة، وليعينوها على أمرها، وهم لا يطلبون إليها إلا أن تثوب إلى رشدها وتحاول أن تدرك حاجات العالم الحقة في تلك الساعة، بدل ما تتخيله من أحلام عن "حاجاتها المقدسة" الموهومة.

أجل! إن ألمانيا لابد لها في آخر الأمر أن تتلقى العون من أولئك الذين تهددهم وتعطل مصالحهم، حتى لا تجر معها سائر القارة إلى الهاوية، وتسلط عليها نيران الحرب التي تضعها دائما نصب أعينها، والتي تعدها على الدوام هدفها الأخير، إن الدول الناضجة المثقفة – وأعني بها الدول التي تدرك تلك الحقيقة الجوهرية وهي أن الحرب قد أصبحت من الأعمال التي لا يسمح العالم بإشعال نارها – تعامل هذا البلد المحدق به الخطر والذي يهدد أمن العالم وسلامته، تعامله أو تعامل الزعماء المشئومين الذين وقعت مصايره في أيديهم، كما يعامل الأطباء المريض .. تعامله بمنتهى الحكمة والحيطة وبصبر لا ينفذ وإن كان صبرا لا يرفع من شأنه كثيرا في أعين سائر الشعوب. ولكن ألمانيا تظن أن من واجبها أن تصطنع السياسة – سياسة القوة – مع أولئك الأطباء وأن تفرض عليهم زعامتها، وليس هذا صراعا بين ندين، ذلك أنه إذا كان أحد الطرفين يلجأ إلى هذا الضرب من السياسة، في حين أن الطرف الآخر يلجأ إلى السلم ويعتصم بها، فإن أولهما يتفوق على الثاني في بادئ الأمر، ويجني من وراءه ذلك بعض النفع، والذين يجهلون الحقائق الواقعة ولا يعلمون أن الحرب لم تبق من الأعمال المسموح بها ينالون بعض "النصر" على أولئك الذين يدركون هذه الحقيقة ويعملون بها. ولكن الويل كل الويل لذلك الشعب الذي عميت بصائره فلم يدر أين يولي وجهه، ثم يضطر إلى أن يجد له في آخر الأمر مخرجا مما يعانيه بالالتجاء إلى الحرب الوحشية البغيضة إلى الله والناس، ذلك شعب سيذوق وبال أمره وستكون عاقبة أمره خسرا، وستحيق به هزيمة لن تقوم له بعدها قائمة.

وليس للدولة الاشتراكية الوطنية معنى وليس لقيامها غرض إلا أن تعد الشعب الألماني "للحرب المقبلة" بكتم أنفاس المعارضين من أبنائه وإخراجهم منها، وقمع كل

معارضة مهما تكن ضئيلة والقضاء عليها بأقسى الوسائل، وجعل الشعب الألماني أداة حرب ذليلة تؤمر فتطيع، ليس لها فيما تعمله رأي، يسوقها الجهل والتعصب. ذلك هو معنى الدولة الاشتراكية الوطنية والغرض منها، ولا يمكن أن يكون لها معنى أو غرض سواهما، وليس ثمة ما يبرر وجودها إلا هذا المعنى وذاك الغرض، وكل ما يضحي به الشعب الألماني من حرية وعدالة وسعادة إنسانية؛ وكل ما تفترقه هذه الدولة من جرائم سرية وعلنية ترتكبها وهي منشرحة جذلة .. كل هذا إنما يرمي إلى غاية واحدة، هي إعداد الشعب إعداد كاملا للحرب، ولو أن الفكرة القائلة بأن الحرب غاية في ذاتها قد انمحت، لما كان لهذا النظام معنى إلا استغلال هذا الشعب، ولكان قيامه عبثا وسخافة.

والحق أنه عبث وسخافة معا، وليس هذا لأن الحرب لن يسمح بأن تدور رحاها فحسب، بل لأن الفكرة الأساسية في هذه الدولة وهي الاستعداد الكامل للحرب ستؤدي بالشعب إلى عكس الغرض الذي نرمي إليه، فليس ثمة شعب آخر على ظهر الأرض عاجز عن خوض غمار الحرب أو الصبر عليها عجز الشعب الألماني نفسه، وأول أسباب هذا العجز، وإن كان أقلها شأنا، هو أن ألمانيا لن يكون لها حلفاء. فستنبذ ألمانيا وتتخلى الأمم عنها — وهذا أمر رهيب بطبيعة الحال حتى في عزلتها الحاضرة — ولكن أشد من هذا رهبة أنها قد تخلت هي عن نفسها.

لقد ذلت ألمانيا وضعفت من الوجهة المعنوية، وفسدت أخلاقها، وتمزقت في داخلها بسبب سوء ظنها الشديد بزعمائها من كثرة ما أساءوا إليها في هذه السنين الأخيرة، وساد القلق نفوس أهلها، وهم بطبيعة الحال يجهلون ما هو مخبأ لها في ذمة المستقبل، ولكن نذر الشر غير خافية عليهم، ولهذا فإنها لن تخوض غمار الحرب بالحالة التي كانت عليها في عام ١٩١٤، بل ستكون حتى من حيث قوتها المادية كما كانت في عام ١٩١٧ وعام ١٩١٨.

ولن يكفي أنصار هذا النظام — وهم لا يزيدون على عشر الأمة، وقد تخلى نصفهم عنه — لأن يحرزوا النصر في حرب سيكون هم الكثرة الغالبة من الباقين أن

تنتهز الفرصة السانحة لتلقي عن كاهلها ذلك النير المخزي، الذي ناءت به زمنا طويلا، حرب ستنقلب بعد الهزيمة الأولى المحققة إلى حرب أهلية.

لا. إن تلك الحرب مستحيلة، وليس في مقدور ألمانيا أن تخوض غمارها، وإذا كان لطغاتها عقول يفقهون بها، فإن أقوالهم التي يؤكدون فيها حسن استعدادهم للسلم ليست حيلا وأكاذيب ينطقون بها وهم ينظرون شذرا إلى أشياعهم، بل هي أقوال أنطقهم بها وهن عزائمهم وعملهم بهذه الاستحالة.

وإذا كانت الحرب لن يندلع لهيبها، ولا يمكن أن يندلع لهيبها، فلم إذن يبقى هؤلاء اللصوص السفاحون؟ لم إذن هذه العزلة وهذا العداء للعالم كله؟ ولم هذا الخروج على القانون وهذا الحجر على العقول؟ ولم هذا الظلام الثقافي المخيم؟ ولم يرتكب غير هذا كله من الشرور؟ لم لا تعود ألمانيا باختيارها إلى النظام القائم في سائر الدول الأوروبية؟ ولم لا تزيل ما بينها وبين أوروبا من خلاف فيتمتع شعبها بما يستتبع هذا الزوال من حرية وعدالة ورفاهية وآداب إنسانية راقية، ويلقي من سائر الشعوب ترحيبا بانضمامه إليها وابتهاجا بقبوله في أسرتها؟ وما الذي يمنع هذا؟ لا شيء إلا أن هذا النظام الذي ينكر بالقول والفعل حقوق الإنسان المقدسة؟ والذي يبغي أولا وآخرا أن يحتفظ بسلطانه، هذا النظام ستثبت سخافته ويقضي عليه إذا جنح فعلا إلى السلم لأنه عجز عن أيقاد نار الحرب ولكن هل يعد هذا سببا معقولا؟

لقد نسيت يا جناب العميد أني ما زلت أخاطبك، وما من شك في أني أستطيع أن أواسي نفسي بأن أفكر أنك قد امتنعت من زمن طويل عن قراءة هذه الرسالة، بعد أن أزعجتك لغتها التي لا ينطق الناس بمثلها في ألمانيا من عهد بعيد، وارتعت لأن إنسانا يجرؤ على استخدام اللغة الألمانية بحريتها القديمة، إني لم أنطق بما نطقت به دفوعا إلى ذلك الكبرياء والغرور، وإنما يدفعني إليه اضطراب نفسي، وألمي الذي لم ينتزعه من قلبي طغيانكم حين قرروا أنني لم أبق بعد ألمانيا ، ذلك ألم روحي وعقلي لم يفارقني ساعة واحدة من ساعات حياتي طوال السنين الأربع الماضية، ألم لك يكن لي بد من أن أكافحه وأنا أقوم بأعمالي العلمية الإنشائية يوما بعد يوم، لقد كان هذا

الكفاح عبئا ثقيلا علي، ولما كان كل إنسان حتى الرجل القليل الإيمان بالأمور الدينية الذي يمنعه ضعف إيمانه أن يجري اسم الله على لسانه أو قلمه إلا قليلا أو لا يجري عليهما مطلقا، ولما كل إنسان لا يستطيع أن يحجم عن ذكر اسم الله في أوقات الأزمات النفسية الشديدة، فلتسمح لي بأن أختم هذه الرسالة – ولا بد لي أن أختتمها لأن الإنسان لا يستطيع مهما أطال أن يقول ما في نفسه – بهذا الدعاء الحار القصير! اللهم أعن بلدنا المظلم المدنس، وعلمه أن يسالم العالم ويسالم نفسه.

توماس مان

كشناخت[1]، زيورخ

في يوم رأس السنة، من عام ١٩٣٧

وبعد أن كتب توماس مان هذه الرسالة بزمن قصير انتقل إلى أمريكا ليتخذها موطنا دائما له، وفي اليوم الرابع عشر من إبريل سنة ١٩٣٧ عبرت درثي طمسن عما يجيش في صدور كل محبي الحرية حين قالت: "يسرنا أن قد جئت يا توماس مان إلى هذا البلد إن أمة من الأمم لا تستطيع أن تنفيك لأنك مواطن عظيم في بلد عظيم، وحيثما يحب الناس العقل ويبغضون الحجر على الأفكار، ويجانبون ظلمات الجهل، ويتجهون نحو النور، ويقرون بالجميل، ويمتدحون الفضيلة، ويحتقرون الدنايا، وتفيض قلوبهم بحب الجمال، وحيثما تكون القلوب مرهفة حساسة، والعقول كريمة والنفوس حرة، – حيث يكون هذا كله موطنك. وإن بلدا يرحب بك ويعظمك إنما يعظم نفسه، وأما مكانتك في التاريخ فلسنا في شك منها، وقد يختلف الناس بعد أجيال من هذا الوقت في حكمهم على من اضطهدوك أيا كانت مصايرهم، أما أنت فسيقولون عنك: إن فضائله لم تكن أقل من مواهبه. ولقد كان يخدم الفن المرهق لخدامه متواضعا، ويعمل لأسمى الأغراض الإنسانية شريفا كريما".

ولفتت رسالة توماس مان إلى عميد كلية الفلسفة في جامعة بن أنظار الناس

(1)Cusnacht, Zurich

جميعا في القارات الخمس وأخذ الناس يقرؤونها بشغف ونهم حتى في ألمانيا نفسها، وكانوا يعرضون أنفسهم بقراءتها للخطر الشديد.

وعاش تومس مان في مدينة برنستن من أعمال نيوجرسي[١] غير بعيد عن رجل آخر ذي شهرة عالمية هو ألبرت أينشتين[٢]

(1)Princelon, New Jersey

(2)Albert Einstein

فرجينا ولف[١] تشعر بأنها لا تستطيع البقاء على ظهر الأرض

[رسالتها إلى زوجها ليونارد ولف]

في أواخر شهر مارس سنة ١٩١٤ قضت الكاتبة الشهيرة فرجينيا ولف نحبها وراحت ضحية الحرب العالمية الثانية.جلست مسز ولف إلى مكتبها في صباح ذلك اليوم من أيام شهر مارس وكتبت رسالتي وداع إحداهما إلى أختها فانسا[٢] زوجة الكاتب الناقد كليف بل[٣] والأخرى إلى زوجها العالم الاقتصادي ليونارد ولف[٤] وهذا نص الرسالة الثانية:

٦٧ –

"إني أسمع أصواتا"

[مارس سنة ١٩٤١]

إني أحس بأني سأجن، وليس في مقدوري أن أبقى على ظهر الأرض في هذه الأوقات الرهيبة، إني أسمع أصواتا ولا أقوى على حصر فكري في عملي؛ لقد قاومت هذا الشعور ولكني عاجزة عن الاستمرار في هذا الكفاح، إني مدينة لك بكل ما تمتعت به من سعادة في هذه الحياة، فقد أحسنت إلي كل الإحسان، ولست أستطيع البقاء لأفد عليك حياتك.

---

(1)Virginia Woolf

(2)Vanessa

(3)Clive Bell

(4)Leonard Woolf

وماتت فرجينيا ميتة سريعة في كوخ منعزل يعرف "بيت الراهب[١]" قائم على الحافة الشرقية لتلال "الدون الجنوبية"[٢]. وكان الهواء يموج بأزيز قاذفات القنابل الألمانية، وكان آل ولف قد جاءوا إلى هذا المكان بعد أن تهدم الجميل في لندن، ولم يكن بيتهم الجديد يبعد عن شاطئ البحر بأكثر من بضعة أميال. وكانت القنابل المحرقة تتساقط هناك على الدوام فتصب كثيرا من السكان، وكانت مسز ولف تسعف الجرحى وتقدم لهم كل ما في وسعها من عناية.

وفي أوائل عام ١٩٤١ فرغت فرجينا ولف من كتابة رواية قصيرة اسمها "بين الفصول[٣]" ولكنها لم ترض عنها وإن كان جون لهمن[٤] شرك آل ولف في مطبعة هوجارث[٥] قد أعجب بها كثيرا، ولكنها لم تقتنع برأيه. وفي صباح اليوم الذي صممت فيه على الانتحار جلست إلى مكتبها وكتبت الرسالتين اللتين أشرنا إليهما قبل، وسارت كعادتها فوق التلال إلى نهر أوز[٦] ووضعت عصاها على الأرض وألقت بنفسها في تياره الجارف.

وقال المحققون: "إنها انتحرت على أثر اضطراب في قواها العقلية". وكانت فرجينيا ولف أعظم من كتبن الروايات من النساء في إنجلترا بعد جورج إليت[٧] وأعظم كتاب المقالات فيها رجالا ونساء بعد تشارلس لام[٨].

---

(1)Monk's House

(2)South Downs

(3)Between The Acts

(4)John Lehman

(5)Mogarth Press

(6)River Ouse

(7)George Eliot

(8)Charles Lamb

الفهرس